

توجيهات وآداب ربانية

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُورَتْهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٢١) يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٢٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٢٣) وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٢٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٥) ﴿

معاني المفردات

(يقنت) القنوت : الطاعة في سكون والعبادة في خشوع .

(مرض) تطلع إلى الفسق والفجور .

(وقرن في بيوتكن) يقال : قررت في المكان أقر به إذا أقمت فيه .

(ولا تبرجن) التبرج : الظهور مع إظهار ما يجب ستره .

(الرجس) الدنس الحسى (والحكمة) هي حديث رسول الله - ﷺ - .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال ، مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ، ولا يخشين من أجله العقاب ، وفي الآخرة يرزقن مالا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

وبعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن من في قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار في بيوتهن ، ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله

ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه سبحانه أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهم بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعه من النبي (ﷺ) من السنة .

وبعد أن أمر سبحانه نساء نبيه (ﷺ) بأشياء ونهاهن عن أخرى ، ذكرهنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة ، روى أحمد عن عبد الرحمن بن شبيب قال : « سمعت أم تسلمة زوج رسول الله (ﷺ) تقول : قلت للنبي (ﷺ) : مالنا لا نذكر في القرآن كما يفكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس : إن الله تعالى يقول في كتابه (إ المسلمون والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات - إلى قوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ (١) .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾ .
 أى : من تطع منكن وتستجب لله - تعالى - ورسوله (ﷺ) وتعمل من الصالحات ، وتفعل الطيبات ، وتجتنب المنهيات نضاعف لها الأجر والثواب ، وأعتدنا لها رزقا كريما في الدنيا والآخرة فإن أزواج النبي (ﷺ) أمهات المؤمنين وهن في الآخرة مع رسول الله (ﷺ) في الجنة وكفى بهذا شرفا وقدرًا .
 قوله تعالى :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ .
 هذه آداب ربانية وتوجيهات إلهية حكيمة اشتملت على نصائح قيمة رفيعة ، خاطب الله بها نساء النبي ونساء الأمة تبعاً هن ، ومن ظن أنها مقصورة على نساء رسول الله محتجا بقوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ فقد أعظم على الله الفرية ، فإن نساء الأمة مأمورات بما أمر الله به نساء نبيه (ﷺ) ولكن نساء النبي لسن كأحد من نساء الأمة فى العقوبة والمثوبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن اتقيتن ﴾ أى : أن أتيتن بتقوى الله فليس هناك من يعد لكن من نساء الأمة إذ التقوى هى السلاح الأقوى .

ثم ساق الآداب والتوجيهات فقال : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ قال السدى - رضى الله عنه - يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ أى : دغل ومرض القلوب قد يكون مرض شبهة ، وقد يكون مرض شهوة كما فى هذه الآية .

(١) مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث عن عبدالرحمن بن شبيب .

أما مرض الشبهة فكما في قوله جل شأنه : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ قوله تعالى : ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ .

قال ابن زيد : قولا حسنا جميلا معروفا في الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

قوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أى الزمن بيوتكن . ففيها الوقار والسكينة لكن والاحترام والهيبة . فالمرأة في بيتها مصباح مضيء وسراج منير ، ولا تخرجن إلا لحاجة . ومن الحوائج الشرعية : الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله (ﷺ) : (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات) (١) وفي رواية : (وبيوتهن خير لهن) .

وقال الحافظ أبو بكر البراز بسنده عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت النساء إلى رسول الله (ﷺ) فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله - تعالى - فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله (ﷺ) : (من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى) (٢) ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح ، وهو بصرى مشهور .

وقال البزار بسنده عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) قال : (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى في قعر بيتها) (٣) .

وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضا عن النبي (ﷺ) قال : (صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها وصلاتها في بيوتها أفضل من صلاتها في حجرتها) (٤) وهذا إسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ لأئمة التفسير أقوال فيها . قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشبة وتكسر وتغنج فهى الله عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده ، فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج هو ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

قوله تعالى : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ بعد أن نهاهن عن السوء

(١) انظر سنن أبي داود ج ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ « كتاب الصلاة » باب ماجاء في خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٦٥ ، حديث رقم ٥٦٧ .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار « كتاب النكاح » باب ثواب من أطاعت زوجها ج ٢ ص ١٨٢ حديث رقم ١٤٧٥ من رواية لأنس ، قال البزار : لا نعلم من رواه عن ثابت إلا روح وهو بصرى مشهور .

(٣) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب الرضاع) باب ١٨ حديث رقم ١١٨٣ فقد ورد الحديث عن رواية لعبد الله ابن عمر بلفظ : (المرأة عورة ، فإذا اخرجت استشرفها الشيطان) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٤) انظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) باب التشديد في ذلك ٥٤ أى في خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٧٠ برواية عن عبد الله بن مسعود بلفظ : (صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها) .

أمرهن بإقام الصلاة ففي الصلاة عصمة وأمان . قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ^(١) وقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ ^(٢) وقال : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه صلى ﴾ ^(٣) وقال ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ ^(٤) ففي الصلاة طهارة للمصلى من اللغو والرفث ، كما أمرهن بعد ذلك بإيتاء الزكاة ففيها طهارة المال وطهارة القلوب من الشح . قال تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ^(٥) وقد جاءت الزكاة مقترنة بالصلاة في أساليب متنوعة وصيغ مختلفة جاءت بصيغة الماضي كما في قوله تعالى ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ ^(٦) وجاءت بصيغة المضارع كما في قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله - إن الله عزيز حكيم ﴾ ^(٧) وجاءت بصيغة الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ ^(٨) . وجاءت بصيغة الصفة كما في قوله تعالى ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ ^(٩) وجاءت بصيغة المصدر كما في قوله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ^(١٠) .

قوله تعالى : ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى في كل ما أمر به ونهى عنه وهو من باب عطف العام على الخاص .

قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . قال الامام ابن كثير هذا نص في دخول أزواج النبي - ﷺ - في أهل البيت ههنا ، لأنهم بسبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادى في السوق ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٤٥ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ١ - ٢ .

(٣) سورة الأعلى الآيتان : ١٤ - ١٥ .

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٤٥ - ٤٦ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ٤ .

(٦) سورة التوبة آية : ١٨ .

(٧) سورة التوبة آية : ٧١ .

(٨) سورة المزمل آية : ٢٠ .

(٩) سورة النساء آية : ١٦٢ .

(١٠) سورة النور الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

أهل البيت ويظهركم تطهيرا ﴿ نزلت في نساء النبي (ﷺ) خاصة^(١) وهكذا روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال نزلت في نساء النبي (ﷺ) خاصة ، وقال عكرمة : من شاء باهله إنها نزلت في شأن نساء النبي (ﷺ) فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : (الصلاة يا أهل البيت) ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(٢) .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطاء بن أبي رباح حدثني من سمع أم سلمة - رضي الله عنها - تذكر أن النبي - ﷺ - كان في بيتها فأتته فاطمة - رضي الله عنها - ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها فقال - ﷺ - لها : (ادعى زوجك وابنيك) قالت : فجاء علي وحسن وحسين - رضي الله عنهم - فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له وكان تحته - ﷺ - كساء خيبرى قالت وأنا في الحجرة أصلى فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ قالت - رضي الله عنها - فأخذ - ﷺ - فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) قالت : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال - ﷺ - (إنك إلى خير إنك إلى خير)^(٣) .

قال ابن جرير بسنده عن حكيم بن سعد قال ذكرنا على بن أبي طالب رضي الله عنه عند أم سلمة - رضي الله عنها - فقالت : في بيتي نزلت ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . قالت أم سلمة : جاء رسول الله (ﷺ) إلى بيتي فقال : (لا تأذني لأحد) فجاءت فاطمة - رضي الله عنها - فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن - رضي الله عنه - فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده (ﷺ) وأمه - رضي الله عنها - ثم جاء علي - رضي الله عنه - فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فجللهم رسول الله - ﷺ - بكساء كان عليه ثم قال : (هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت فوالله ما أنعم

(١) انظر تفسير الطبري : ج ٢٢ ص ٧ : تفسير سورة الأحزاب فقد ورد الحديث عن علقمة قال : (كان عكرمة ينادي في السوق .. الخ .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح الترمذى تفسير سورة الأحزاب ج ٩ ص ٦٧ - ٦٨ حديث رقم ٣٢٥٩ فقد ورد الحديث بلفظة عن أنس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الادب » باب قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ج ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصلح وفضله ج ٨ ص ٢٩ .

انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبي وائل عن عبد الله .

وقال : (إنك إلى خير) (١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطية الطفاوى عن أبيه قال : إن أم سلمة - رضى الله عنها - حدثته قالت : بينما رسول الله في بيتي يوما إذ قالت الخادم إن فاطمة وعليهما - رضى الله عنهما - بالسدة قالت : فقال لى رسول الله (ﷺ) (قومى فتحنى عن أهل بيتى) قالت : فقامت فتحنيت في البيت قريبا فدخل على فاطمة ومعها الحسن والحسين - رضى الله عنهم - وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما واعتنق عليا - رضى الله عنه - بإحدى يديه وفاطمة - رضى الله عنها - باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل عليا وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال : (اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى) قالت : فقلت وأنا يا رسول الله ؟ قال - ﷺ - : (وأنت) (٢) .

وقال ابن جرير بسنده عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : إن هذه الآية نزلت في بيتي : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت : يا رسول الله ، ألسنت من أهل البيت ؟ فقال - ﷺ - : (إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبي (ﷺ)) قالت وفي البيت رسول الله - ﷺ - وعلى وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم (٣) .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن يزيد عن العوام يعنى ابن حوشب - رضى الله عنه - عن ابن عم له قال : دخلت مع أبي على عائشة - رضى الله عنها - فسألتها عن علي - رضى الله عنه - فقالت - رضى الله عنها - : تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله - ﷺ - وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه ؟ لقد رأيت رسول الله - ﷺ - دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا - رضى الله عنهم - فألقى عليهم ثوبا فقال : (اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . قالت : فدنوت منهم فقلت يا رسول الله : وأنا من أهل بيتك ؟ فقال - ﷺ - : (تنحى فإنك على خير) .

وقال ابن جرير بسنده عن أبي سعيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله (ﷺ) : (نزلت هذه الآية في خمسة : في ، وفي علي ، وحسن ، وحسين ، وفاطمة) ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (٤) .

وقال مسلم في صحيحه : حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعا عن ابن علية قال زهير : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثني أبو حيان ، حدثني يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسمة إلى زيد بن أرقم - رضى الله عنه - فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله (ﷺ) وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا .

(١) انظر تفسير الطبري - تفسير سورة الأحزاب - ج ٢٢ ص ٤٦ ص ٧ فقد ورد الحديث عن حكيم بن سعد
(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي رباح وعن عطية الطفاوى عن أميه وانظر ص ٣٠٤ و ٣٠٥

(٣) انظر تفسير الطبري (تفسير سورة الأحزاب) ج ٢٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي سعيد عن أم سلمة .

(٤) انظر تفسير الطبري (تفسير سورة الأحزاب) ج ٢٢ ص ٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي سعيد الخدرى .

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله (ﷺ) قال : يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقد عهدي ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله (ﷺ) فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله (ﷺ) يوما خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك

فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال : (وأهل بيتي أذكركم الله فى أهل بيتي أذكركم الله فى أهل بيتي) ثلاثا . فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس - رضى الله عنهم - قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال نعم^(١) .

قال ابن كثير : والذى لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي (ﷺ) داخلات فى قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ واذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ قال ابن جرير : واذكرون نعمة الله عليكم بأن جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة . وهى السنة ، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

وقال قتادة : ﴿ واذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ قال يمتن عليهن بذلك رواه ابن جرير .

وقال عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ يعنى لطيفا باستخراجها خبيرا بمواضعها . رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن الربيع بن أنس عن قتادة .

قوله تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجر عظيما ﴾ .

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٨٧٣ حديث رقم ٣٦ - ٣٤٠٨ من رواية زيد بن أرقم وقد ورد الحديث بلفظه . وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ حديث (زيد بن أرقم - رضى الله تعالى عنه -) فقد ورد الحديث بلفظه .

قال الامام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن شيبة قال : سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي (ﷺ) تقول : قلت للنبي (ﷺ) ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري ثم خرجت إلى حجرق حجرة بيتي فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر : (يا أيها الناس إن الله يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) إلى آخر الآية (١) .

قوله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ يفيد أن الاسلام غير الايمان ، فالاسلام هو الامثال الظاهري والايمان هو التصديق القلبي . كما قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ .

وقال - ﷺ - : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) (٢) ومعنى ذلك أن الايمان يسلب منه حين الزنا ولكن لا يسلب منه الاسلام . فهو ليس بكافر بإجماع المسلمين . والاسلام والايمان وإن كانا متغايرين مفهومًا إلا أنها قد يتحدان أفرادًا . قال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ (٣) ومعلوم أن المقصود بهم هم الذين آمنوا بلوط - عليه السلام - وهم مسلمون في نفس الوقت . وهم أهل بيته ولا بد أن يتوافر للمرء لكي ينجو . الاقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان .

قوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون . قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ (٥) ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ (٦) ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ (٧) فالاسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الايمان ثم القنوت ناشيء عنها .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة - رضي الله عنهم - لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الاسلام ، وهو علامة على الايمان كما أن الكذب أمانة على النفاق ، ومن صدق نجا ، عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الصدق .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث من رواية عبدالرحمن بن أبي شيبة .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٣٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي الزبير من حديث طويل .

(٣) سورة الذاريات الايتان : ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة الزمر آية : ٩ .

(٥) سورة الروم آية : ٢٦ .

(٦) سورة آل عمران آية : ٤٣ .

(٧) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨ .

يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا^(١) ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا (والايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك .

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الاثبات وهى الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقى ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى أصعبه فى أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ .

الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث : (اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٢) :

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ .

الصدقة هى الاحسان إلى الناس المحاييج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وقد ثبت فى الصحيحين . قوله (ﷺ) (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : أمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخافها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه . ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع)^(٣) وفى الحديث الآخر : (والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار)^(٤) .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ : فى الحديث الذى رواه ابن ماجه :

(الصوم زكاة البدن)^(٥) أى يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، قال سعيد

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ج ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ج ٨ ص ٢٩ .
وانظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبى وائل عن عبد الله .

(٢) انظر مجمع الزوائد (كتاب الصلاة) باب فى صلاة العشاء الآخرة والصبح فى جماعة ج ٢ ص ٤٠ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لآبى الدرداء .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب فضل إخفاء الصدقة حديث رقم ٩١ - ١٠٣١ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة .

وانظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٣٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة من رواية أخرى .
(٤) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ كتاب الزهد (باب الحسد) حديث رقم ٤٢١٠ ص ١٤٠٨ وقد ورد أيضاً من رواية لأنس فى كتاب الفتن (باب) كف اللسان فى الفتن ج ٢ حديث رقم ٣٩٧٣ ص ١٣١٤ من رواية لمعاذ .

وانظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٣٩٩ فقد ورد الحديث عن جابر بن عبد الله .
(٥) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٥٥ (كتاب الصيام) باب فى الصوم زكاة الجسد (حديث ١٧٤٥) فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ (لكل شئ زكاة وزكاة الجسد الصوم) .

ابن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى : ﴿ والصائمون ﴾ والصائمات ﴿ والصوم من أكبر العون على كسر الشهوة قال رسول الله (ﷺ) : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) (١).

﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أى عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال عز وجل : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ (٢).

﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : إن رسول (ﷺ) قال :

(إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات) (٣).

وقال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى قال : قلت يا رسول الله : أى العباد أفضل درجة عند الله - تعالى يوم القيامة ؟ قال (ﷺ) (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) . قال : فقلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله تعالى ؟ قال : (لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه) (٤).

وقال الامام أحمد بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله (ﷺ) يسير فى طريق مكة فأتى على جمدان فقال : (هذا جمدان سيروا فقد سبق المفردون) قالوا : وما المفردون ؟ قال (ﷺ) : (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) ثم قال (ﷺ) : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : والمقصرين قال (ﷺ) (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : والمقصرين . قال (ﷺ) (والمقصرين) (٥) . وقال الامام أحمد حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة عن زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة قال : إنه بلغنى عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أنه قال : قال رسول (ﷺ) : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من تعطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟) قالوا : بلى يا رسول الله . قال (ﷺ) : (ذكر الله عز وجل) (٦).

(١) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب النكاح) ج ٤ ص ١٩٩ حديث ١٠٨٧ من رواية لعبد الله بن مسعود مع اختلاف فى ألفاظه .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥ - ٧ .

(٣) انظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) باب (قيام الليل) ج ٢ ص ٧٤ حديث ١٣٠٩ فقد ورد الحديث عن رواية أبي سعيد وأبي هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب (ما جاء فىمن أيقظ أهله الليل) ج ١ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ حديث رقم ١٣٣٥ من رواية أبي سعيد وأبي هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٧٥ فقد ورد الحديث لفظه من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٥) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة من حديث طويل وانظر صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) الخ باب (الحث على ذكر الله - تعالى -) ج ٤ ص ٨٦٢ حديث ٢٦٧٦ عن أبي هريرة .

(٦) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ .

وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس
الجعفي عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قال : إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم
أجرا يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) (أكثرهم لله تعالى ذكرا) قال فأى الصائمين أكثر أجرا ؟ قال
(ﷺ) : (أكثرهم لله عز وجل ذكرا) ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول
(رسول الله ﷺ) (أكثرهم لله ذكرا) فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير
فقال رسول الله (ﷺ) (أجل)^(١) .

﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أى : أن الله - تعالى - قد
أعد لهم أى : هيا لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة .
ومثل هذه الآية قوله تعالى . ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون
الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾^(٢) .

وقوله جل شأنه ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو
معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت
أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم
وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس
هم فيها خالدون ﴾^(٣) .

وقوله عز وجل : ﴿ الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق
معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن
عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم
فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم
راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات
مكرمون ﴾^(٤) .

قصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ
الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا ﴾^(١) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٤٣٨ من رواية لمعاذ بن جبل .

(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ .

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١١ .

(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ - ٣٥ .

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

معاني المفردات

(الخيرة) الاختيار (مبديه) مظهره (وطرا) الوطر كل حاجة للمرء له فيها همة والمراد : بلغ ما أراد من حاجته منها (حرج) ضيق وإثم .

وزيد بن حارثة بن شر حبيل كان عبدا لخديجة فوهبته للنبي (ﷺ) فأعتقه وتبناه فكان يدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادعوهم لأبائهم ﴾ فقيل : زيد بن حارثة .

وزينب هذه بنت جحش ، وأخوها عبد الله بن جحش ، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب عمه رسول الله (ﷺ) ، فهي من ذؤابة قريش .

روى : أن رسول الله خطب زينب بنت عمته فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين أنه يريد لها لزيد كرهت ذلك وامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها ومكانتها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ رضيا وقال أخوها : مرنى بما شئت فزوجها رسول الله لزيد (١) .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخبر زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا ، وفهم من هذا أن الرسول (ﷺ) لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شيء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره . ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الانسان في كل شيء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهي ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع وما أراد النبي (ﷺ) فهو الحق ، ومن خالفها فقد ضل ضلالا مبينا .

(١) انظر تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٩ فقد وردت روايات متعددة في هذا المعنى .

وقد نزلت هذه الآيات في زينب بنت جحش بنت عمة النبي (ﷺ) أميمة بنت عبدالمطلب ، وقد خطبها رسول الله (ﷺ) على مولاه زيد بن حارثة فأبى وأبى أخوها عبد الله بن جحش ، فنزل : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة .. ﴾ الخ . فلما نزلت قال : رضيينا يا رسول الله ، فأنحكها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما ، وخمارا ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة في هذا الزواج الذي لما يبال فيه النبي بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعدّه أصلا ترجع إليه في الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ويجرون عليه الأحكام التي يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب . فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ، ومن ثم قال في أول السورة : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ . وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعي إلى من تبناه ، والا يكون للمتبني إلا حق المولى والأخ في الدين وحظر عليهم أن يقطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ في النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بارادة قوية تسخر بسلطانها . ولا تجعل لها حكما في الأعمال إذا كانت المصلحة في خلاف ذلك ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل ، كما ألغى بالقول في أحد عتقائه . ومن ثم أرغم بنت عمته لتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهي جديد . ذلك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله - (ﷺ) المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء في تنفيذ حكم الله ويقول لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله ، الى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ ثم أكد هذا بقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

التفسير

قول تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ﴾ .

قال العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك أن رسول الله - ﷺ - انطلق ليخطب على فتاة زيد بن حارثة - رضي الله عنه - فدخل على زينب بنت جحش الأسدية - رضي الله الله عنها - فخطبها فقالت لست بناكحته فقال رسول الله - ﷺ - (بلى فانكحيه) قالت : يا رسول الله ، أوامر في نفسي ؟ فيينا هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول

الله - ﷺ - قالت : قد رضيته يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله - ﷺ - (نعم) قالت : إذ لا أعصى رسول الله - ﷺ - قد أنكحته نفسي ^(١) .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ هذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فلبس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ ^(٢) وفي الحديث (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) ^(٣) ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ كقوله تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ﴾ ^(٤) ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ ^(٥) وكقوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فمأرسلناك عليهم حفيظا ﴾ ^(٦) .
وكقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ^(٧) وقوله جل شأنه ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم ﴾ ^(٨) .

قوله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .
إنعام الله - تعالى - على زيد إنما يتجلى في نعمة الاسلام والتوحيد والهدايا إلى الحق ، وإنعام النبي - ﷺ - عليه بفضل الله - تعالى - إنما هو بالعتق والتحرير .

روى الإمام أحمد بسنده عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال كنت في المسجد فأتاني العباس وعلى بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فقالا يا أسامة أستاذنا لنا على رسول الله - ﷺ - فأتيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان ، فقال - ﷺ - : (أتدرى ما حاجتهما ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال - ﷺ - : (لكنني أدري) قال فأذن لهما ، قال : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا أي : أهلك أحب إليك ؟ قال - ﷺ - : (أحب أهل إلى فاطمة بنت محمد) قال : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة ، قال - ﷺ - : (فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه) ^(٩) وكان رسول الله - ﷺ - قد زوجه بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية - رضي الله عنها - وأمها أميمة

(١) انظر تفسير الطبري ج ٢٢ ص ٩

(٥) سورة آل عمران آية : ٣٢ .

(٢) سورة النساء آية : ٦٥ .

(٦) سورة النساء آية ٨٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة النساء -

(٧) سورة الأنفال من الآية : ٢٤ .

ج ص ٢٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٨) سورة التوبة جزء الآية : ٦٢ والآية ٦٣ .

(٤) سورة النور آية : ٦٣ .

(٩) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ تفسير سورة الاحزاب ص ٤١٩ .

بنت بن المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفا ودرعا وخمسين مدامن طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينها فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله - ﷺ - فجعل رسول الله - ﷺ - يقول له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) . قوله تعالى : ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ أى : تخفى في نفسك الأمر الذى أعلمك الله به من أن زيدا سيطلق زينب وستكون زوجا لك ، وقد كان رسول الله - ﷺ - قد غلبه الحياء فأخفى هذا الأمر ، كما أنه كان يخشى أن يقول الناس عنه إنه تزوج امرأة متبناه ، وقد روى البخارى أن هذه الآية ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه .. ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة - رضى الله عنها .

الحكمة من زواج زينب بزيد ثم من الرسول - ﷺ -

جاء فى كتاب (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ) للدكتور ابراهيم شعوط ما نسوقه بنصه قال :

١- قصة زواج الرسول بزينب بنت جحش :
كانت تقاليد العرب فى الجاهلية تقضى - فى نظام الأسرة - بأمور :
أحدهما أن المرأة القرشية لا يمكن أن تتزوج مولى من الموالى مهما كانت ثقافته ومنزلته ، وتعتبر مثل هذا الزواج . خروجا على التقاليد والعادات . التى تحترم فروق الطبقات .
ثانيهما : أنه إذا حدث أن تزوج المولى بامرأة من قريش وطلقها فإن منزلتها تهون بهوان زوجها . فلا يتزوجها شريف ولا محترم .
وثالثهما : أن زوجة الابن المتبنى ، كانت تحرم على الوالد بالتبنى . كما تحرم زوجة الابن من الصلب فلما جاء الاسلام كان لابد له أن يغير من وضع هذا المجتمع ، كما ذكر القرآن الكريم ضمن المحرمات على الرجل قوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ (١) وذلك بخلاف الابناء عن طريق التبني ويحطم نظام الطبقات ، كما يقضى على عادات الجاهلية الممقوتة .

فأوحى إلى رسول الله - ﷺ - أن يزوج شريفة قرشية ، من أعلى سلالات قريش نسبا - يزوجها - من مولاه (زيد) الذى كان رقيقا وأعتقه رسول الله - ﷺ - ثم تبناه ، ليترتب على هذا الزواج الأمور الآتية :

أولا : أن تكون القرشية التى تقوم بهذا الدور ، هى بنت عمه الرسول ، ومن القمة فى قريش . لتكون تحت هذا المولى ، فتتحطم الفوارق بالأصل والحسب ، ويصبح التفاضل بمعايير أخرى جديدة . تقوم على المبدأ الإلهى الجديد وهو ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٢) ولا فضل لعرب على عجمي

(١) سورة النساء من الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٣ .

إلا بالتقوي ﴿١﴾ فيخطب رسول الله - ﷺ - بنت عمته زينب بنت جحش ، لمولاه أو ابنه المتبنى (زيد ابن حارثة) فيثور الكبرياء العربي في نفس زينب وأخيها عبد الله بن جحش ، وتتمثل لهما المهانة كلها في هذا الزواج لكن قرآنا ينزل في شأن زينب وأخيها بالذات ، ليقطع عليهما طريق الجدل فيتلو عليهما رسول الله - ﷺ - في أمره تعالى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

وخضع الرجل وخضعت المرأة المؤمنة للأمر الإلهي ، فسلمت جسدها لزيد ، ولكنها لم تستطع أن تعطيه قلبها الذي تملكه عادات موروثه ويتحكم فيه العجز عن مجابهة الحقيقة الجديدة ، التي لم تسبقها تجربة قبل تطبيقها على زينب ، فتظل جامحة نافرة من قسوة التجربة وغرابة التطبيق ، فلا تستطيع أبدا أن تتصور أن هناك كفاءة بينها وبين زيد ، لأنه شتان بين نسبها ونسبه . وحسبها وحسبه . وكان موقفها أمام الأمر الإلهي ورغبة الرسول ، ينطبق عليه المثل الانجليزي الذي يقول : (في وسعك أن تأق بالجواد إلى شاطئ النهر ، ولكن ليس في وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد) . نعم ، إن زينب استجابت ببدنها وجسدها ، ولكنها تجدد الغصة ، دائما في حلقها ، وتحس التمرد في قلبها ، كلما تذكرت أنها - وحدها - من بين الشريقات الحرائر ، يكتب عليها الزواج من إنسان كان - إلى عهد قريب - من ضمن العبيد الأرقاء . بينما نظيراتها - ومن هن أقل منها - يتزوجن من أكابر الأشراف والأحرار !!

وكان زيد ، يعاني من تلك العوامل النفسية عند زينب ، أشد ما يعانيه المعذبون في حياتهم الزوجية .

كان هذا هو التخطيط الإلهي لأنه سترتب على فساد العشرة بين زيد وزينب ، أثر آخر لا بد من تحقيقه في المجتمع . ولكن موعد هذا الأمر لم يكن معروفا لرسول الله ، وإن كان يعلم أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها بعد زيد ، ليقضى على فكرة تحريم زواج الوالد من زوجة ابنه المتبنى إذا طلقها . ولكن متى ذلك ؟ هذا هو الذي لم يعرفه رسول الله - ﷺ - ولذلك كان يقول لزيد - حينما يشكو له - : (أمسك عليك زوجك واتق الله) . وكان رسول الله - ﷺ - يدور في خلده ، مقالة قریش في الخروج على العادات والتقاليد ، كلما شكاه زيد من عجزه عن العيش مع زينب ومن أجل ذلك نزلت الآيات .

﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ .
وثانيا : كان من وراء هذا التدبير ، أن يطلق زيد زينب ، فيتزوجها رسول الله ليحقق غرضين :

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ باب (حديث رجل من أصحاب النبي) فقد ورد الحديث عن فقرة من حديث طويل .

(١) أن يبطل ما كان تدين به العرب من مساواة الأدياء - الأبناء بالتبني - بالأبناء الحقيقيين في كل شيء ، تنفيذا للأمر الألهي في الآية : (وما جعل أدياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)^(١) وكذلك النص على المحرمات من النساء لقوله : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم)^(٢)

٢ - أن يضرب مثلا آخر لاتباعه في المجتمع الجديد ، بإحقاقه على زواج المرأة التي هانت منزلتها - بعيشها تحت عبد رقيق - لأنها لو تركت من غير أن يتزوجها رسول الله . لبقيت في مهانة إلى الأبد : لا يقربها شريف من قومها ، ولا يرد لها اعتبارها .

فمن الذي يرفع قدرها ، ويشرح صدرها ، ويعيد إليها مكانتها بين أترابها ؟ من غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم الذي أمرها أن تتزوج من مولاه ؟

فإذا كان أمر رسول الله هو سبب نزولها - فإن زواجها من رسول الله هو الذي يداوى جراحها ، ويرفع هامتها ، ويمدها بالعز والمجد والعظمة هذه هي صورة زواج رسول الله من زينب بنت حجش .

فهل رواها المفسرون والمؤرخون على هذا الوجه المنتزع من الحقيقة والواقع وما ترتب عليها من التشريع الجديد الذي يعتبر مفخرة للإسلام ورسول الإسلام ؟ .

تعالى معي لنمحص على المؤرخين - والمفسرين المسلمين - غفلتهم وهم يمدون خصوم الإسلام بالأسلحة التي يطعنون بها معتقداتنا ، ومقدساتنا ، فذكروا رسول الله - وهو المعصوم - بأمر يطعنه في خلقه ، وهو الذي أثنى عليه ربه من أجله فقال له : (وإنك لعلی خلق عظيم)^(٣) .

فهذا الطبري ، وابن الأثير ، وهما من كبار المؤرخين المسلمين جاء فيما نقلاه عن زواج رسول الله بزینب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج يريد زيدا وكان على باب زيد ستر من شعر ، فرفعه الريح فرأى زينب وهي حاسرة فأعجبته ، وكرهت الى زيد فلم يستطع ان يقربها .

وقال المفسرون : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مربييت زيد ولم يكن فيه زيد ، فرأى زينب فبهره حسننها وقال : « سبحان مقلب القلوب » (راجع تفسير ابو السعود ج ٤ تجد فيه ما لا يليق بمسلم ان يذكره عن رسول الله المعصوم) وقال أخزون : انه لما فتح باب زيد ، عبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب ، فرآها في قميصها ممددة - كما تقول المستشرق التافهة مدام « ديكاميه » - فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة ، وعائشة وحفصة ، وزينب بنت مخزوم ، وام سلمة ، نسي كذلك ذكرى خديجة . ومن هؤلاء الدكتور طه حسين الذي يقول : (إن الله أراد أن يمتحن نبيه ويمتحن في ذلك زيدا ، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعا فيلقى في قلب النبي حي زينب زوج زيد ، ويلقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها) .

والمؤسف فيما كتبه المؤرخون المسلمون ، أنهم أخذوا من المستشرقين الذين يهمهم تشويه سمعة الرسول وأصحابه .

(١) الأحزاب آية : ٤

(٢) النساء آية : ٢٣

(٣) القلم آية : ٤

- ومن الذين صوروا هذه القصة تصويرا لا يليق ، المستشرق جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) حيث يقول : ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال : (حبيب إلى من دنياكم ثلاث ، الطيب والنساء ، وجعلت قرعة عيني في الصلاة ولم يبال محمد بسن المرأة التي يتزوجها ، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين ، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين ، وأطلق محمد العنان لهذا الحب . حتى انه رأى اتفاقا . زوجة ابنه بالتبني وهي عارية ، فوقع في قلبه شيء منها ، فسرحتها بعلها ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون فأوحى الله الى محمد بواسطة جبريل ، الذي كان يتصل به يوميا ، آيات تسوغ له ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت

ومما يشير الأسى والحزن ويحدث الجراح الدامية في عقيدة المسلمين . ما ذكره الزمخشري وأبو السعود في تفسير سورة الأحزاب عند ذكر زواج زينب .

اسمعوا يا شباب الاسلام واحذروا !

يقول الامام الزمخشري في الجزء الثاني من تفسيره وأبو السعود في الجزء الرابع : (إن رسول الله - ﷺ - أبصر زينب بعد ما أنكحها إياه ، فوقع في نفسه فقال : (سبحان مقلب القلوب) وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لا خطبها) . ثم يقول الزمخشري :

فإن قلت : ما الذي افضى في نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها . ثم يقول الزمخشري ايضا : (فإن قلت : كيف عاتبه الله على ما استهجن التصريح به - وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس - أن تنزع إلى زينب وتتبعها ؟ قلت : كم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاق الناس عليه . وهو - في نفسه - مباح متسع وحلال مطلبه ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله) .

ثم يقول : (لأن طموح القلب إلى بعض مشتبهاته من امرأة أو غيرها ، غير موصوف بالقبح في العقل ، ولا في الشريعة ، لأنه ليس بفعل الانسان ولا وجوده باختياره) !! ثم يستطرد الزمخشري فيقول : (فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حيث كتبه ، وبالع في كتبه بقوله ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ لا يرضى إلا اتحاد الضمير والظاهر . والثبات في مواطن الحق . حتى يقتدى المؤمنون به ، فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرا .

هكذا قال الزمخشري وأفاض . . وتبعه الطبري في تاريخه ، وأبو السعود والنسفي في تفسيريهما ، وابن الأثير في تاريخه ، ومن نقل عن كل هؤلاء حتى مكنا للمستشرقين من الاطناب في تخريج هذه الروايات واتخاذها بوقا ضخما يذيعون منه ما تجود به بغضاؤهم وأحقادهم على رسول الله - ﷺ - . ونحن نقول : (عدو عاقل خير من صديق جاهل) يا مسلمون ؟ ان القصة تعتبر من مفاخر محمد - ﷺ - ، وتبرهن على تنفيذ ما أمر به من تشريع ، يراد به محو تقاليد الجاهلية وعاداتها ووجد في ذلك عنتا شديدا ، من مخالفته عادات القوم وتقاليدهم ، حتى اضطر إلى إخفاء الخطة المرسومة بينه

وبين ربه إلى أن يجد الظروف المناسبة لإعلان ما أخفاه . وهذا واضح جدا في قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ .

فكيف تؤخذ هذه القصة المأخذ الدنيء ؟ وكيف تصور تصوير قصص الغرام والوله ؟ وكيف يرويها رواة مسلمون في كتب انتشرت في كل أنحاء العالم من غير تدبر فيما تهدف إليه ، دون أن يدركوا أنه يكفي لتفنيدها أمور عدة : .

أولا : أن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ ففي الآية الكريمة ذكر صحيح صريح لسبب تزويج زينب من رسول الله - ﷺ - وهو إسقاط حرج المؤمنين من زواج نساء أولادهم بالتبني ، بعد أن يكون هؤلاء الأولاد قد قضوا من أزواجهم كل غرض . ولم يكن فيما طوت الآية ولا ما صارت به ما يدل - من قريب أو بعيد على أن رسول الله كان يهوى زينب أو وقعت من قلبه في مكان عميق ، حتى يحول ، ثم يقول : (سبحان مقلب القلوب) كما قال السادة المفسرون والمؤرخون !

ثانيا : أن زينب ابنة عمه محمد - ﷺ - .

ثالثا : أنها ربيت بعينه وتحت رعايته ، فيعرف منها مفاتها ومحاسنها قبل زواجها .

رابعا : أنه شاهدها تحبو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب فلو كان في نفسه إعجاب بها ما زوجها

لزيد ولاثرها لنفسه أولا .

خامسا : أنه هو الذي خطبها على مولاه زيد ، فلما امتنعت وأبى أخوها نزل القرآن في شأنها وشأن أخيها ، يأمرهما بتنفيذ أمر رسول الله فكيف يقال - بعد كل هذه الأدلة والشواهد - في حق رسول الله - ما يقال في حق أى عرييد ، مع علمنا بأن زواجه عليه السلام من زينب هذه ، كان بالأمر الإلهي ، ليبتل الحقوق التي كانت مقررة للتبني والادعاء وليرفع من مقام زينب ويدفع عنها خسيتها ، بعدما تزوجت من مولى كان - إلى عهد قريب - عبدا رقيقا ، ثم ليرفع من قدر زيد كذلك ، ولا يأنف الشرفاء أن يردوا موارد زيد وأمثاله ، وليذيب فوارق الحسب والنسب ، التي كانت دستورا للعرب في الجاهلية ، لأن المؤمنين سواسية (كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) .

سبحان مقلب القلوب

ماذا يراد بهذا العبارة التي صدرت من رسول الله - ﷺ - بعدما راجع زيدا مرارا ، وهو يقص

عليه تعاضم زينب وإبائها وإصرارها على أن تنظر إلى زوجها من برجها العاجي ؟

أدرك الرسول أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ، ولا ياتر بإرادة أو يذعن لعقل . فلما رآها

رسول الله بادية الحزن ؟ كثيبة خاطر ، أدرك أنه لا يستطيع أن يلزم زينب بالبقاء مع زيد لأن قلبها

عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذي يحبه رسول الله ، كما يحب لزينب أن تسعد في زواجها به . فقال هذه

العبارة من وحى ما رأى من تبرم زينب بزواجها زيد قال : (سبحان مقلب القلوب) .

وليس يفهم لهذا القول مدلول سوى هذا المدلول .

وبعد ، فلعل السرف في وقوع السادة المفسرين والمؤرخين في هذا الخطأ هو ما قاله ابن خلدون في هذه العبارة : (إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لا اعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو ثميना ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهاها ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط) ونحن ننقل ما رواه المفسرون والمحدثون في هذه القضية .

موضوع زينب بنت جحش

فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر جـ ١٠ ص ١٤٢ قال : كان رسول الله - ﷺ - أراد أن يزوجه من زيد بن حارثة مولاه . فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله - ﷺ - فزوجها إياه ، ثم أعلم الله - عز وجل - بنبيه - ﷺ - بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحي أن يأمره بطلاقها وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ! وكان قد تبنى زيدا . وفي رواية عن علي قال : (- أعلم الله نبيه - ﷺ - أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فما أتاه زيد يشكوها إليه قال له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) قال الله : قد أخبرتك أني مزوجكها ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه ﴾ .

وقد أطنب الترمذي الحكيم ، في تحسين هذه الرواية ، وقال (إنها من جواهر العلم المكنون) . ثم يقول ابن حجر : (والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي - ﷺ - هو اخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة الذي يدعى ابنه . ووقع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم . وإنما وقع الخلط في تأويل متعلق الخشية) وأخرج الترمذي بسنده عن عائشة قالت (لو كان رسول الله - ﷺ - كاتما شيئا من الوحي ، لكتم هذه الآية) ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ﴾ الآية . وان رسول الله لما تزوجهما ، قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ الآية .

حول عبارة (سبحانه مقلب القلوب)

كتاب الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ وعلى هامش تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٤ قال : (ذكر الثعلبي من غير سند وأخرج الطبري معناه من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قوله : وفي الصحيحين عن أنس قصة زينب مختصرة وليس فيه مما في أوله أ . هـ .

تفسير الخازن جـ ٤ ص ٢٦٢ لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن توفى عام ٧٢٥ هـ يقول :

فإن قلت ما ذكروه في تفسير هذه الآية وسبب نزولها ، من محبتها في قلب النبي - ﷺ - كما رآها ،

وإرادته طلاق زيد لها ، فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه - ﷺ - من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا : قلت : هذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفته بحق النبي - ﷺ - وفضله . وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته هو ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه - ﷺ - وهو يزوجه لزيد ، فلا يشك في تنزيه النبي - ﷺ - عن أن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، كما ذكر عن جماعة المفسرين .

قال : وأصح ما في هذا الباب . . أن الله عاتبه وقال : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟ وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء : وهو مطابق للتلاوة لأن الله - تعالى - أعلم نبيه أن يهدي ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ فلو كان الذي أضمره الرسول - ﷺ - محبتها وإرادة تطليقها لكان ظهر ذلك ، لأنه لا يجوز أن يخبره أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره . فدل ذلك على أنه إنما عتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون من زوجاته ، وإنما أخفى ذلك استحياء : أن يخبر زيدا أن التي تحتك وفي نكاحك ، ستكون زوجتي . وهذا قول حسن مرضي - الخ .

تفسير بقية المشهد .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾ .

المقصود بالوطر : الحاجة والارب ، والمراد : أنه لما قضى زيد حاجته من زينب وتزوجها وعاش معها ثم طلق (زوجناكها) وذلك لحكمة بالغة وهدف حكيم بينه الله في قوله تعالى : ﴿ لكي لا يكون المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ لما فصل الله - تعالى - في القضية وقال : ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آبائهم فأخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ فبعد إبطال الاسلام للتبني صارت امرأة المتبني بعد طلاقها من أحلها الله للمتبني إذا تزوجها ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أى : نافذا فالله - تعالى - إذا حكم لا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وهو سريع الحساب قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقلورا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب - رضى الله عنها - التي طلقها دعيه زيد بن حارثة - رضى الله عنه - وقوله تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أى : هذا حكم الله - تعالى - في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه . ﴿ وكان أمر الله قدرا مقلورا ﴾ أى وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه ، ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله

حسبنا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴿١﴾ .

هذا مقام من أسمى المقامات ، وهدف من أعلى الأهداف إنه تبليغ رسالات الله بأمانة وصدق إلى عباده ، وهذا المقام يشمل أنبياء الله الذين قللهم الله فيهم ﴿٢﴾ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴿٣﴾ .

إن الذى يبلغ رسالة الله قد امتلأ قلبه من خشيته والخوف منه وحده ﴿٤﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٥﴾ وقال تعالى : ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾ ﴿٦﴾ .

لقد علموا أن سلطان الله باق لا يزول ، فلم يخشوا ذا سلطان ، ووثقوا أن الرزق بيد الله ، وأن خزائن الله لا تنفذ أبدا فاعتمدوا على الله ، وعلموا أن من اعتصم بالله أدخله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ولا يبالي كيف أهلكه ، لقد علموا أن الناصر والحسيب والمعين هو الله فاعتمدوا عليه وسلموا الأمر إليه .

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ ﴿٧﴾ .

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿٨﴾ .

﴿كتب الله لا غلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز﴾ ﴿٩﴾ .

وعلى رأس هؤلاء جميعا ، أستاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية محمد - الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، كان كل نبي يبعث لقومه خاصة ويبعث هو إلى كل أحر وأسود ﴿١٠﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿١١﴾ ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ورحمى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ ﴿١٣﴾ .

(١) سورة التوبة الآية : ٥١ .

(٢) سورة ابراهيم من الآية : ١٢ .

(٣) سورة الحج آية : ٣٨ .

(٤) سورة غافر آية : ٥١ .

(٥) سورة المجادلة آية : ٢١ .

(٦) سورة الانبياء من الآية : ١٠٧ .

(٧) سورة الفرقان آية : ١ .

(٨) سورة الاعراف الايات : ١٥٦ : ١٥٨ .

نشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ونصحت الأمة ، ومحويت الظلمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا خيرا . خير ما جزاه نبيا عن أمته ، ورمولا عن قومه .

يا داعيا للواحد الديان يا هازما للبغى والطغیان
يا رافعا صوت العدالة عاليا ومؤذنا في الناس بالقرآن

لقد ورثت أمته مقام البلاغ بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضى الله عنهم - بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلايته فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها . فبنورهم يقتدى المهتدون وعلى منهجهم يسلك الموفقون .

قال - ﷺ - (ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)^(١) وقال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها)^(٢) وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾^(٣) .
روى الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقالا ثم لا يقوله فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن يخشى)^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴾ نهي أن يقال بعد هذا زيد بن محمد أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فإنه - ﷺ - لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه - ﷺ - ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة - رضى الله عنها - فماتوا صغارا ، وولد له - ﷺ - ابراهيم من مارية القبطية فمات أيضا رضيعا وكان له - ﷺ - من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة - رضى الله عنهم أجمعين - فمات في حياته - ﷺ - ثلاث وتأخرت فاطمة - رضى الله عنها - حتى أصيبت به - ﷺ - ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾^(٥) فهذه الآية نص في أنه لانبى بعده وإذا كان لانبى بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى .

لقد توج الله رسالته بأربع بشريات ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون

(١) مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه برواية لثويان من حديث طويل .

(٢) انظر المستدرک للحاكم « كتاب الفتن والملاحم » ج ٤ ص ٥٢٢ فقد ورد الحديث عن رواية لأبي هريرة .

(٣) سورة الصافات الايتان : ١٧١ - ١٧٣ .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٥) سورة الانعام من الآية : ١٢٤ .

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً^(١) .
 وإذا كان الله قد أكمل به الدين وأتم به النعمة فلا نبي بعده ، ومن ثم فلا رسول إذ الرسالة
 أخص من النبوة ، ومن ختم الأعم فقد ختم الأخص فلا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ﴿ ومن أظلم
 ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ
 الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم
 تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة
 وتركنم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع
 بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون^(٢) .

أحاديث في ختم النبوة

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب عن أبيه - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : (مثل
 في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون
 بالبنیان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة^(٣)) ورواه
 الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن
 الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبي » قال : فشق ذلك على الناس فقال : ولكن
 المبشرات .. قالوا يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء
 النبوة^(٤) .

وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : (مثل ومثل النبيين من
 قبل كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة^(٥)) .

وقال أيضاً بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن مثلى ومثل
 الأنبياء من قبل كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها
 فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنیان ويقولون الا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك - قال رسول الله -
 ﷺ - : (فكنتم أنا اللبنة^(٦))

وأخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (فضلت على

(١) سورة المائدة من الآية : ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٩٣ - ٩٤ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٣٦ ، ١٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي بن كعب عن أبيه وانظر سنن الترمذى
 « أبواب المناقب » باب ٢٢ حديث ٣٦٩٢ من رواية أبي بن كعب عن أبيه .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٢٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٦) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلته إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون ^(١) .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن العرياض بن سارية - رضى الله عنه - قال : قال لي النبي - ﷺ - : (إن عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجنودل فيطيطه) ^(٢) .

٣ وقال الزهري أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إن لي أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله - تعالى - بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي) ^(٣) فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد - ﷺ - إليهم ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف . له ، وقد أخبر الله - تبارك وتعالى - في كتابه ورسوله - ﷺ - في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليغلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب ، أفك ، دجال ، ضال ، ولو تخرق وشعبذ وأق بأنواع السحر والطلاسم والبيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله - سبحانه وتعالى - على يد الأسود العنسي باليمن ومسلمية الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنها كاذبان ضالان لعنهما الله وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله - تعالى - معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله - تعالى - بخلقه فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهؤن عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الأفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ . تنزل على كل أفك أثيم ^(٤) الآية وهذا بخلاف حال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرؤن به وينهؤن عنه ، ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمرا مادامت الأرض والسموات . (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .

الأمر بذكر الله وفوائده

قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ ﴾ ^(٥)

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » ج ١ ص ٣٧١ حديث ٥ / ٢٣٣ من رواية أبي هريرة .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لعرياض بن سارية من حديث طويل .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الفضائل » باب « في أسمائه ﷺ » - ج ٤ ص ١٨٢٨ حديث رقم ١٢٤ ٢٣٥٤ من رواية لمحمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وانظر الحديث رقم ١٢٥ ٢٣٥٤ .

(٤) سورة الشعراء الأيتان : ١٢٢ - ١٢٣ .

﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ، وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه النبى - ﷺ - مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن ، أرشد عباده إلى تعظيمه - تعالى - وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم ، وملائكته يستغفرون لهم ، كى يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان وكان بعباده المؤمنين رحيمًا .

وبعد أن ذكر - سبحانه - توجيهاته لنبيه فى أول السورة وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۖ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يقول تعالى - أمرا - عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . قال الامام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : (أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ) قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) : (ذكر الله عز وجل)^(١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : دعاء سمعته من رسول الله (ﷺ) لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك^(٢)

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » ، « باب » فضل الذكر ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ رواية لأبى الدرداء . وانظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث عن رواية لمعاذ بن جبل . وانظر تحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء . وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء . (٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٧٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابيان الى رسول الله (ﷺ) فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير قال - ﷺ - : (من طال عمره وحسن عمله) وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت علينا فمبنى بأمر أنشئت به ، قال - ﷺ - (لا يزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى)^(١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) قال : (أكثروا ذكر الله - تعالى - حتى يقولوا مجنون)^(٢) وقال الطبرانى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله (ﷺ) : (اذكروا الله ذكرا ، حتى يقول المنافقون إنكم تراءون)^(٣) وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله (ﷺ) : (ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رآوه حسرة يوم القيامة)^(٤) .

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ إن الله - تعالى - لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فإن الله تعالى لم يجعل لها حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال : ﴿ اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال عز وجل : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته . ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى عند الصباح والمساء كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾^(٥) وقوله تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهيج إلى الذكر أى أنه سبحانه وتعالى يذكركم فاذكروه أنتم كقوله عز وجل : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾^(٦) .

وقال النبى (ﷺ) : (يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه)^(٧) والصلاة من الله - تعالى - ثناؤه على العبد عند الملائكة هكذا قال البخارى بسنده عن الربيع بن أنس . وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

(١) أنظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ١٩٠ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن بشر .

(٢) أنظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧١ فقد ورد الحديث من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٣) أنظر حلية الأولياء للأصبهاني ج ٣ ص ٨٠ - ٨١ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس بلفظ « اذكروا الله ذكرا يقول المنافقون إنكم تراءون » وقال : غريب من حديث أبي الجوزاء لم يوصله الا سعيد عن الحسن .

(٤) أنظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو .

(٥) سورة الروم الآيتان : ١٧ - ١٨ .

(٦) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ - ١٥٢ .

(٧) أنظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعت وأسماى الله ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة من حديث طويل .

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وفرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ﴿^(١)﴾ وقوله تعالى : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ : أى بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الفكر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة . وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفرع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وماذاك إلا لمحبته لهم ورأفته .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : مر رسول الله (ﷺ) فى نفر من أصحابه - رضى الله عنهم - وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته . فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فحفضهم رسول الله (ﷺ) وقال : (لا ، والله لا يلقى حبيبه فى النار) ^(٢) .

وفى صحيح الامام البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله (ﷺ) رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله (ﷺ) : (أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟) قالوا : لا ، قال رسول الله (ﷺ) : (فوالله الله أرحم بعباده من هذه بولدها) ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم أى : من الله - تعالى - يوم يلقونه سلام أى : يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ ^(٤) وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ ^(٥) وقوله تعالى : ﴿ وأعد لهم أجرا كريما ﴾ ^(٦) يعنى الجنة وما فيها من المأكول والمشرب والملابس والمساكن والمنالك والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال الامام ابن القيم : فى الذكر نحو من مائة فائدة :

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضى الرحمن - عز وجل - .

(١) سورة غافر الآيتان : ٧ - ٨ وجزء من الآية : ٩ .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ١٠٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية انس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب « رحمة الولد » فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٤) سورة يس الآية : ٥٨ .

(٥) سورة يونس من الآية : ١٠ .

(٦) سورة الأحزاب من الآية : ٤٤ .

- الثالثة : أنه يزيل الهم والغم من القلب .
- الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .
- الخامسة : أنه يقوى القلب والبدن .
- السادسة : أنه ينور الوجه والقلب .
- السابعة : أنه يجلب الرزق .
- الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .
- التاسعة : أنه يورثه المحبة التي هي روح الاسلام ، وقطب رحي الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شيء سبباً ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله - عز وجل - ، فليلهج بذكره ، فإنه الدرس والمذاكرة ، كما أنه باب العلم ، فالذكر باب المحبة ، وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .
- العاشر : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الاحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الاحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .
- الحادية عشرة : أنه يورثه الانابة ، وهي الرجوع إلى الله - عز وجل - فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره ، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله ، فيبقى الله - عز وجل - مفزعه وملجأ ، وملاذه ومعاضه ، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .
- الثانية عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قرب منه ، وعلى قدر هفله يكون بعده منه .
- الثالثة عشرة : أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .
- الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه - عز وجل - وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله - تعالى - بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه .
- الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر الله - تعالى - له ، كما قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً .
- وقال النبي (ﷺ) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : (من ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)^(١) .
- السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسماك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ .
- السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .
- وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر في الذات والنعت وأسماء الله ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

انتصاف النهار ، ثم التفت إلى وقال : هذه غدوتي ، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتي ، وكلاما قريبا من هذا . وقال لي مرة : لا أترك الذكر إلا بينه إحجام نفسي وإراحته لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاما هذا معناه .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صداه كما تقدم في الحديث وكل شيء له صدا ، وصدا الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهب السيئات .

العشرون : أنه يزيل الوحشة بين العبد وربّه - تبارك وتعالى - فإن الغافل بينه وبين الله - عز وجل - وحشة لا تزول إلا بالذكر .

الحادية والعشرون : أن ما يذكر به العبد ربّه - عز وجل - من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الامام أحمد رضي الله عنه في (المسند) عن النبي (ﷺ) أنه قال : (إن ما تذكرون من جلال الله - عز وجل - من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به ؟) (١) .

الثانية والعشرون : أن العبد إذا تعرف إلى الله - تعالى - بذكره في الرخاء ، عرفه في الشدة ، وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع للذاكر لله - تعالى - إذا أصابته شدة أو سأل الله - تعالى - حاجة ، قالت الملائكة : يا رب صوت معروف ، من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله - عز وجل - إذا دعاه أو سألّه ، قالت الملائكة : يا رب ، صوت منكر من عبد منكر .

الثالثة والعشرون : أنه ينجي من عذاب الله - تعالى - ، كما قال معاذ - رضي الله عنه - ويروى مرفوعا : (ما عمل آدمي عملا أنجي له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى) (٢) .

الرابعة والعشرون : أنه سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبي (ﷺ) .

الخامسة والعشرون : أنه سبب إشغال اللسان عن الغيبة والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله - تعالى - ، وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، فلا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله - تعالى - والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله - تعالى - ، ترطب بكل باطل ولغو وفاحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السادسة والعشرون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة - مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبها إليه ، وأولاهما به ، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة .

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جلسه ، وهذا هو المبارك أين ما

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف في بعض الفاظه .

(٢) انظر حاية الأولياء ج ١ ص ٢٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ - رضي الله تعالى عنه -

كان .. والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .
الثامنة والعشرون : أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى ثاب عليه حسرة وقرّة يوم القيامة .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لاطلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر فى ظل عرشه ، والناس فى حر الشمس قد صهرتهم فى الموقف ، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففى الحديث عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله (ﷺ) : قال الله : (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

الحادى والثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من أعضاء الانسان فى اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذى فى جامعة من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : (لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل - عليه السلام - فقال : يا محمد أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)^(١) .
وفى الترمذى من حديث أبى الزبير ، عن جابر عن النبى (ﷺ) قال : (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة)^(٢) .

الثالثة والثلاثون : أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .
ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحنت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان ، يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه)^(٣) ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر)^(٤) .

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ٦ ج ٥ ص ١٧٣ حديث رقم ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن مسعود ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

(٢) سنن الترمذى أبواب الدعوات « باب ٦١ ج ٥ ص ١٨٤ حديث رقم ٣٥٣١ ، ٣٥٣٢ فقد ورد الحديثان من رواية أبى الزبير عن جابر . وقال : هذا حديث ٣٥٣١ حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير عن جابر .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الأدب) « باب » « فضل » لا إله إلا الله » ج ٢ ص ١٢٤٨ حديث رقم ٣٧٩٨ .

(٤) المرجع السابق .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس) (١) .

وفي الترمذى من حديث أنس بن مالك ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حمة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، أعتق الله ربه من النار ، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعا أعتقه الله من النار) (٢) .

وفيه عن ثوبان ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال حين يمسي وإذا أصبح : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد (ﷺ) رسولا ، كان حقاً على الله أن يرضيه) (٣) .

وفي الترمذى : (من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة) (٤) .

الرابعة والثلاثون : أن ذكر الرب - تبارك وتعالى - يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٥) .

وإذا نسى العبد نفسه ، أعرض عن مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها ، فهلكت وفسدت ولا بد ، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولا بد هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ،

وعطل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الذى صار أمره كله فرطاً ، فانفرط عليه أمره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك . ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى والاهتمام به ، وإزالة اللسان رطبا به ، وأن ينزله منزلة حياته التى لا غنى له عنها ، ومنزلة غذائه الذى إذا فقدته فسد جسمه وهلك ، ومنزلة الماء ، عند شدة العطش ، ومنزلة اللباس فى الحر والبرد ، ومنزلة السكن فى شدة الشتاء

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٤ « كتاب الذكر والدعاء » فضل سبحان الله حديث رقم ٨٥ - ٢٧٣١ وانظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٦١ من رواية أبي ذر .

(٢) انظر حلية الأولياء ج ٥ ص ١٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك وانظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ « كتاب النوافل » « باب » الترغيب فى آيات وأذ كاد يقولها إذا أصبح وإذا أمسى حديث رقم ١١ من رواية لانس .

(٣) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ج ٥ ص ١٣٣ حديث ٣٤٤٩ من رواية لثوبان « لم يرد منها » وإذا أصبح وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا دخل السوق ج ٥ ص ١٥٥ حديث رقم ٣٤٨٨ من رواية لسالم ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده .

(٥) سورة الحشر آية : ١٩ .

والسموم فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ، فأين هلاك الروح والقلب وفسادها من هلاك البدن وفساده ، هذا هلاك لا بد منه ، وقد يعقبه صلاح الأبد ، وأما هلاك القلب والروح ، فهلاك لا يرجى معه صلاح وفلاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها ، فمن نسي الله - تعالى - أنساه نفسه في الدنيا ، ونسيه في العذاب يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ ^(١) .
أى : تنسى في العذاب كما نسيت آياتنا ، فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها . وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ، وهو كتابه ، وهو المراد ويتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ، وأسمائه وصفاته وأوامره ، وآلائه ، ونعمه ، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه - تعالى - ، فإن الذكر فى الآية إما مصدرا مضافا إلى معموله الذى هو المذكور وإما إسما مضافا إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى من أعرض عن كتابي ولم يتله ، ولم يتدبره ولم يعمل به ، ولم يفهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيق عليه منكدة معذبا فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء ، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفشرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح : أنها تتناول معيشته فى الدنيا وعذابه فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة ينسى فى العذاب . وهذا عكس أهل السعادة والفلاح ، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة وفى البرزخ ، ولهم فى الآخرة أفضل الثواب .
قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ ^(٢) فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ^(٣) هذا فى البرزخ والآخرة . وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوثنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ﴾ فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ ^(٥) فهذا فى الآخرة .
وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ^(٦) .

هذه أربعة مواضع ذكر الله - تعالى - فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين : جزاء فى الدنيا ، وجزاء فى الآخرة . فالإحسان له جزاء معجل ولا بد ، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد ، ولو لم يكن إلا

(١) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٩٧ .

(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .

(٤) سورة النحل الآية : ٤١ .

(٥) سورة هود من الآية : ٣ .

(٦) سورة الزمر آية : ١٠ .

ما يجازى به المحسن ، من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره ، ولذته بمعاملة ربه - عز وجل - ، وطاعته وذكره ، ويعم روحه بمحبته ، وذكره وفرحه بربه - سبحانه وتعالى - أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

وما يجازى به المسيء : من ضيق الصدر ، وقسوة القلب ، وتشبته وظلمته ، وحزازاته ، وغمه ، وهمه ، وحزنه ، وخوفه ، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسن وحياة يرتاب فيه ، بل الهموم والغموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دينوية ، وجهنم حاضرة والاقبال على الله تعالى ، والانابة إليه ، والرضابه وعنه ، وامتلاء القلب من محبته ، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة وسمعت شيخ الاملام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .
وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بدلت لهم مثل هذه القلعة ذهباً ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه - تعالى - ، والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)^(١) وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط - مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقراهم قلباً ، وأسرههم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضائق بنا الأرض ، أتيناها ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب إنشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها ، وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ؟ .

قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله - تعالى - ومعرفته وذكره .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة الله تعالى ، ومعرفته ، ودوام ذكره ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه ، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ،

هو جنة الدنيا والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ، وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .
ولأنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله - عز وجل - فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

ولأنما يصدق بهذه الأمور من كان فى قلبه حياة ، وأما ميت القلب ، فيوحشك ، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك ، فإذا ابتليت به ، فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ، ولا تشتغل به عما هو أولى بك .

وأعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله - عز وجل - وإنقطاعك عنه ، وضياح وقتك عليه ، وشتات قلبك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك . فإذا بليت بهذا - ولا بد لك منه - فعامل الله - تعالى - فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك ، وتقرب إلى الله - تعالى - بمريضاته فيه ، وإجعل اجتماعك به متجرا لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر فى طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن فى سيره مطمع ، فلا تقف معه ، بل اركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه ، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضمن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ، فتؤخذ أو يطلع عليك الفجر ، وأنت فى المنزلة فتسير الرفاق فتصبح وحدك وأنى لك بلحاقهم .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسير العبد وهو قاعد على فراشه ، وفى سوقه ، وفى حال صحته وسقمه ، وفى حال نعيمه ولذته ، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه ، وسفره وإقامته ، فليس فى الأعمال شيء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه ، فسابق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقية الركب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وحكى عن رجل من العباد : أنه نزل برجل من العباد ضيفا ، فقام العابد ليله يصلى ، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب ، وهذا ونحوه له محمل صحيح ، ومحمل فاسد ، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، ولأنما محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه - عز وجل - وألصق حبه قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا وما فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفى قلبه ما الله - تعالى - به عليم .

وآخر قائم يصلى ويتلو ، وفى قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ، ما الله به عليم ، أو قلبه فى واد وجسمه فى واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبدان ، والمعمل على الساكن ، لا على الأطلال ،

والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبني .
السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله - تعالى - : قال الله تعالى : ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ ^(١) فالأول هو المؤمن استنار بالايمان بالله ومحبه ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن الله - تعالى - المعرض عن ذكره ومحبه ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، في النور ، والشقاء كل الشقاء في فواته .

ولهذا كان النبي (ﷺ) يبالي في سؤال ربه - تبارك وتعالى - حين يسأله أن يجعله في لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه ، وأمامه ، حتى يقول : (وإجعلني نورا) فسأل ربه - تبارك وتعالى - أن يجعل النور في ذاته الظاهرة الباطنة ، وأن يجعله محيطة به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نورا . فدين الله - عز وجل - نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلأأ ، وهو - تبارك وتعالى - نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه . وفي دعاء النبي (ﷺ) يوم الطائف : (أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

وقال ابن سعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه .

وقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ ^(٢) فإذا جاء - تبارك وتعالى - يوم القيامة للفصل بين عباده ، أشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ، فإن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، ويذهب نورهما ، حجاب تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى الأشعري : قام فينا رسول الله (ﷺ) بخمس كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور ، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ^(٣) ثم قرأ : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا ﴾ ^(٤) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ، وكشف من الحجاب شيئا يسيرا ، ساخ الجبل في الأرض ، وتكدك ، ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٦٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام - الخ ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢ حديث رقم ٢٩٣ - ١٧٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي موسى .

(٤) سورة النمل من الآية : ٨ .

عباس في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾^(١) قال : ذلك الله - عز وجل - ، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء .

وهذا من بديع فهمه - رضى الله تعالى عنه - ، ودقيق فطنته ، وكيف لا وقد دعا له رسول الله (ﷺ) أن يعلمه التأويل ، فالرب - تبارك وتعالى - يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له ، وإن رآته فالإدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس - والله المثل الأعلى - نراها ولا ندركها كما هي عليه ، ولا قريبا من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فقال : أأست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : أفندركها ؟ قال : لا ، قال : فالله - تعالى - أعظم وأجل .

وقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - لنوره في قلب عبده مثلاً لا يعقله إلا العالمون ، فقال - سبحانه وتعالى - ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج كإنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾^(١) [النور : ٣٥] .

قال أبي بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم . وهذا هو النور الذى أودعه في قلبه من معرفته ومحبه والإيمان به ، وذكره ، وهو نوره الذى أنزله اليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله في قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه ، يضيء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا ، لا باطنا ، أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب . وضرب الله - عز وجل - لهذا النور ، ومحلّه ، وحامله ، ومادته مثلاً بالمشكاة ، وهى الكوة في الحائط ، فهى مثل الصدر ، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبهت بالكوكب الدرّى في بياضه وصفائه ، وهى مثل القلب ، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هى في قلب المؤمن ، وهى : الصفاء ، والرقّة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله - تعالى - ، ويغلظ عليهم ويشتد في الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، فلا تبطل صفة من صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعد وتعاوضها ، ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾^(١) وقال تعالى ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة النور آية : ٣٥ .

(٣) سورة الفتح من الآية : ٢٩ .

حولك ﴿١﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم﴾ ﴿٢﴾ وفي أثر : (القلوب آنية الله - تعالى - في أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها) .
 وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقيض . أحدهما : قلب حجري قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا عالم بالحق ، ولا راحم بالخلق ، وبإزائه قلب ضعيف مائي ، لا قوة فيه ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير في غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبث ، وفي الزجاجاة مصباح ، وهو النور الذي في الفتيلة ، وهي حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .
 وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن ، هي من شجرة الوحي التي هي من أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء ، فهذه مادة مصباح الايمان في قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت به إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نورا على نور . وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله - تعالى - عليه ، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة ، فصار نورا على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته ، فيكون نورا على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآيات العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة ، فذكر - سبحانه وتعالى - نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذي استنارت به البصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استنارت به أقطار العالم العلوي والسفلي ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعيش فيه آدمي ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد ، لا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه . والله - سبحانه وتعالى - يقرن بين الحياة والنور ، كما في قوله - عز وجل - : ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ ﴿٣﴾ وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٣ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .

الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا فهدى به من نشاء من عبادنا ﴿١﴾ .
وقد قيل : إن الضمير فى ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب وقيل : إلى
الايمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح ، أى : جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نورا ، فسماه
روحا لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الاشرار والاضاءة ، وهما متلازمان ،
فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الاضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة
والاضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه
روح الحياة فهو هالك مضمحل .

فلهذا يضرب - سبحانه وتعالى - المثلىن : المائى والنارى معا ، لما يحصل بالماء من الحياة ،
وبالنار من الاشرار والنور ، كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذى
استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ (٢) وقال :
﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولم يقل : بنارهم لأن النار فيها الاحراق والاشراق ، فذهب بما فيه الاضاءة
والاشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والاحراق . وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم
بالنفاق ، وبقي فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرما
وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ، فأصلاهم الله - تعالى - إياها يوم القيامة نارا موقدة تطلع على
الأفئدة ، فهذا مثل من لم يصحبه نور الايمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو
حال المنافق عرف ثم أنكر وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى فى حق
إخوانهم من الكفار : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين
كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (٤) وشبه تعالى
حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهب نورها عنه بعد أن
أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ،
ومشاهدتهم أعلام الاسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عيانا ، ولهذا قال تعالى فى
حقهم : ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ (٥) إليه ، لأنهم فارقوا الاسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا
يرجعون إليه . وقال تعالى فى حق الكفار : ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ لأنهم لم يعقلوا الاسلام ، ولا دخلوا
فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ، صم بكم عمى ، فسبحان من جعل كلامه
لأدواء الصدور شافيا ، وإلى الايمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا ، وإلى
طريق الرشاد هاديا ، لقد أسمع منادى الايمان لو صادف آذانا واعية ، وشفقت مواعظ القرآن لو وافقت
القلوب من غيها خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ٣٩ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٧١ .

(٥) سورة البقرة آية ١٨

وتمكنك منها أيدي الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدك ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام . ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، و (ما لجرح بميت إيلام) .

والمثل الثاني المائي قوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ (١) .

الصيب : المطر الذي يصب من السماء ، أى : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ، كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان ، فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات والمثالات التى حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله (ﷺ) ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على اللأوى والأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس ذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقًا يكاد يخطف البصر ، ورعدًا عظيمًا وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره لأن بصره أضعف من أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيرًا لا يدرى أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو فى نفسه ، بل لا يدرك إلا رعدًا ، وبرقًا ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفرع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيب وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفع وعلم أنه لا بد من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه نصيبه من الصيب . فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل (ﷺ) من عند رب العالمين - تبارك وتعالى - على قلب رسول الله (ﷺ) ليحى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء حكمة بالغة وأسباب منتظمة نظمها العزيز الحكيم . فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده ، وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، ماستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ، وشك فيما يتيقنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش فى نحر الظهيرة ، وسمعه فى المثل المائي كسمع من يموت من صوت الرعد .

وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد ، وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت فيها وقعدت ، واتسع فيها مجالها ، وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دويانها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمكثرين لسوادهم عدادا وما أقلهم عند الله وأوليائه قدرا .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : ﴿ ومنهم .. ومنهم .. ﴾ حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفي أوصاف الكفار آيتين ، وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجملة مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذى قد نابذ العدو ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى منابذته ومفارقته . ونظير هذين المثليين المثلان المذكوران في سورة الرعد في قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ (١) فهذا المثل هو المثل المائى ، شبه سبحانه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذى أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأودية الحاملة للسيل . فقلب كبير يسع علما عظيما ، كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية بقدرها . ولما كانت الأودية ومجارى السيول فيها الغناء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحصله السيل فيطفو على وجه الماء زبدا عاليا ، يمر عليه متراكبا ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأرض ، فيقذف الوادى ذلك الغناء الى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء ، ويبقى الماء الذى تحت الغناء يسقى الله - تعالى - به الأرض ، فيحى به البلاد والعبادة والشجر والدواب ، والغناء يذهب جفاء يجفى ، ويطرح على شفير الوادى .

فكذلك العلم والايمان الذى أنزله من السماء فى القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غناء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا فى أعلاها ، استقر العلم والايمان والهدى فى جذر القلب وهو أصله ومستقره كما قال النبى (ﷺ) (نزل الايمان فى جذر قلوب الرجال) (٢) رواه البخارى من حديث حذيفة .. فلا يزول كله ، ويبقى العلم النافع والايمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويزرعون . وفى الصحيح من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى (ﷺ) قال : (مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة

(١) سورة الرعد من الآية : ١٧ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الفتن » « باب إذا بقى فى حثالة من الناس جـ ٩ ص ٦٦ فقد ورد الحديث من رواية حذيفة بلفظ « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن .. الخ » . وانظر حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٧١ ، جـ ٨ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن الخ » .

طيبة ، قبلت الماء فأنبئت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، وانتفع بما بعثني الله به ، فعلم وعلم وهثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به (١) فجعل النبي (ﷺ) الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوا إلى الله - عز وجل - ورسوله (ﷺ) ، فهؤلاء أتباع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - حقاً ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء ، فأنبئت الكلاً والعشب الكثير فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها . وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء (ﷺ) الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ (٢) فالأيدي القوة في أمر الله والأبصار البصائر في دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين والبصر بالتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهماً خاصاً ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل : هل خصكم رسول الله (ﷺ) بشيء دون الناس ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلاً والعشب الكثير الذي أنبته الأرض ، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ، فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ، وبذورها في أرض قابلة للزراع والنبات فاستخرجوا غوامضها وأسرارها ، ووردوها كل بحسبه . ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ (٣) وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي (ﷺ) : (نضر الله إمرأً سمع مقالتي فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) (٤) وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبي (ﷺ) لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه : سمعت ، ورأيت ، وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً . وقال أبو محمد بن حزم : جمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار ، وهي بحسب ما بلغ جامعها ، والا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس ، وقد

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب فضل من علم وتعلم ج ١ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبي موسى الأشعري .

(٢) سورة ص آية : ٤٥ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٦٠ .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه . وانظر اتخاف السادة المتعنين للزبيدي ج ٨ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة . وانظر مجمع الزوائد كتاب « العلم » باب في سماع الحديث وتبليغه ج ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة .

سمع كما سمعوا ، وحفظ كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾^(١) وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره واستنباطه ، من فتاوى أبي هريرة وتفسيره ، وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق : يؤدي الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها وهكذا الناس بعده قسمان : قسم حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ والأداء ، كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه . وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها .

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية فالطبقة الأولى أهل رواية ورعاية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراسة بل حظهم من الرواية أوفر . والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ولا رعاية ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾^(٢) فهم الذين يضيقون الديار ، ويغفلون الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرحه ، فإن ترقى همته فوق ذلك كان في داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقى همته فوق ذلك ، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلية ، كان همه نصرة النفس السبعية ، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء ؟ فإن النفوس ثلاثة : كلية وسبعية وملكية . فالكلية : تقنع بالعظم ، والكسرة والجيفة والعذرة .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، والاستعلاء عليها بالحق والباطل . وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمتها العلم والإيمان ، ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ، وإيثار محبته ومرضاته ، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذه لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها ، لا لتقطع به عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا ، وهو المثل الناري ، فقال : ﴿ وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾^(٣) ، وهو الحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ، فإنها تدخل الكير لتمحس وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمى به وي طرح ، ويبقى خالصها ، فهو الذي ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ، ذكر حكم من استجاب له ورفع به رأسا ، وحكم من لم يستجب له ولم يرفع بهداه رأسا : فقال : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبش المهاد ﴾^(٣)

(١) سورة الفقان من الآية : ٤٤ .

(٢) الرعد آية رقم ١٧

(٣) الرعد آية رقم ١٨

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور ، والموت حيث الظلمة فحياة الموجودين الروحي والحس بالنور ، وهو مادة الحياة ، كما أنه مادة الاضاءة فلا حياة بدونها كما لا إضاءة بدونها ، وكما أنه به حياة القلب ، فيه انفساحه وانشراحه وسعته ، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح)
قالوا : وما علامة ذلك ؟

قال : (الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله)^(١)
ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدره عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ ، والملائكة : الذين خلقوا من نور كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور وخلقت الشياطين من نار وخلق آدم مما وصف لكم)^(٢) .

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدي الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في عليين ،

فلما كانت هذه الروح ، روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة ، صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة ، وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها صرھا ، لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها ، وماهى منه ، وهذا مبين في حديث البراء بن عازب الطويل الذي رواه الامام أحمد وأبو عوانة الاسفرايينى في صحيحه والحاكم وغيرهم وهو حديث صحيح^(٣) .

والمقصود : أن الله عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح ، إلا ماكان منها نورا ، وأعظم الخلق نورا ، أقربهم إليه وأكرمهم عليه .

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ (إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله تعالى)^(٤)

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الايمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته والله تعالى الموفق .

وهذا النور الذي ألقاه عليهم سبحانه وتعالى ، هو الذى أحياهم وهداهم ، فأصابته العظمة منه

(١) اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٤٢٤

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفائق ج ٤ ص ٢٢٩٤ برقم ٦٠ / ٢٩٩٦ والامام أحمد ج ٦ ص ١٥٣

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ٤ ص ٢٨٧

(٤) أخرجه الترمذى في أبواب الايمان ج ٤ ص ١٣٥ برقم ٢٧٨٠ وقال هذا حديث حسن .

حفظها ، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم وأتمه بالروح ، الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام ، والنور الذى أوحاه اليهم ، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق ، الذى حصل لها يوم إلقاء النور فانضاف نور الوحي والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب واستنارت به الوجوه ، وحييت به الأرواح واذعنت به الجوارح للطاعات طوعا واختيارا ، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر ، هو أعظم منه وأجل ، وهو نور الصفات العليا ، الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الايمان ، مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المراثيات إلى العين ، وذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الايمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزا ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسول الله ﷺ يدبر أمر المالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويقضى وينفذ ، ويعز ويذل ، ويقلب الليل والنهار ، ويذل الأيام بين الناس ، ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتى بأخرى . والرسول من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به ، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب ارادته ومشيئته ، فما شاء كان كما شاء ، فى الوقت الذى يشاء ، على الوجه الذى يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تقدم ولا تأخر ، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات والأرض وأقطارها ، وفى الأرض وما عليها وما تحتها ، وفى البحار والجو ، وفى سائر أجزاء العالم وذراته ، يقلبها ويصرفها ويحدث فيها ما يشاء ، وقد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، ووسع كل شيء رحمة وحكمة ، ووسع سمعه الأصوات ، فلا تختلف عليه ولا تشبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها ، فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بالخاح الملحين ذوى الحاجات ، وأحاط بصره بجميع المراثيات ، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، فالغيب عنده شهادة ، والسر عنده علانية يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ، ولم تتحرك به شفتاه ، وأخفى منه مالم يخطر بقلبه بعد ، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا

فى وقت كذا وكذا ، له الخلق والأمر ، وله الملك وله الحمد ، وله الدنيا والآخرة ، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الملك كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شيء ، ووسعت رحمته كل شيء ، وسعت نعمته إلى كل حى ﴿ يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ (١) : يغفر ذنبا ، ويفرج هما ، ويكشف كربا ، ويجبر كسيرا ، ويغنى فقيرا ، ويعلم جاهلا ، ويهذى ضالا ، ويرشد حيران ، ويغيث لهفان ، ويفك عانيا ، ويشبع جائعا ، ويكسو عاريا ، ويشفى مريضا ، ويعافى مبتلى ، ويقبل تائبا ، ويجزى محسنا ، وينصر مظلوما ، ويقصم جبارا ، ويقلل عثرة ، ويستر عورة ، ويؤمن روعة ويرفع أقواما ، ويضع آخرين ،

لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجاب النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى ، لا تغيضها نفقة ، سخاء الليل والنهار . رأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض ما في يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول :

أنا الملك ، أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها ، لا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها ، لو أن أهل سمواته ، وأهل أرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، مازاد ذلك فى ملكه شيئا ، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، مانقص ذلك من ملكه شيئا ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه ، وإنسهم وجنهم ، وحيهم ومستمهم ، ورطبهم ويابسهم قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأل ، مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام ، والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مدادا . فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ، لفنيت الأقلام ونفد المداد ، ولم تنفذ كلمات الخالق تبارك وتعالى . وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية فهو أحق بالفناء والنفاذ ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟ هو الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء ، والظاهر الذى ليس فوقه شيء ، والباطن الذى ليس دونه شيء ، تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، وأنصر من أبتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأعفى من قدر ، وأكرم من قصد ، وأعدل من انتقم ، حكمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه عن حكمته ، وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعد له - أو نعموا فبفضله ، وهو الكريم الواسع

هو الملك الذى لا شريك له ، والفرد فلا ند له ، والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلی فلا شبيه له ، ولا سمي له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، وكل ملك زائل إلا ملكه ، وكل ظل قاص لا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يطاع فيشكر ، ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي وسجل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له منضية ، والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (١) .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات ، اضمحل عندها كل نور ، ووراء هذا مالا يخطر

بالبال ، ولا تناله عبارة .

والمقصود : أن الذكر ينور القلب والوجه والأعضاء ، وهو نور العبد في دنياه ، وفي البرزخ ، وفي يوم القيامة .

وعلى حسب نور الايمان في قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله ، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله ، إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل ، وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط ، وهكذا يكون نور وجهه في يوم القيامة والله تعالى المستعان وعليه التكلان .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأمور ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر ، وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجل فقد فاته كل شيء .
الثامنة والثلاثون : أن في القلب خلة وفاقه لا يسدها شيء ألبته ، إلا ذكر الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعار القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان تبع له ، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة ، ويغنى الفاقة ، فيكون صاحبه غنيا بلا مال ، عزيزا بلا عشيرة ، مهيبا بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته ، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمع المتفرق ، ويفرق المتجمع ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وارادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه ، وانفراطها له ، والحياة كل الحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه ، وعزمه وارادته ، ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه ، ويفرق أيضا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياها وأوزاره ، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ، ويفرق أيضا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن ابليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلما كان أقوى طلبا لله سبحانه وتعالى ، وأشد تعلقا به وارادة له ، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة ، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والارادة ، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر ، وأما تقريبه البعيد فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل ، فلا يزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها ، فحينئذ تصغر في عينه الدنيا ، وتعظم في قلبه الآخرة ، ويبعد القريب اليه ، وفي الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، متى قربت من قلبه بعدت عنه الدنيا ، كلما قرب من هذه مرحلة بعد من هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر والله المستعان .

الفائدة الأربعون : أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سباته ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم ما فاتته في نومه ، شد المئزر ، وأحيا بقية عمره ، واستدرك ما فاتته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .
وحسبنا هذا القدر من فوائد الذكر سائلين الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا . وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

سیدی آبا القاسم یارسول الله :

وسرى الضياء بسائر الأكوان

صلت عليك ملائكت الرحمن

يحمى الاله وراية القرآن

لما طلعت على الوجود مزودا

لقد مدحك الله تعالى بما منحك فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾^(١)

أرسلك للناس عامة ، ونصرك بالرعب بين يدي سيرة شهر ، وجعل لك ولأمتك الأرض مسجدا وطمهورا ، وأحل لك الغنائم ولم تحل لأحد قبلك ، وأتاك جوامع الكلم ، وأعطاك الشفاعة العظمى .

فلا أحد في الرسل يشفع إلا هو
ويسأله فصل القضاء فيعطاه

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا
فيسجد تحت العرش لله سجدة

فسلام عليك في الأولين ، وسلام عليك في الآخرين ، وسلام عليك في الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، وسلام عليك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

قال البخاري في البيوع وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، وقال وهب بن منبه : إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعيب : أن قم في قومك بني إسرائيل فإني منطلق لسانك بوحي وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا ضحاح في الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكنته ، ولو يمشي على القصب لم يسمع من تحت قدميه أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا . أفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدده بكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، وألهدي إمامه والاسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغني به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتتة ، واستنقذ به فثاما من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلي ، ألهمهم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لي قياما وقعودا ،

ويقاتلون في سبيل الله صفوفا وزحوبا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألؤفا ، يطهرون الوجوه وللاطراف ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل لبيوت بالنهار ، وأجعل من أهل بيته وذريته السابقين والصدىقين والشهداء والصالحين ، أمة من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بنى عليهم ، أو أراد أن يتزع شيئا مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعين إلى ربهم ، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .^(١)

لقد كمل الله نبيه ﷺ بالخلق الكريم فهو الداعية إلى الله على بصيره ، الشاهد لله بالتوحيد ، والشاهد على الأمم يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾^(٢) وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾^(٣)

وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾^(٤)

وقال : ﴿ وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾^(٥)

وهو المبشر للمؤمنين بالجنة : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾^(٦) وقال : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا ماكتين فيه أبدا ﴾^(٧) وقال سبحانه : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾^(٨)

وهو النذير من عذاب النار قال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾^(٩) وقال : ﴿ وتنذر قوما لدا ﴾^(١٠)

وقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾^(١١) وقال : ﴿ لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الازفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾^(١٢)

وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩٦ ،

ص ٤٩٧ ج ١ دار التراث

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣

(٣) سورة النساء آية ٤١

(٤) سورة النحل آية ٨٩

(٥) سورة الحج آية ٧٨

(٦) سورة البقرة آية ٢٥

(٧) سورة الكهف آية ٢

(٨) سورة التوبة الأيتان ٢١ ، ٢٢

(٩) سورة الكهف آية ٤

(١٠) سورة مريم آية ٩٧

(١١) سورة مريم آية ٣٩

(١٢) سورة غافر الآيات ١٥ - ١٨

دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴿١﴾ وقال : ﴿إنا أنذركم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا﴾ ﴿٢﴾
 وقال : ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ ﴿٣﴾
 وهو الداعى إلى الله على بصيرة ﴿قل هذه سبيل أدعوا إلى الله على بصيره أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ ﴿٤﴾

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ ﴿٥﴾ وهو السراج المنير والقمر الساطع بنوره ، الذى يبدد غياهب الظلمات ، ويحيى بدعوته الأرض والسماوات ، وهو الذى بعثه الله تعالى ليملأ الأرض عدلا وقسطا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، وفرق بين السراج المنير ، والسراج الوهاج ، فالسراج المنير فيه نور وليس فيه حرارة تؤذى ، والسراج الوهاج فيه نور وحرارة كالشمس فإذا ماعقدت مقارنة بين السراجين ، السراج المنير ، وهو رسول الله ﷺ ، والسراج الوهاج وهو الشمس ، رأيت أن السراج الوهاج يطلع نهارا ويغيب ليلا ، أما نور دعوة رسول الله ﷺ فإنه لا يغيب ليلا ونهارا ، الشمس قد تؤذيكم بحرما صيفا ، ودعوة رسول الله ﷺ بما فيها من نور ، تدفئك شتاء ، وتنعشك صيفا ، والسراج الوهاج إذا اقتربت منه أو ذيت بحره ، أما سراج رسول الله ﷺ فكلما ازدادت منه قربا ازدادت من الله حبا ، لقد أمره الله ونهاه ، أمره بقوله : ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ ونهاه بقوله : ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكبيرا﴾ وأى فضل بعد رضوان الله عليهم ، وأى نعمة بعد الجنة ، كل نعيم دون الجنة حقير .

وكل بلاء دون النار عافية ؛ لقد نهاه الله تعالى فى أول هذه السورة عن طاعة الكافرين والمنافقين ، ويفيد ذلك النهى تثبيتته على ما هو عليه ، وهنا أعاد الذهن مرة أخرى توكيدا وتقوية ، وأمره فى أول السورة بالتوكل على الله ، ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكبيرا﴾ وهنا أعاد الأمر بالتوكل لما فيه من زيادة التسليم والتفويض لله ، فالتوكل هو زاد الدعاة الذى لا ينضب ، ورصيدهم الذى لا ينفد ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد ؟

﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكبيرا﴾ .

كلمة عن التوكل

وهو يقال على وجهين : يقال : توكلت لفلان بمعنى توليت له . يقال : وكلته توكيلا ، فتوكل

(١) سورة ابراهيم آية ٤٤

(٢) سورة النبا آية ٤٠

(٣) سورة سبأ آية ٤٦

(٤) سورة يوسف آية ١٠٨

(٥) سورة النحل آية ١٢٥

لى ، وتوكلت عليه بمعنى اعتمد عليه .

وقد أمر الله تعالى بالتوكل فى خمسة عشر موضعا من القرآن :

الأول : إن طلبتم النصر والفرج فتوكلوا على : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ إلى قوله ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾^(١)

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾^(٢) .

الثانى : إذا أعرضت عن أعدائى فليكن رفيقك التوكل :

﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله ﴾^(٣)

الثالث : إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾^(٤) .

الرابع : إذا تلى القرآن عليك ، أو تلوته ، فاستند على التوكل : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾^(٥) .

الخامس : إذا طلبت الصلح والاصلاح بين قوم لاتتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾^(٦) .

السادس : إذا وصلت قوافل القضاء استقبلها بالتوكل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾^(٧)

السابع : إذا نصبت الأعداء حبالا المكر ادخل أنت فى أرض التوكل ﴿ قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إن أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدون جميعا ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربه وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾^(٨) وقال سبحانه : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾^(٩)

وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾^(١٠) .

الثامن : وإذا عرفت أن مرجع الكل إلينا ، وتقدير الكل منا ، وطن نفسك على فرش التوكل :

﴿ فاعبد الله وتوكل عليه ﴾^(١١)

(١) سورة آل عمران آية ١٦٠

(٢) سورة المائدة آية ٢٣

(٣) سورة النساء آية ٨١

(٤) سورة التوبة آية ١٢٩

(٥) سورة الأنفال آية ٢

(٦) سورة الأنفال آية ٦١

(٧) سورة التوبة آية ٥١

(٨) سورة هود آيات ٥٣ - ٥٦

(٩) سورة إبراهيم الآيتان ١١ ، ١٢

(١٠) سورة يونس الآيات ٧١ ، ٧٢

(١١) سورة هود آية رقم ١٢٣

التاسع : إذا علمت أنى الواحد على الحقيقة ، فلا يكن اتكالك إلا علينا ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ (١)

العاشر : إذا عرفت أن هذه الهداية من عندى ، فلاقتها بالشكر والتوكل : ﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٢) .

الحادى عشر : إذا خشيت بأس أعداء الله ، والشيطان الغدار فلا تلتجىء إلا إلى بابنا : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (٣)

الثانى عشر : إن أردت أن أكون أنا وكيلك فى كل حال فتمسك بالتوكل فى كل حال : ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله كيلا ﴾ (٤)

الثالث عشر : إن أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل فى مقام التوكل ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٥) وقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٦)

الرابع عشر : إن شئت النزول محل المحبة فاقصد أولا طريق التوكل : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٧)

الخامس عشر : إن أردت أن أكون لك ، وتكون لى ، فاستقر على تحت التوكل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ (٨) ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ (٩) ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾ (١٠) ثم أعلم أن التوكل نصف الدين ، والنصف الثانى الانابة . فإن الدين استعانة ، وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والانابة هى العبادة ..

ومنزلة التوكل أوسع المنازل : لا يزال معمورا بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العاملين ، وعموم التوكل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار ، والفجار ، والطير ، والوحوش ، والبهائم ، وأهل السموات والأرض ، وأن المكلفين ، وغيرهم فى مقام التوكل سواء وإن تباين متعلق توكلهم .

فأولياؤه وخاصته متوكلون عليه فى حصول ما يرضيه منهم ، وفى إقامته فى الخلق ، فيتوكلون عليه

(٦) سورة العنكبوت الآيتان ٥٨ ، ٥٩
(٧) سورة آل عمران الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠
(٨) سورة الطلاق آية ٣
(٩) سورة النمل آية ٧٩
(١٠) سورة الفرقان آية ٥٨

(١) سورة الرعد آية ٣٠
(٢) سورة ابراهيم آية ٧٢
(٣) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠
(٤) سورة النساء آية ١٣٢
(٥) سورة النحل الآيتان ٤١ ، ٤٢

في الايمان ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابه ، وتنفيذ أوامره .
ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله : من رزق ، أو عافية أو نصر على عدو ، أو زوجة ،
أو ولد ، ونحو ذلك .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول مالا يحبه الله ، ولا يرضاه : من الظلم والعدوان ،
وحصول الاثم ، والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالون غالبا إلا باستعانتهم ، وتوكلهم
عليه ، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات . ولهذا يلقون أنفسهم في
المهالك ، معتمدين على الله - تعالى - أن يشمهم ، ويظفرهم بمطالبهم .

- فأفضل التوكل في الواجب : أعني واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس ، وأوسع
وانفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينه ، أو في دفع مفسدة دينه . وهو توكل الأنبياء عليهم
الصلاة والسلام - في إقامة دين الله ، ودفع المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم .

ثم الناس في التوكل على حسب أغراضهم . فمن توكل على الله في حصول الملك ، ومتوكل عليه في
حصول رغيف ، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله . فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه
العاقبة المحمودة . وأن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة ، وإن كان مباحا حصلت له
مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه ، إن لم يستعن به على طاعة .

فإن قلت مامعنى التوكل ؟ قلت : قال الامام أحمد : التوكل : عمل القلب : يعنى ليس بقول ، ولا
عمل جارحة ، ولا هو من باب العلوم والادراكات .

ومن الناس من يجعله من باب المعارف فيقول : هو علم القلب بكفاية العبد من الله . ومنهم
من يقول : التوكل هو جمود حركة القلب ، واطراحه بين يد الله كإخراج الميت بين يدي الغاسل : يقلبه
كيف يشاء ، وقيل التوكل : ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجارى الأقدار ، ومنهم من يفسره
بالرضا ، ومنهم من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه .

وقيل التوكل : ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .
وقال أبو سعيد الخراز : هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . وقال سهل : من
طعن في الحركة ، فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان ، فالتوكل حال النبي
ﷺ ، والكسب سنته . فمن عمل على حاله فلا يترك سنته .

وحقيقة الأمر أن التوكل : حال مركب من مجموع أمور لا يتم حقيقة التوكل الا بها ، وكل أشار
إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر ، فأول ذلك معرفة الرب وصفاته ، من قدرته ، وكفايته ،
وفيوضه وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها من شئته ، وقدرته وهذه المعرفة أولى درجة .

والثانية اثبات الأسباب والمسببات ، فإن من نقاها فتوكله مزح ، وهذا عكس ما يظهر في بادئ
الرأى ، من أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل . ولكن الأمر بخلافه . فإن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم
توكل البتة . فإن التوكل أقوى الأسباب في حصول المتوكل به ، فهو كالدعاء الذى جعله الله سببا في
حصول المدعو به .

الدرجة الثالثة : وسوخ القلب في مقام التوحيد ، فإنه لا يستقيم توكله حتى يصح توحيده .
الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله تعالى ، واستناده عليه ، وبكونه إليه ، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من جهة الأسباب .
الخامسة : حسن الظن بالله ، فعلى قدر حسن ظنك به يكون توكلك عليه .
السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه .
السابعة : التفويض ، وهو روح التوكل ، ولبه (حقيقته) فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة ، انتقل منها إلى درجة الرضا وهي ثمرة التوكل .

الرسول القدوة

إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .
﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ ^(١) إنه الأُمى الذى علم المتعلمين ، واليتيم الذى بعث الأمل في قلوب اليائسين ، والمعصوم الذى قاد سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى مرفأ الأمان ، وشاطئ الحق المبين . هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، كان ينساب في أخلاق أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم ، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول في أمير الأنبياء :

يا من له الأخلاق ماتهور العلا منها ومايتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويولع الكرماء

وهاك تلك الباقة العبة التى جمعنا فيها من كل بستان زهرة ، ومن كل حديقة وردة من رياض الأخلاق المحمدية الكريمة .

تواضعه ﷺ . (من كتاب شمائل النبی للترمذی)

قال بعض العارفين : (لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا إذا دام تجلى الشهود في قلبه ، لأنه يذيب النفس ويصفىها عن غشى الكبر والعجب فتلين وتطمئن ، ولا تنظر إلى قدرها)
والتواضع لغة : التدلل والخضوع .
وعرفا : خروج الانسان عن مقتضى جاهه ، وتنزله عن مرتبة أمثاله وعند المحققين : التواضع هو : ألا يرى العبد لنفسه مزية ، ويرى الحالة التى هو فيها أعظم من أن يستحقها وسئل أبو زيد : متى يكون العبد متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير العبد لنفسه مقالا ولا حالا .

(١) عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله . (١)

الشرح

والاطراء : هو مجاوزة الحد في المدح ، والمدح المنهى عنه هو دعوى أن رسول الله ﷺ بلغ مرتبة الألوهية (كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم) وقالوا إنه إله أو ابن إله . . وإلى هذا يشير البوصيري حين يقول :

دع مادعته النصارى في نبهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

(٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : إن لي إليك حاجة . فقال أجلسي في أي طريق المدينة شئت أجلس إليك . (٢)

الشرح

ويظهر أن الحاجة كانت تريد إخفاءها عن الذين حول النبي ﷺ وتجلي خلق النبي العظيم حين طلب منها أن تجلس في أي مكان ليجلس إليها .

وهذا داخل في تيسير حوائج المسلمين والعمل على تسهيل أمورهم . ولا يقال إن النبي ﷺ خلا بالمرأة ، فإن الجلوس كان بمكان عام وكان للضرورة وعلى قدرها !! والغالب أن المرأة كانت عجوزا أو أرملة ولذلك ذكر هذا الأمر في باب تواضعه ﷺ .

٣ - وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحماز ، ويجيب دعوة العبد . وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف (٣)

فقد كان ﷺ يزور المريض أيا كان عبدا أو حرا ، بل ورد أنه زار غلاما يهوديا وهو مريض ودعاه للأسلام فأسلم ، وكان يقول للمريض . كيف تجددك أو كيف أصبحت ، أو كيف أمسيت ، أو لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله ، أو كفارة وطهور ، وقد يضع يده على المكان الذي فيه الألم ثم يقول (بسم الله أرقبك من كل داء يؤذيك الله يشفيك) .

وجاء في مختصر السيرة للمحب الطبري . أن رسول الله ﷺ ركب حمارا إلى قباء ، وكان معه أبو

(١) أخرجه ابن حبان ج ٨ ص ٤٦ برقم ٦٢٠٦ والبخاري ج ٤ ص ٢٠٤ طبع الشعب

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٧٦ / ٢٣٢٦

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد برقم ٤١٧٨ ج ٢

هريرة ، فقال : أحملك بها فقال ماشئت يا رسول الله . فوثب ليركب ، فلم يقدر فاستمسك به ﷺ فوقعا جميعا .. وحاول أبو هريرة الركوب مرة أخرى فوقعا جميعا ..
وكان يجيب دعوة العبد في طعام وغيره ، قرب المكان أو بعد .

وكان النبي ﷺ يركب .. حمارا مخطوما أى ذى خطام وهو الزمام بحبل من ليف (وعليه إكاف) هو كالسرج للفرس (من ليف) من بيانية وركوب الحمار مع هذا الانتصار على بنى قريظة . خلق لا يقدر عليه إلا السيد المختار .

(٤) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبي ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والأهالة السنخة فيجيب . ولقد كان له درع عند يهودى فما وجد مايفكها حتى مات .^(١)

الشرح والبيان

الاهالة السنخة : الدهن الذى تغيرت رائحته من طول المكث . وكان النبي (ﷺ) يجيب إلى ذلك ، تطيبا لخاطر الداعى . والدرع هى ذات الفضول . واسم اليهودى أبو الشحم . وكان الرهن فى ثلاثين أو عشرين لأجل سنة كما فى البخارى . وكان رهن النبي (ﷺ) عند اليهودى لبيان جواز ذلك . (فما وجد مايفكها) إلخ . لأنه ﷺ مات فقيرا . وقد فكها من بعده أبو بكر ، وقيل الامام على . وهذه الحال مع ماكان عليه النبي (ﷺ) من مال خير وأرض فذك وغنائم الجهاد .
(٥)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حج رسول الله (ﷺ) على رجل رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم ؛ فقال : اللهم اجعله حجا لأرياء فيه ولا سمعة .^(٢)

الشرح والبيان

الرجل للجمل كالسرج للفرس ، والرث : البالى الخلق . وعلى الرجل قطيفة أى كساء . (لاتساوى أربعة دراهم) أى لبساطتها (اللهم اجعله حجا إلخ) أى خالصا لوجهك ، وافتقارا لربوبيتك ، وفى الحديث تشريع للأمة وحث على التواضع وخلوص النيات .
(٦)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله (ﷺ) قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك

الشرح والبيان

كانت الصحابة تحب رسول الله أكثر من حبهن لأموالهم وأولادهم وأنفسهم وقد استفاضت الأخبار فى ذلك . !

(١) أنحاف السادة المتقين ج ٧ ص ١٠١ وكنز العمال ١٨٢٠٩

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٨٩٠ ، ج ٢ ص ٩٦٥ حلية ٥٤ / ٣

ولكنهم مع ذلك لا يقومون له ، لأنه ﷺ كان يكره ذلك ، وقد اختلف العلماء في القيام . فذهب أكثر العلماء إلى كراهته ، وذهب الأقل إلى جوازه .

عن الحسن بن علي قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ، وكان وصافا عن حلية رسول الله (ﷺ) وأنا أشتى أن يصف لي منها شيئا .

فقال : كان رسول الله (ﷺ) فخما مفخما ، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، فذكر الحديث بطوله . قال الحسن : فكتمتها الحسين زمانا ، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه . فسأله عما سألته عنه ؛ ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئا قال الحسين : فسألت أبي عن دخول رسول الله (ﷺ) فقال : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فيرد بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئا ، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمه على قدر فضلهم في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مساءلتهم عنه وإخبارهم بالذي ينبغي لهم . . . ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة ، لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره ، يدخلون روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعني على الخير ، قال فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؛ كان رسول الله (ﷺ) يخزن لسانه إلا فيما يعينه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليهم عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى

عن أحد منهم بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ؛ أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ، ومؤازرة ، قال فسألته عن مجلسه ، فقال : كان رسول الله (ﷺ) لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء ؛ مجلسه مجلس علم وحياء ، وأمانة وصبر ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته ، متعادلين ؛ بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى ؛ متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

الشرح والبيان

قال الحسن : (فكتمتها) أي هذه الرواية أو هذه الحلية .

(زمانا) فيه احتمال أن هذا الكتمان فيه قصدا ، كما يحتمل أن يكون اتفاقا ولكن الحسين رضى الله عنه كان قد سبق في السؤال عن أحوال النبي (ﷺ) في مدخله ومخرجه ومجلسه وغير ذلك . والمراد بالشكل هنا أى طريقته في أصحابه .

جاء في كتب اللغة أن الشاكل والشكل : الطريقة والمذهب .
وليس المراد هنا الصفة والصورة . (فلم يدع) أى فلم يترك الامام على شيئا مما سأله عنه الحسين إلا وأجاب عنه .

قال الامام على :

(كان إذا أوى إلى منزله) أى استقر فيه ، وهو بالمد أو بالقصر .
(جزأ دخوله) : أى قسم زمانه (جزء الله) أى العبادة والتهجد .
(وجزأ لأهله) أى لمؤانستهم وعشرتهم ومراعاة حقوقهم ، فقد كان خير الناس لأهله (وجزأ لنفسه) وهذا الجزء لم يخلص لنفسه ، بل قسمه بين نفسه وبين الناس ، والمراد بالخواص : الخلفاء الأربعة وكبار الصحابة .

أى أن هؤلاء الخواص يبلغون عنه ما يسمعون منه .
(ولا يدخر عنهم شيئا) بل يقدم النصيح للجميع كاملا غير منقوص .
وكان من عادته (ﷺ) أن يؤثر أهل الفضل ويقدمهم بإذنه والمراد بأهل الفضل أهل الصلاح والتقوى .

وكان يبدأ بأصحاب الحاجات الذين يحبون أن يسألوا عن أمور دينهم .
(فيتشأغل بهم) أى بذوى الحاجات (ويشأغلهم) بفتح الياء (فيما يصلحهم والأمة) أى فى الذى يعود عليهم وعلى الأمة بالصلاح والاصلاح ، وهذا إشراف تربوى من أدق المناهج ، فلا يدع الأصحاب ينشأغلون بما لايعنيهم .

وكان (ﷺ) يتعهد كل واحد بما يناسبه .
وبعد تبليغهم وإفادتهم بأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب ، ويقول لهم أوصلوا إلى حاجة الغائبين والمرضى والمستضعفين الذين لا تبلغنى حاجاتهم .

ورغب الرسول فى ذلك بثبوت القدم على الصراط يوم القيامة . وهذا أمر يعرفه من يدرك أهوال هذا اليوم العظيم .

وقد كانت هذه عادة الرسول (ﷺ) فى مجلسه ، لا يقبل الكلام اللغو ، ولا الدخول فيما لايعنى .

(يدخلون روادا) بتشديد الواو ، جمع رائد ، وهو فى الأصل من يتقدم القوم . والرواد هنا أكابر الصحابة .

(ولا يفترقون إلا عن ذواق) بفتح الواو . أى لا يفترقون إلا بعد الاستفادة العلمية (ويخرجون من عنده أدلة) أى هداة للناس .

وهذه حال النبى (ﷺ) فى بيته .

فأما فى مخرجه فقال الامام على :

(كان ليخزن لسانه . إلخ) أى لا يتكلم إلا فى حاجة (ويؤلفهم) ويتحجب إليهم بحسن أخلاقه ، ولا ينفهم . (ويكرم كريم كل قوم) لأن فى ذلك إكراما لقومه وجذباً لهم ، وقيل يحذر بفتح الياء ، وهو الأنسب هنا لقوله (ويحترس منهم) من غير أن يطوى عن أحد من الناس بشره ، أى طلاقة وجهه .

(ويتفقد أصحابه) أى يسأل عن حال الواحد منهم ولماذا غاب ، فإن كان مسافرا دعاه ، أو مريضا عاده ، أو ميتا استغفر له .

(ويسأل الناس عما فى الناس) ليعرف أصحاب الحوائج فيقضيها (ويحسن الحسن . إلخ) أى يمدحه (ويقبح القبيح ويوهيه) أى يظهر قبحه وينفر الناس منه (معتدل الأمر غير مختلف) أى أن أمره جميعا يجرى مع الوسط وهو خير الأمور (لا يغفل) أى عن إرشادهم :
(مخافة أن يغفلوا) أى يتكاسلوا ويذهبوا عن الحق .
(لكل حال عنده عتاد) ، أى كان يعد لكل أمر مايناسبه .

(كان لا يقصر عن الحق) أو بيانه أو استيفائه (الذين يلونه إلخ) أى الأقربون منه هم الخيار ، وكان النبى يفضل من الناس من تكون نصيحته أعم ، ويعظم الذين يواسون الناس ويعاونوهم ، فآله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ثم قال الحسن راويا عن الحسين : فسألته عن مجلسه ، فقال الامام على :

(كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله) أى أن الذكر هو مبدأ جلوسه ومنتهاه . (وكان يجلس حيث ينتهى به المجلس ، ويدعو إلى ذلك ، لأن ذلك هو البساطة المحبوبة ، وكان يقدم لكل جليس ما يستحقه من البشر والعناية دون أن يقصر فى أى إنسان ، حتى يحسب جليسه أنه أكرم الجالسين عنده . وهذا خلق لا يطيقه إلا نبينا محمد (ﷺ) .

(من جالسه أو فاوضه) أى شاوره . (صابره) أى أن النبى (ﷺ) يجالسه ويشاوره حتى ينتهى أمر المشورة من غير أن يظهر سأمًا ولا مللاً (ومن سألته . إلخ) واضح (قد وسع) أى عم الناس بسطه ، أى طلاقة وجهه ودوام بشره (فصار لهم أبا) فى الشفقة ، بل كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم . (وصاروا عنده فى الحق سواء) أى متساوين فى الحق . (مجلسه إلخ) أى أن مجلسه كان كله صلحا وعلمًا وصبرا أو أدبا وأمانة وعدم رفع للأصوات وصفاء وسرور . (ولاتثنى فلتاته) أى لاتشاع ولا تذايع . والضمير للمجلس ، أى لاتشاع هفوات المجلس . (متعادلين) أى متساوين . فلا تفاخر ولا تكبر .

فقد كان أصحاب رسول الله كما وصفهم القرآن . ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .

وبقية الأوصاف واضحة .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت)^(١) .

الشرح والبيان

الكراع : بضم الكاف . مادون الكعب من الدواب .
وقيل : هو مستدق الساق من الغنم والبقر .
والجمع أكرع . ورسول الله (ﷺ) يؤكد قبوله الهدية ، أى ولو كانت كراعا . وكذا يعلن إجابة الدعوة !! وهذا هو الخلق الذى عرفنا عليه رسول الله (ﷺ) .
(٩)

عن جابر رضى الله عنه قال : جاءنى رسول الله (ﷺ) ليس براكب بغل ولا برذون .

الشرح والبيان

البغل : معروف .
والبرذون : الفرس العجمى .
وهذا حديث يفيد أن رسول الله (ﷺ) يزور أصحابه ويعودهم ماشيا ، لما فى ذلك من كثرة الثواب ، وعظيم التواضع .
(١٠)

أنبأنا يحيى بن أبى الهيثم العطار قال : سمعت يوسف بن عبد الله بن سلام قال : سمانى : رسول الله (ﷺ) يوسف وأقعدنى فى حجرة ومسح على رأسى^(٢)

الشرح والبيان

الحجر : بكسر الحاء وفتحها وسكون الجيم . وهو طرف الثوب المقدم منه .
ويطلق على المنع من التصرف ، وعلى الاثنين من الخيل .
وذكر يوسف هذا الحديث ليثبت لنا . كيف كانت معاملة النبى (ﷺ) الرفيقة الرفيقة للصغار !! أجلسه فى حجره . وسماه ، ومسح بيده على رأسه زاد الطبرانى . ودعا لى بالبركة .
فما أجملنا بالتأسى بهذا الخلق فى معاملة الصبيان .
(١١)

عن أنس بن مالك أن رجلا خياطا دعا رسول الله (ﷺ) فقرب منه ثريدا عليه دبء قال : فكان

(١) أخرجه : الامام احمد فى مسنده ج ٢ ص ٥١٢

(٢) أخرجه : مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٢٦ ، ص ٣٢٧

رسول الله (ﷺ) يأخذ الدباء وكان يحب الدباء . قال ثابت : فسمعت أنسا يقول : فما صنع لى طعام أقدر على أن يصنع فيه دبا إلا صنع^(١) .

الشرح والبيان

ذكروا أن الخياط كان من مواليه : (فقرب منه) أى إليه . والثريد : الخبز المشرود بمرق اللحم .
(وعليه دبا) بالقصر والمد وهو القرع !!
(١٢)

عن عمرة قالت : قيل لعائشة ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ فى بيته ، قالت : (كان بشرا من البشر : يغلى ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه)

الشرح والبيان

(كان بشرا من البشر) : هذا أعظم تعبير تمهد به السيدة عائشة للأحوال التى ستذكرها عن رسول الله (ﷺ) وهى تفيد ندرة هذه الأخلاق واستحالة وقوعها إلا من نبينا العظيم .
لقد كان له تسع زوجات وكلهن يتسابقن إلى خدمته ويتنافسن فى قضاء مصالحه ؛ ومع ذلك فقد كان كما قالت السيدة عائشة ، (يغلى ثوبه) أى يفتشه مما علق به ، (ويحلب شاته) ويخدم نفسه .

باب ماجاء فى خلق رسول الله (ﷺ)

الخلق بضم الخاء واللام هو الطبع والسجية ، وهو من الأوصاف الباطنية
قال الامام الغزالى : الخلق هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ، فإن كانت الهيئة جميلة ، سميت خلقا حسنا ؛ وإلا : سميت خلقا سيئا .
وهذه ترجمة لبعض أخلاق النبى وبعض سجاياه ، لا لجمعها ، بدليل أن التواضع مثلا من أخلاق النبى (ﷺ)

(١)

عن خارجة بن زيد بن ثابت قال : دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله (ﷺ) قال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلى فكتبته له ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله (ﷺ) (٢)

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦١٥ برقم ٢٠٤١ / ١٤٥

(٢) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٧

الشرح والبيان

كان زيد هذا من كتاب الوحي ، وكتاب الوحي هم : زيد ، وعثمان ، وعلى ، وأبي ، ومعاوية ، وخالد بن سعيد ، وحنظلة بن الربيع ، والعلاء بن الحضرمي ، وأبان بن سعيد . والمراد بذكر الدنيا ، أي أمور الدنيا الأمور النافعة ، والمراد بذكر الآخرة : أي تفاصيل يوم القيامة وما يقع فيه .

والمراد بذكر الطعام : ما يفيد منه وما لا يفيد . ويدل هذا على التبسيط في الحديث والمجالسة .

(٢)

عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله (ﷺ) يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أني خير القوم ، فقلت : يا رسول الله ، أنا خير أو أبو بكر ، قال : أبو بكر ، فقلت يا رسول الله . أنا خير أو عمر فقال عمر ، فقلت يا رسول الله : أنا خير أو عثمان قال عثمان ، فلما سألت رسول الله فصدقني فلوددت أني لم أكن سألته^(١)

الشرح والبيان

(أشرف القوم) إثبات الألف قليل ، والأكثر عدمها . وكان الرسول (ﷺ) يقبل على أشرف القوم ليتألفه . قال (ﷺ) : (إني أعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ؛ خشية أن يكبه الله في النار)^(٢) وكان إقبال رسول الله على عمرو لأنه كان حديث عهد بالاسلام فأراد أن يتألفه حتى يتمكن الإيمان في قلبه ، ولقد تمكن الإيمان في قلب عمرو ، حتى أصبح صحابيا جليلا . وقد أغرى إقبال النبي على عمرو حتى سأله هذه الأسئلة . ولكن إجابة النبوة الصريحة الصادقة ، جعلت ابن العاص يتصاغر أمام نفسه ، ويتمنى لو لم يكن قد سأل النبي (ﷺ) .

(٣)

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : خدمت رسول الله (ﷺ) عشر سنين فما قال لي أف قط ؟ وما قال لي لشيء صنعته لما صنعتته . ولا لشيء تركته لم تركته . وكان رسول الله (ﷺ) من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله (ﷺ) ، ولا شمتت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق النبي (ﷺ)^(٣)

الشرح والبيان

كانت خدمة أنس للنبي (ﷺ) هذه المدة الطويلة في السفر والحضر ، وهي مدة تكشف الخلق

(١) كثر العمال ج ٧ ص ١٦٠ برقم ١٨٥٢٢

(٢) أخرجه الامام أحمد ج ١ ص ١٨٢ مسند سعد بن مالك عن أبيه .

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٤ برقم ٢٣٠٩ ، ص ١٨١٥ برقم ٢٣٣٠ / ٨٢

على طبيعته ، فقد يتكلف المرء معيشة أيام وطباع ليال ، ولكن لا يدوم التكلف شهورا بل أعواما بحال من الأحوال « وأف » بتشديد الفاء مفتوحة ومكسورة ، وهى كلمة تبرم تقال لما يتضجر منه . « وقط » وهى ظرف بمعنى الزمن الماضى ، وقد يستعمل بمعنى دائما . ولم يكن النبى (ﷺ) يحاسب أنسا لاعتقاده أن الفاعل الحقيقى هو الله سبحانه . ولذلك كان يقول : قدر الله وماشاء فعل . (وكان من أحسن الناس خلقا) لعل من زائدة . (ولا مسست) بكسر السين على الأفصح « خزا » ثوبا فيه حرير ، (ولا حريرا) أى خالصا .

(ولا شيئا) تعميم بعد تخصيص (ألين منه) ولين النبى (ﷺ) كان طبيعة فى الخلقة . (ولا شممت) بكسر الميم وفتحها . (مسكا) وهو أطيب الطيب وأشهره وكان عرق النبى - بفتح الراء أطيب من المسك والعطر . لأن هذا مما تميز به النبى (ﷺ) (٤)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه كان عنده رجل به أثر صفرة قال : وكان رسول الله (ﷺ) لا يكاد يواجه أحدا بشيء يكرهه ، فلما قام قال للقوم : لو قلتم له يدع هذه الصفرة (١)

الشرح والبيان

لعل الصفرة التى كانت على الرجل من أثر الزعفران . وكان النبى يكره هذه الصفرة ، ولكنه لم يكن يواجه أحدا بشيء يكرهه . فأوعز إلى من حوله أن يقولوا له : دع هذه الصفرة . (ولو) هذه شرطية أو للتمنى . والظاهر أن هذا الرجل كان ممن يخشى منه مخالفة النبى (ﷺ) ، فأوعز إلى أحد الصحابة أن يكلموه . (٥)

عن عائشة أنها قالت : لم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ؛ ولكن يعفو ويصفح (٢)

الشرح والبيان

كان النبى ﷺ بعيدا عن الفحش كل البعد . وكذلك لم يكن (صخابا) . أى كثير الصياح ، ولا يقابل السيئة بالسيئة . بل كان يعفو ويصفح !! وبذلك كان يعفو بعد القدرة .

لا يستهين بعفوك الجاهلاء .

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا

(١) هامش المواهب اللدنية ص ١٧٣

(٢) أخرجه فى سنن الدارمى ج ١ ص ١٥ برقم ٨

(٦)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماضرب رسول الله (ﷺ) بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا امرأة (١)

الشرح والبيان

كان النبي (ﷺ) لا يضرب مع وجود أسباب الضرب ، لأن الحلم كان طبيعته ، وكظم الغيظ كان سجيته ، (إلا أن يجاهد) فإن الدفاع عن النفس في الجهاد من شيمه الأبطال . وقد قتل رسول الله ابن خلف في غزوة أحد وكان جريحا مطعونا .

عن عائشة قالت : مارأيت رسول الله (ﷺ) منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله شيء ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان من أشدهم في ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن مائثا (٢) .

الشرح والبيان

لم يكن النبي (ﷺ) ينتصر لنفسه ، مهما ظلمه الظالمون ، بل يعفو قادرا ويصفح . وقد عفا عن قال له : (إن هذه القسمة مأريد بها وجه الله) . وكثير وكثير ، (مالم ينتهك) بالبناء للمفعول . وعندئذ يغضب فلا يهدأ حتى يعود للحق نصابه ، ويؤدب المنتهك ، أو يقام عليه الحد ، لأنه أصبح من حقوق الله . وكان إذا خير بين أمرين من أمور الدنيا ، اختار أيسرهما وأسهلها . ولذلك فينبغي أن يختار الانسان الأيسر من الأمور . (مالم يكن الأيسر مائثا) بفتح الميم ، أى مفضيا إلى الأثم وعندئذ فيكون الرسول بعيدا عن هذا الأيسر .

(٨)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله (ﷺ) وأنا عنده فقال : بشئ ابن العشيرة أو أخو العشيرة ، ثم أذن له فلما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت يا رسول الله قلت ماقلت ثم ألت له القول فقال : يا عائشة إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه (٣) .

الشرح والبيان

صرحت بعض الكتب باسم الرجل فقالت : إنه مخزومة بن نوفل . والأرجح من هذا أنه عينية بن حصين الفزارى . وكان الأحق المطاع في قومه . ويظهر أنه كان فاجر الخصومة ، ولذلك قال فيه النبي

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٤ برقم ٢٣٢٨ / ٧٩

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٢٣٢٧ / ٧٧

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٠٢ برقم ٢٥٩١ / ٧٣

(ﷺ : بش أخو العشيرة والعشيرة هي القبيلة . ولقد حدث بعد وفاة النبي ﷺ أن عيينة هذا ارتد عن الإسلام وجيء به أسيرا في زمن الخليفة الأول أبي بكر فلما دخل المدينة صاح الصبيان : هذا هو الذي خرج من الدين ، فقال لهم : ومتى دخلت فيه حتى خرجت منه . ومن هذا يعلم سبب قول النبي فيه ولكن الروايات ذكرت أنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وقد اعتبر العلماء قول النبي ﷺ فيه وهو غائب وإلأنته له وهو حاضر من باب المداراة والتألف . ولقد فرقوا بين المداراة والمداينة فقالوا : إن المداراة بذل الدنيا للدين ، والمداينة بذل الدين للدنيا .

ونبينا محمد ﷺ كان قادرا أن يكلم عينية بما يستحقه ولكنه كان يحب الرفق في الأمور كلها .

(٩)

عن الحسن بن علي قال : سألت أبي عن سيرة النبي (ﷺ) في جلساته فقال : كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكتار وما لا يعينه ، وترك الناس من ثلاث كان لا يذم أحدا ولا يعيبه ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه

ويصبر للغريب على الجفوة في منطقة ومسألته ، حتى إن كانوا أصحابه ليستجلبوهم ويقول : إذا رأيتم طالب بحاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الشاء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيطعه بنهي أو قيام .

الشرح والبيان

(دائم البشر) أي طلاقة الوجه (سهل الخلق) أي ليس بصعبه ولا خشنه (لين الجانب) أي سريع العطف ، كثير اللطف ، جميل الصفح ، مع الوقار والسكون (ليس بفظ ولا غليظ) أي ليس فيه جفاء ولا غلظة . ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (١) (ولا صخاب) وليس كثير الصخب ، أي الصياح : (ولا فحاش) أي لا يعرف الفحش ولا يقع منه (ولا عياب) أي لا يعيب غيره أبدا ، ولا عاب طعاما قط (ولا مشاح) اسم فاعل من المشاحة ، وهي عدم المساهلة مع التعقيد (يتغافل عما لا يشتهي) أي يظهر الغفلة والاعراض عن الشيء الذي لا يستحسنه . (ولا يؤس) أي لا يقطع رجاءه . بل يرد بالحاجة أو بميسور من القول ثم يستمر الامام على في وصف الأخلاق النبوية فيقول : (قد ترك نفسه من ثلاث خصال مذمومة : (المراء) أي الجدال ولو بحق ، لحديث : من ترك المراء وهو محق ، بنى الله له هيبتا في ربض الجنة .

(والاكثر) من الكلام أو المال (ومالا يعنيه) أى لا يتدخل فيما لا يعنيه ، وهو القائل : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) .

(وترك الناس من ثلاث) : (كان لا يذم أحدا) أى مواجهة ولا غير مواجهة (ولا يعيبه) فى نسخة : ولا (يعيره) من التعبير وهو التوبيخ (ولا يطلب عورته) أى لا يتبع عورة المسلم . (ولا يتكلم إلا فيما جاثوا به) أى فى الشيء النافع المطلوب (وإذا تكلم أطرق جلساؤه) أى أرخو أنظارهم إلى الأرض ، وأصغوا إليه ، كأنما على رؤوسهم الطير) فإذا سكت تكلموا أى لا يتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون وهو يتكلم (لا يتنازعون عنده الحديث) لأنه لا ينبغي التنازع ولا التخاصم فى حضرته . (ومن تكلم عنده . إلخ) لأن هذا من آداب الحديث (حديثهم عنده حديث أولهم) أى يتحدث عنده من جاء أولا ثم من بعده على الترتيب .

(يضحك . إلخ) أى موافقة لهم وتطيبيا لخاطرهم . (ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسالته) أى يسامح الغرباء إذا حدثت منهم غلظة وجفوة فإن للغريب لدهشة . وقد ورد أن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن يعتزلهم ، حتى كان الصحابة رضوان الله عليهم يستجلبون الغرباء إلى مجلس النبى (ﷺ) ، ليتمكنوا من العلم والتبسط ، وليجدوا مالم يكونوا يجدونه إذا لم يوجد (الغرباء) (إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه) أى أعينوه على طلب الحاجة حتى يصل إليها . (ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ) أى لا يقبل مديحا إلا من إنسان أحسن إليه ، وماسوى ذلك أعرض عنه وأشاح بوجهه . (ولا يقطع عن أحد حديثه) أى لا يقاطعه فى كلامه ، وإنما يستمع إليه حتى يفرغ منه . (حتى يجوز) أى يتجاوز الحد ، فيقطعه بنهى أو قيام . (١٠)

عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا (١)

الشرح والبيان

المعروف أن رسول الله ﷺ لا يسأل عن شيء إلا كان يعطى سائله الحاجة المطلوبة ، أو يدعو له ، أو يعده بها ثم يوفى له ما وعد به .

(١١)

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حتى ينسلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة (٢)

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٥ برقم ٢٣١١ / ٥٦

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٣ برقم ٢٣٠٨ / ٥٠

الشرح والبيان

كانت مراتب جوده ﷺ ثلاثة :

- (١) الجود العادى وهو فوق جود البشر .
- (٢) جود أعلى منه وهو فى رمضان
- (٣) جود أكثر وأكثر ، وكان عندما يلقى جبريل ويدارسه القرآن والجود فى المحسوسات والمعنويات . وقد استفاضت الأخبار فى أن الدنيا لم تسكن قلبه أبدا . لقد كان يعطى عطاء الملوك ، بل عطاء من لا يخشى الفقر أبدا . (فلهو أجود بالخير من الريح المرسلة) أى بالمطر ، لأن الريح تتسبب فى السحاب الذى يتحول إلى الماء والانبات .

(١٢)

عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان النبى ﷺ لا يدخر شيئا لغد^(١) .

الشرح والبيان

عدم الادخار يستلزم عظيم توكله على الله عز وجل . وهذا لا ينافى ماورد من أنه كان يدخر قوت عام ، فلقد كان هذا المدخر يذهب غالبا إلى الصدقات والمساعدات ، ويفنى بعد قليل . فالصفة الغالبة على أحواله ﷺ هى عدم الادخار .

(١٣)

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبى ﷺ ما عندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاء لى شيء قضيته ، فقال عمر : يا رسول الله قد أعطيته فما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر . فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله أنفق ولا تحف من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله ﷺ وعرف فى وجهه البشر لقول الأنصارى ثم قال : بهذا أمرت^(٢) .

الشرح والبيان

(ابتع على) أى اشتر حاجتك دينا على وأنا أوفى عنك وأقضى دينك ، وهذا لأنه لم يكن هناك شيء عند رسول الله ﷺ فى هذه الحال .
ويظهر أن سيدنا عمر أشفق على حال رسول الله فقال كلمته . وكراهية الرسول لكلام عمر ، لأن فيه نزولا على العادة من أحوال البشر ، ورسول الله ﷺ يحب دائما أن يسبق غيره ، (فقام رجل من الأنصار) .

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٦٧ ص ١٠ ج ٤

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ج ١١ برقم ٢٠٠٥٧ ص ١٠٩ فى وصية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - .

لم يذكروا اسمه ، ولكن يبدو أنه استدرك ، ليرضى رسول الله ، ويذهب هذه السحابة الخفيفة التي ارتسمت على جبينه الشريف ، (أنفق) ولو فوق طاقتك (ولا تخف من ذى العلاش إقلا لا) والاقلال الافتقار والحرمان - فانفجرت أسارير المصطفى ﷺ ، وعرف البشر في وجهه .

- ١٤ -

عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها .^(١)

الشرح والبيان

الاثابة على الهدية : إعطاء عوض عن الهدية للمهدى . فمن الخلق الحسن أن ندعو للذين أحسنوا إلينا ونكافئهم ، ونحفظ لهم جمائلهم .

* هذه الأحاديث تشرح بعض جوانب هذه النفس الرفيعة ، والاحاطة بهذه النفس التي لا يمكن أن يلزم بها واصف ، أو يحيط بها فقيه ولا عالم . إنه ﷺ قد جعل على أكمل الفضائل ، وأتم الصفات ، وأقوى المحاسن ، وأزكى الطباع . اللهم حسن خلقنا وخلقنا ؛ واهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها ؛ لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ؛ فإن أثقل شيء في الميزان كما قال نبيك ﷺ : (خلق حسن)^(٢) .

* باب ماجاء في حياء رسول الله (ﷺ)

الحيا : بالقصر هو المطر . والحياء بالمد : هو خلق يبعث على اجتناب القبيح ، ويبعد بصاحبه عن كل ما يشين بالمروءة . وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال : (الحياء خير كله)^(٣) ولقد جمع هذا الحديث أقسام الحياء جميعا . ولقد كان بعض الصالحين يستحي من نفسه ، حتى كأن نفسه نفسان لا نفس واحدة . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئا عرف في وجهه .^(٤)

الشرح والبيان

العذراء هي البكر ، والخدر : بكسر الخاء وسكون الدال وهو ستر يجعل للبكر في جانب البيت لتستر به حتى عن بعض النساء .

(١) أخرجه الامام احمد ج ٦ ص ٩٠

(٢) أخرجه الترمذي ج ٣ ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ برقم ٢٠٧٠ ، ٢٠٧١

(٣) أخرجه الامام مسلم ج ١ ص ٦٤ برقم ٣٧ / ٦١ وفي رواية (الحياء كله خير)

(٤) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٩ برقم ٢٣٢٠ / ٦٧

وكان حياء رسول الله ﷺ أشد من حياء هذه البكر المخدرة .
(وكان إذا ذكره شيئا عرفناه في وجهه) فلا يصرح حياء ، وإنما يعرف أثر الكراهة في وجهه ، لأنه صاف منير ، مشرق وضاء ، ومن المعروف بداهة أن الحياء المدحوح هو الذي لا يضر بصاحبه ، أو هو الذي لا يتسبب في انزاله عن المجتمع ، أما غير ذلك فمذموم . قال رسول الله ﷺ : (نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين)^(١)

(٢)

عن مولى لعائشة قال : قالت عائشة : ما نظرت إلى فرج رسول الله ﷺ : أو قالت : ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط .

الشرح والبيان

يؤكد هذا الحديث مجاء عن عائشة : (ما رأيت منه ولا رأى مني) والحديث الآخر عنها أيضا : (مأتى رسول الله ﷺ أحدا من نسائه إلا مقنعا ، يرخى الثوب عن رأسه)^(٢) أورده ابن الجوزي في كتاب الوفاء .

* وفي الباب حديثان !!

لقد كان ﷺ إذا وعظ قال : مابال أقوام ، ولعل المقصود واحد وكان لا يثبت بصره في وجه أحد .

وكان خافض الطرف ؛ نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .

لاعدة للمطلقة قبل الدخول بها

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

معاني المفردات

نكحتم : يطلق النكاح تارة (يراد به العقد . ويطلق تارة ويراد به الوطء . والمراد به هنا العقد باتفاق العلماء بدليل قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ (وأصل النكاح في اللغة . الضم والجمع . قال القرطبي : النكاح حقيقة في الوطء وتسمية العقد نكاحا لملاسته له من حيث أنه طريق إليه ، ونظيره تسميتهم الخمر إثما لأنها سبب في اقتراف الاثم ، ولم يرد لفظ النكاح في القرآن إلا في معنى

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٢٦١ رقم ٣٣٢ / ٦١

(٢) أخرجه أحمد ج ٦ ص ٦٣ ، ١٩٠

العقد ، لأنه في معنى الوطء ، وهو من آداب القرآن الكناية عنه بلفظ (الملامسة . والمماسه . والقربان . والتغشى . والاتيان)

المؤمنات : فيه إشارة إلى أنه ينبغي أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات ، وليس لفظ الايمان في قوله ﴿ المؤمنات ﴾ للقيّد أو الشرط ، بل هو لمراعاة الغالب من حال المؤمنين أنهم لايتزوجون إلا بمؤمنات .

وهذا مما اتفق عليه الفقهاء ، ولو كان للقيّد أو الشرط لكان حكم (الكتابيات) مختلفا عن حكم المؤمنات مع أن الحكم واحد .

تمسوهن : المراد بالمس هنا (الجماع) بإجماع الفقهاء . وقد اشتهرت الكناية به وبلفظ الملامسة والمماسه ونحوها في لسان الشرع عند الجماع ، وهو كما أسلفنا من آداب القرآن ، لأن القرآن العظيم يتحاشى ذكر الألفاظ الفاحشة ، فيكنى عنها ، مثل قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴾ ^(١) ولو كان المراد في الآية حقيقة المس باليد ، وهى إصاق اليد بالجسم ، للزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسها بيده من غير جماع ولاخلوة ، ولم يقل بذلك أحد من الفقهاء .

عدة : العدة في اللغة مأخوذة من العد لأن المرأة تعد الأيام التى تجلسها بعد طلاق زوجها لها أو وفاته . وهى شرعا : المدة التى تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها . أو للتعبد . تعتدونها : أى تعدونها عليهن . أو تستوفون عددها عليهن .

فتمتعوهن : أى أعطوهن المتعة . والمتعة فى الأصل ما يتمتع به من مال أو ثياب ، وقد حددها بعض الفقهاء بأنها (قميص وخمار وملحفة) والصحيح أن المتعة لا تختص بالكسوة بل هى فى لسان الشرع :

كل ما يعطيه الزوج لمطلقاته ارضاء لها وتخفيفا من شدة وقع الطلاق عليها . وسرحوهن : أى طلقوهن . قال القرطبى : التسريح إرسال الشئ ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض ، وسرح الماشية : أرسلها . سراحا جميلا : أى طلاقا بالمعروف ، والسراح الجميل يكون بالتلطف مع المطلقة بالقول وترك أذاها . وعدم حرمانها مما وجب لها من حقوق .

المناسبة والمعنى الجملى

كان الحديث فى الآيات السابقة عن نساء النبى ﷺ وماينبغى أن يكن عليه من طاعة الله ورسوله . وزهد فى الدنيا وطهارة وكمال ، لأنهن لسن كبقية النساء ، والله تبارك وتعالى يريد لمن أن يحافظن على ذلك الشرف الرفيع ، وهو انتسابهن إلى رسول الله ، حيث أصبحن أمهات للمؤمنين ، وزوجات الرسول الطاهرات ، وقد أعقب ذلك بذكر قصة (زيد بن حارثة) وتطليقه (زينب) رضى الله عنها التى تزوجها الرسول بعد ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وذلك لحكمة جلية وهى إبطال

(بدعة التبنّي) ثم جاء الخطاب هنا للمؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل المساس ، وكيف يجب على المؤمنين أن يفعلوا فيما إذا وقع منهم الطلاق قبل المعاشرة ، وما هي الأحكام الشرعية التي ينبغى عليهم أن يتمسكوا بها في مثل هذه الأحوال ، فيقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ ﴾ أى إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ، ثم طلقتموهن من قبل أن تقربوهن فليس لكم عليهن حق في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم طلقتموهن قبل المساس ، وهذا لا يستلزم احتباس المرأة في البيت وجلوسها في العدة ، من أجل صيانة نسبكم ، لأنكم لم تعاشرهن فليس هناك احتمال للحمل فالواجب عليكم أن تمتنعوهن بدفع ماتطيب نفوسكم هن . وتكرموهن بشيء من المال أو الكسوة تطيبا لخاطرهن وتخفيفا لشدة وقع الطلاق عليهن وأن تفارقوهن بالمعروف فلا تؤذوهن بقول أو عمل . ولا تحرموهن مما وجب هن عليكم من حقوق . فإن ذلك من مقتضى إيمانكم وطاعتكم لله عز وجل والله تعالى أعلم .

لطائف التفسير :-

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يتخير لنطقه ، وأن ينكح المؤمنة الطاهرة ، لأن إيمانها يجعلها تحافظ على عفتها ، ويحجزها عن الوقوع في الفاحشة والشر ، فتصون عرض زوجها ، وتحفظه في حضرته وغيبته وصدق الله ﴿ وَلَأَمَّةٌ مِّمَّنْ خَلَقَ مِنْ مِشْرَكَةٍ وَلَوْ أَحَبَّبْتُمْ ﴾^(١) .

اللطيفة الثانية : قوله ﴿ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ التعبير (بثم) دون الفاء أو الواو والعطف بها يفيد (التراخى) للإشارة إلى أن الطلاق ينبغى أن يكون بعد تريض وتفكير طويل ، ولضرورة ملحة ، لأن الطلاق من الأمور التي يبغضها الله ، حيث فيه هدم وتحطيم للحياة الزوجية ، ولهذا قال بعض الفقهاء إن الآية ترشد إلى أن الأصل في الطلاق الحظر ، وأنه لا يباح إلا إذا فسدت الحياة الزوجية ، ولم تفلح وسائل الإصلاح بين الزوجين ، والحكم واحد لا يختلف فيمن تزوج امرأة فطلقها على الفور ، أو طلقها على التراخى .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ كنى بالمس عن الجماع ، وهذا أدب من آداب القرآن ينبغى على المسلم أن يتأدب به فيكنى عن كل شيء قبيح أو فاحش .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَمَالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عُدَّةٍ ﴾ في إسناد العدة إلى الرجال إشارة إلى أنها حق للمطلق ، فوجوب العدة على المرأة من أجل الحفاظ على نسب الإنسان ، فإن الرجل يغار على ولده ، ويهمه ألا يسقى زرعه بماء غيره ، ولكنها على المشهور ليست حقا خالصا للعبد . بل تعلق بها حق الشارع أيضا ، فإن منع الفسء باختلاط الانساب من حق الشارع . والصحيح أن وجوب العدة فيها (حق الله ، وحق العبد) ولهذا قال الفقهاء العدة تجب لحكم عديدة : لمعرفة (براءة الرحم ، وللتعبد ، أو التفجع) .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يقع الطلاق قبل النكاح ؟

أجمع الفقهاء على أن الطلاق لا يقع قبل النكاح ، استدلالا بقوله تعالى : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ فقد رتب الطلاق على النكاح وعطفه (بضم) التي تفيد الترتيب مع التراخي ، واستدلالا بقوله ﷺ ، (لا طلاق قبل النكاح) واختلفوا فيمن علق الطلاق مثل قول الرجل : (إن تزوجت فلانة فهي طالق) أو قوله : (كل امرأة أتزوجها فهي طالق) على مذهبين .
 أ - مذهب الشافعي وأحمد : أنه لا يقع الطلاق وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنه .
 ب - مذهب أبي حنيفة ومالك : أنه يقع الطلاق بعد عقد الزواج وهو مروى عن (ابن مسعود) رضي الله عنه .

أدلة الشافعية والحنابلة :

أ - استدل الامامان الشافعي وأحمد رحمهما الله على أن التعليق مثل التنجيز طلاق قبل النكاح ، وإذا طلق الانسان امرأة ، لا يملكها لا يقع الطلاق ، لأن الطلاق لا بد أن يعتمد على الملك ، وهو يشبه ما لو قال لأجنبية لا يملكها (أنت طالق) فإنه لا يقع باتفاق ، فكذا المعلق من الطلاق لا يقع به طلاق .
 ب - واستدلوا بحديث (لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا عتق له فيما لا يملك ، ولا طلاق له فيما لا يملك) الحديث رواه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا وقال الترمذي حديث حسن ، وهو أحسن شيء روى في هذا الباب (١)

وهذا الرأي ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين وقد عد البخاري منهم أربعة وعشرين في باب (لا طلاق قبل النكاح) وهو منقول عن (ابن عباس) رحمه الله . فقد روى أنه سئل عن ذلك أي (عن الطلاق المعلق) فقال : هو ليس بشيء فقيل له إن (ابن مسعود) يخالفك يقول : إذا طلق مالم ينكح فهو جائز . فقال رحم الله أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال لقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن ﴾ ولكن إنما قال : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ أدلة المالكية والحنفية :

واستدل الحنفية والمالكية بأن الطلاق يعتمد على الملك أو الاضافة إلى الملك ، لكنه في حالة الاضافة إلى الملك ، يبقى معلقا ، حتى يحصل شرطه ، فإذا قال للأجنبية (إن تزوجتك فأنت طالق) كان هذا تعليقا صحيحا ، ولا يقع الطلاق به الآن إنما يقع بعد أن يتزوجها . فهو مثل قولك : (إن دخلت الدار فأنت طالق) لا يقع الطلاق إلا بعد الدخول ، فكذا هنا لا يقع الطلاق إلا بعد أن يعقد عقد الزواج عليها ، فيكون الطلاق واقعا في الملك بالضرورة ، فكأنه أوقعه عليها حينذاك ، وقالوا : الفرق واضح بين تنجيز الطلاق على الأجنبية ، وبين تعليق طلاقها على النكاح ، فإن قول الرجل

(١) أخرجه الترمذي برقم ١١٩٢ ج ٢ ص ٣٢٦

لأمرأة أجنبية (هي طالق) كلام لغو ، لأنها ليست زوجته وقد طلق ما لم يملك فهو طلاق قبل النكاح لا يقع أصلاً ، أما قوله : (إن تزوجت فلانة فهي طالق) فهو معلق على الملك والفرق واضح بينهما . وهذا القول قال به جمع غفير من العلماء منهم (ابن سعود) ودليله قوى وهو الأحوط كما نبه عليه (ابن العربي والجعاص)

والخلاصة : فإن الطلاق بعد النكاح يقع باتفاق الفقهاء ، والطلاق المنجز قبل النكاح لا يقع باتفاق ، والطلاق المعلق على النكاح يقع عند الحنفية والمالكية ، ولا يقع عند الشافعية والحنابلة ، ولكل وجهة هو موليها والله أعلم .

الحكم الثانى : هل الخلوة الصحيحة توجب العدة والمهر ؟

ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ الذى هو كناية عن الجماع أن الخلوة ولو كانت صحيحة لا توجب ما يوجب الجماع من العدة والمهر ، وهذا مذهب الامام الشافعى رحمه الله تعالى ، ودليله : أن الله سبحانه وتعالى نفى وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع ، والخلوة ليست جماعاً فلا يجب بها العدة ولا المهر .

ومذهب الجمهور (المالكية والحنفية والحنابلة) إلى أن الخلوة كالجماع توجب المهر كاملاً ، وتوجب العدة .

(١) واستدلوا بما رواه الدارقطنى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : (من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق دخل بها أو لم يدخل)^(١)
(ب) وروى عن عمر أنه قال (إذا أغلق باباً وأرخت ستراً ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث)^(٢) .

(ج) وروى عن زرارة بن أبى أوفى أنه قال : (قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخت الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملاً وعليها العدة دخل بها أو لم يدخل)
الترجيح : وأنت ترى أن أدلة الجمهور أقوى ، وحجتهم أظهر ، إذ يحتمل أن يبقى الرجل مع زوجته عاماً كاملاً ، يبيت معها فى فراش واحد ، ولكنه لم يجامعها طيلة هذه المدة ، فلا بد أن نوجب عليه دفع المهر كاملاً ، ونلزمها بالعدة ، وذلك اعتباراً بالخلوة الصحيحة ودفعاً للنزاع والخلاف . وقد اختلف القائلون بوجوب العدة بالخلوة الصحيحة فمنهم من يقول :
إنها واجبة (ديانة وقضاء) ومنهم من يقول بوجوبها قضاءً لا ديانة لأنه القاضى إنما يحكم بالظاهر والرأى الأول أصح .

الحكم الثالث : ما هو حكم المطلقة رجعيًا هل تستأنف العدة إذا راجعها زوجها ثم طلقها قبل

المساس ؟

(١) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣٣ والبيهقى ج ٧ ص ٢٥٦

(٢) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣١

اختلف الفقهاء في المرأة المطلقة رجعيا فيما إذا طلقها زوجها بعد المراجعة قبل أن يمسه على أقوال :

(١) مذهب الظاهرية : أنه لا عدة عليها جديدة والعدة الأولى قد بطلت بالطلاق الثاني ، فلا يجب عليها أن تكمل العدة الأولى (وهذا رأي ضعيف)

(ب) مذهب الشافعي : تبني على عدة الطلاق الأول وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة .

(ج) مذهب مالك وأبي حنيفة : عليها أن تستأنف عدة جديدة .

قال القرطبي : وعلى هذا أكثر أهل العلم .

دليل الظاهرية : استدل داود الظاهري ومن قال بقوله : أن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقتها قبل أن يمسه ، أنه ليس عليها أن تتم عدتها ولا عدة مستقبلية ، لأنها مطلقة قبل الدخول بها أخذا بظاهر الآية .

دليل الشافعي : استدل الشافعي رحمه الله بأن المطلقة تبني على عدتها الأولى وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة بأن الطلاق الثاني لا عدة له ، لأنه طلاق قبل المساس ، ولكن لا ينبغي أن يبطل ماوجب بالطلاق الأول ، فإنه طلاق بعد دخول يجب أن تراعى فيه حكم الشارع في إيجاب العدة ، فطلاقه لها قبل أن يمسه في حكم من طلقها في عدتها قبل أن يراجعها ، ومن طلق امرأته في كل طهر مرة بنت ولم تستأنف .

دليل المالكية والحنفية : قالوا إن عليها أن تستأنف عدة جديدة ، لأن الطلاق الثاني وإن كان لم يفصل بينه وبين الرجعة مس ولا خلوة ، لكنه لا يصدق عليه أنه قد حصل قبل الدخول على الاطلاق ، إذ المفروض أن المرأة كان مدخولا بها من قبل ، فيجب عليها أن تستأنف عدة كاملة لأنها في حكم الموطوءة .

قال القرطبي : نقلا عن الإمام مالك : إنها تنشئ عدة مستقبلية ، وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة له بها .

وعلى هذا أكثر أهل العلم ، لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكن وغير ذلك ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام .

الحكم الرابع : هل تجب المتعة لكل مطلقة ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ فمتموهن ﴾ إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء فرض لها مهرا ولم يفرض لها مهرا ، ويقوى هذا الظاهر قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾ ^(١) فقد أوجبت لكل مطلقة (المتعة) وقد اختلف الفقهاء في وجوب المتعة على أقوال :

(١) أنها واجبة لكل مطلقة ، فرض لها مهر أم لم يفرض لها مهر ، عملا بظاهر الآية . وهو مذهب (الحسن البصري) .

(ب) أن المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول التي لم يفرض لها مهر ، وهو مذهب (الحنفية والشافعية) . وبهذا قال (ابن عباس) رضى الله عنهما . وأما التي فرض لها مهر فتكون المتعة لها مستحبة .

(ج) ان المتعة مستحبة للجميع وليست واجبة لأحد من النساء وهو مذهب (المالكية) وسبب الخلاف بين الفقهاء في (وجوب المتعة) أو استحبابها هو أنه قد ورد في القرآن الكريم آيات كريمة ظاهرها التعارض ، فمنها ما يوجب المتعة على الاطلاق ، ومنها ما يوجب المتعة عند عدم ذكر المهر المفروض لها ، ومنها ما لم ينص على المتعة أصلا فلهذا وقع الخلاف بين الفقهاء ، أما الآيات الكريمة فهي آية الأحزاب ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾ ^(١) وآية البقرة ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾ ^(٢) وآية البقرة كذلك ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ ^(٣) - الآية

فالآية الأولى مطلقة والثانية مقيدة بقيدين (عدم المس ، وعدم الفرض) وأول الآية هو قوله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ﴾ الآية .

والثالثة : أوجبت نصف المهر فقط ولم تذكر المتعة . فمن الفقهاء من جعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب ويكون المعنى (فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهن المهر في النكاح) وبهذا التفسير قال (ابن عباس) ويؤيده أن المتعة انما وجبت دفعا لايحاش الزوج لها بالطلاق ، فإذا وجب للمطلقة قبل الدخول نصف المهر كان ذلك جابرا للوحشة فلا تجب لها المتعة . .

الترجيح : ويظهر من الأدلة أن حجة الفريق الثاني وهم (الحنفية والشافعية) أقوى وأظهر وهو مذهب ابن عباس وفيه جمع بين الأدلة والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- أولا - على الانسان أن يختار في الزواج المرأة المؤمنة الطاهرة .
- ثانيا : الطلاق هدم للحياة الزوجية فلا يصح أن يقع إلا في الحالات الضرورية .
- ثالثا : لا تجب العدة بالاجماع الا/ طلقت المرأة قبل الدخول بها .
- رابعا : على الزوج أن يجبر خاطر زوجته المطلقة بالمتعة .
- خامسا : حرمة ايذاء المطلقة وتسريحها بالمعروف والاحسان .

حكمة التشريع

شرع الله تعالى الزواج لبقاء النوع الانساني ، وعزز من روابطه واركانه وأحاط الأسرة بسياج

(١) سورة الأحزاب آية ٤٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٦

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٧

مقدس من التكريم والتقدير وأقام الحياة بين الزوجين على أساس التفاهم والتعاون ، والمحبة والمودة ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

وقد أباح الاسلام الطلاق في ظروف استثنائية ضرورية ، وذلك ليخلص الانسان من شقاء محتم ، وينقذه من مشكلة قد تحرمه السعادة ، أو تكلفه حياته ، والطلاق في الاسلام أبغض الحلال إلى الله ، لان فيه محراب البيوت ، وضياع الأسرة ، وتشريد الأولاد ، ولكنه ضرورة لابد منها عند اللزوم . فلا بد أن تكون الأسباب فيه جلبة . والدوافع قاهرة ، وألا يكون ثمة طريق إلى الخلاص من ذلك الشقاء إلا بالطلاق . وقد قيل في الأمثال « آخر الدواء الكى »

وقد أرشد الاسلام إلى الاستعمال الحكيم لهذا العلاج ، ألا يقدم عليه الانسان إلا بعد درس وتمحيص وروية وبصيرة فإن الطلاق مآشرع إلا ليحقق الطمأنينة والسعادة للانسان ، ويدفع عنه مرارة العيش ، وقساوة الحياة ، وإذا لم يستعمله المرء في الطريق المأمون انقلب إلى اعصار مخرب مدمر ، فحرم الأسرة الأمن والاستقرار ، فهو إذن سلاح ذو حدين : فإما أن يستعمله الانسان فيما يجلب اليه الشقاء . أو يستعمله فيما يخلصه من الشقاء .

وقد حكم الباري جل وعلا بأن من طلق زوجته قبل المساس . فليس له عليها حق أن يمنعها من الزواج ، لأنها لاعدة عليها . والعدة إنما تجب لمعرفة براءة الرحم ، وصيانة لحق الزوج لئلا يختلط نسبه بنسب غيره ، ولما كان هذا الطلاق قبل المعاشرة والاتصال الزوجي ، إذن فلاعدة ولا سبيل له عليها . فيجب أن يحسن معاملتها ، ويخلى سبيلها ، ولا يجمع لها بين الاساءتين : إساءة العشرة بسبب الفراق وإساءة المعاملة بمنعها من الزواج ﴿ فمتعوهم وسرحوهم سراحا جميلا ﴾ .

وبذلك صان المولى جل وعلا كرامة المرأة ودفع عنها عدوان الزوج وطغيانه ، وحفظ لكل حقه ، فلم يظل المرأة ولم يفرط في حق الرجل ، وفسح المجال لكل من الزوجين في الحياة السعيدة الكريمة . فما اسمى تعاليم الاسلام ، وما أعدل نظمه وأحكامه !!

أحكام زواج النبي ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّذِينَ اتَّيَبَتْ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ * تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُعْوَى إِلَيْكَ مَنْ

تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ
وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿١٥﴾ لَا يَحِلُّ
لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١٦﴾

معاني المفردات

أحللنا : الاحلال معناه الاباحة ، وكل شيء أباحه الله فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، قال في
لسان العرب : والحل والحلال والحليل . نقيض الحرام وأحله الله وحلله .
أجورهن : مهورهن والمراد في الآية : الأزواج اللواتي تزوجهن عليه الصلاة والسلام بصداق ،
وسمى المهر أجرا ، لأنه مقابل الاستمتاع بالمرأة في الظاهر ، وأما في الحقيقة فهو بذل وعطية ، لاظهار
(حظر المحل) وشرفه ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ ^(١) أى هبة وعطية عن طيب
نفس ، فالمهر تكريم للمرأة وإيناس لها ، وتطيب لخاطرها ، وليس هو مقابل المنفعة أو الاستمتاع ، كما
نبه عليه الفقهاء .

ملكك يمينك : يعنى الجوارى والاماء ، لأنهن يتملكن عن طريق الحرب والجهاد ، بالجهد
والتضحية ، وبذل النفس والمال في سبيل الله ، ولذلك أطلق عليهن (ملك اليمين) .
أفاء الله : أى بما غنمته منهن . ومما رده الله عليك من الكفار ، كصفية وجويرية : فإنه عليه
السلام أعتقهما وتزوجهما ، وأصل الفاء : الرجوع ، وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع إلى المسلمين
من أموال الكفار بدون قتال ، فكأنه كان في الأصل للمسلمين ، فرجع إليهم بدون حرب ولا قتال .
هاجرن معك : المراد بالهجرة هى هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة ، والمعية هنا (معل) يراد بها
الاشتراك في الهجرة ، لا في الصحبة ، فمن هاجرت حلت له ، سواء هاجرت في صحبته أو لم تهاجر في
صحبته ، قال أبو حيان : تقول : دخل فلان معى ، وخرج معى أى كان عمله كعملى ، وإن لم يقرنا
في الزمان ، وإن قلت : فرجعنا معا اقتضى المعنيان : الاشتراك في الفعل ، والاشتراك في الزمان .
يستنكحها : الاستنكاح طلب النكاح ، لأن السين والتاء للطلب ، مثل استنصر طلب النصرة ،
واستعجل طلب العجلة ، والمراد من قوله : (إن أراد النبي) أى إن رغب النبي في نكاحها ، فالارادة
هنا بمعنى الرغبة في النكاح .

خالصة : أى خاصة لك لا يشاركك فيها أحد ، يقال : هذا الشيء خالصة لك : أى خالص لك

خاصة . قال ابن كثير : أى لا تحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل ، لم تحل له حتى يعطيها شيئا ، وكذا قال مجاهد والشعبي .

ما فرضنا عليهم : أى ما أوجبنا على المؤمنين من نفقة ، ومهر ، وشهود في العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحننا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور .
 حرج : أى ضيق ومشقة ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ لكىلا يكون عليك حرج ﴾ أى لكىلا يكون عليك ضيق في دينك ، حيث أختصصناك بما هو أولى وأفضل . وأحللنا لك أجناس المنكوحات توسعة لك . وتيسيرا عليك ، لتتفرغ لشئون الدعوة والرسالة .

ترجى : قال في لسان العرب : ارجأ الأمر : أحزه وترك الهمزة لغة والارجاء : التأخير ، قال ابن عباس في معنى الآية : تطلق من تشاء من نسائك وتمسك من تشاء منهم لا حرج عليك . وقال مجاهد والضحاك : المعنى تقسم لمن شئت ، وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت ، وتكثر لمن شئت . لا حرج عليك في ذلك .

فإذا علمن أن هذا حكم الله وقضاؤه زالت الاحنة والغيرة عنهن ، ورضين وقرت أعينهن .
 وتؤوى : أى تضم : يقال أوى وآوى بمعنى واحد قال تعالى :

﴿ أوى إليه أخاه ﴾ ^(١) أى ضمه إليه وأنزله معه ، قال ابن الجوزى (وأكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحبة نسائه كيف يشاء ، من غير إيجاب القسمة عليه والتسوية بينهن . غير أنه كان يسوى بينهن)

تقر أعينهن : أى تطيب نفوسهن بتلك القسمة قال أبو السعود (ذلك أدنى أن تقر أعينهن) أى أقرب إلى قرّة العيون ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن) .
 عليا حليما : أى مبالغا في العلم فيعلم كل ما تبدونه وتحفونه .
 حليما لا يعاجل بالعقوبة ، فلا تغتروا بتأخيرها ، فإنه تعالى يمهّل ولا يهمل .

المناسبة والمعنى الاجمالى

أحل الله تعالى لنبيه ﷺ صنفا من النساء ، صنفا يدفع له المهر (المهورات) وصنفا يتمتع به بملك اليمين (المملوكات) ، وصنفا من أقاربه من نساء قريش ، ونساء بنى زهرة (المهاجرات) ، وصنفا رابعا ينكحه بدون مهر (الواهبات) أنفسهن وقد خص البارى جل وعلا رسوله في أحكام الشريعة بخصائص لم يشاركه فيها أحد ، وذلك توسعة عليه ، وتيسيرا له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، فتزوجه ﷺ بأكثر من أربع ، واختصاصه بنكاح الواهبات أنفسهن بدون مهر ، وعدم وجوب

القسم عليه بين الأزواج ، كل ذلك خاص به صلوات الله وسلامه عليه ، تشريفا له وتكريما وإظهارا لمقامه السامي عند المولى عز وجل .

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحي امرأة ان تهب نفسها لرجل ؟ ! حتى أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ فقلت « ما أرى ربك إلا يسارع في هواك »^(١) ومعنى الآيات الكريمة : يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن ، وأحللنا لك ماملكت يدك من السبي في الحرب ، وأحللنا لك قريباتك من بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات ، اللواتي وهبن أنفسهن ، حبا في الله وفي رسوله ، ورغبة في التقرب لك ، إن أرت أن تتزوج من شئت منهن ، بدون مهر خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في زوجاتهم ورفيقاتهم من شرائط العقد ، ووجوب المهر في غير المملوكات ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيرا لك لكيلا يكون عليك ضيق أو حرج ولك - أيها الرسول - أن تترك من زوجاتك من تشاء ، وتضم إليك من تشاء ، وتقسم لمن تشاء منهن ، وأن تراجع بعد الطلاق من تريد . ذلك أقرب أن ترتاح قلوبهن لعلمهن أنه بأمر الله وترخيصه لك ، فيرضين بكل ما تفعل ، ويقبلن به عن طيب نفس ، وكان الله عليهما بما انطوت عليه القلوب ، حليما لا يعاجل بالعقوبة لمن خالف أمره وعصاه .

وسبب نزول الآية ، أنه لما نزلت آية التخيير ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزيتها فتعاليين أمتعن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

أشفق نساء النبي ﷺ أن يطلقهن فقلن : يا نبي الله أجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ، ودعنا في عصمتك ، فنزلت هذه الآية ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ الآية . (أخرجه ابن أبي شيبة من رواية رزين)^(٢) .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : الاحلال معناه الاباحة والحل . واسناده إلى الله عز وجل ﴿ أحللنا لك أزواجك ﴾ دال على أن التحليل والتحريم خاص به سبحانه ، والتشريع لله وحده ، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ولا يملك أحد سلطة التشريع ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾^(٣) اللطيفة الثانية : في وصفه تعالى النساء بقوله : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ تنبيه على أن الله عز وجل اختار لنبيه ﷺ الأفضل والأكمل ، فإن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيرته ، والتعجيل كان سنة السلف لا يعرف منهم غيره ، وقد شكوا بعض الصحابة عدم القدرة على التزوج ، فقال له عليه السلام (فإين درعك الحطمية ؟)

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ج ١٠ ص ٤٩

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ج ٤ ص ٣٠٤

(٣) سورة يوسف آية ٤٠

وليس تأخير بعض المهر وتقسيمه إل (معجل ومؤجل) إلا شيء استحدثه العرف ، واقتضاه التغالي بالمهور ، أو الحذر على مستقبل الفتاة من الطلاق بعد أن فسد حال الناس ، فذكر الأجور ليس للقيّد أو الشرط وإنما هو لبيان الأفضل .

اللطيفة الثالثة : تخصيص ماملكت يمينه في قوله تعالى : ﴿ مما أفاء الله عليك ﴾ للإشارة على أنها أحل وأطيب مما تشتري من الجلب . فما سبى من دار الحرب قيل فيه (سبى طيبة) وما كان عن طريق العهد قيل (سبى خبيثة) والله تعالى لا يرغب نبيه إلا في الطيب دون الخبيث (أفاده أبو حيان في البحر المحيط) .

اللطيفة الرابعة : ذكر العم والخال مفردا ، وجمع العمات والخالات ، في قوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾

قال ابن العربي : والحكمة في ذلك أن العم ، والخال في الاطلاق (اسم جنس) كالشاعر ، وليس كذلك في العمة والخاله ، وقد جاء الكلام عليه بغاية البيان ، على العرف الذي جرى عليه العرب .

اللطيفة الخامسة : العدول عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى ﴿ إن أراد النبي ﴾ ثم الرجوع إلى الخطاب في قوله ﴿ خالصة لك ﴾ وذكره ﷺ بعنوان (النبوة) للدلالة على أن الاختصاص كان من الله تعالى ، تكرمة له لأجل النبوة ، والتكرير للتفخيم من شأنه ﷺ ، وبيان استحقاقه الكرامة لنبوته . قال الزجاج : وإنما قال : (إن وهبت نفسها للنبي) ولم يقل : لك . لأنه لوق قال : لك . جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز في بنات العم وبنات العمات .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز النكاح بلفظ الأجارة أو الهبة ؟

لاخلاف بين الفقهاء على أن عقد النكاح ينقذ باللفظ الصريح ، وهو لفظ (النكاح أو الزواج) ويكل لفظ مشتق من هذه الصيغة . إذا لم يقصد به الوعد لقوله تعالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ (١) ولقوله ﷺ (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه) (٢) فصيغة النكاح والتزويج وردت في الكتاب والسنة ، وهي من الصيغ الصريحة في النكاح .

وقد اتفق الفقهاء أيضا على أن ألفاظ (الاباحة ، والاحلال ، والاعارة والرهن والتمتع) لا يجوز بها عقد النكاح ومثلها لفظ (الاجارة) فلا يجوز به عقد النكاح عند جمهور الفقهاء .

وقال أبو الحسن الكرخي : يجوز بلفظ الاجارة لقوله تعالى : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ (٣) وحجته أن الله عز وجل سمى المهر أجرا ، والأجر يجب بعقد يتحقق بلفظ الأجارة فيصح به النكاح .

(١) سورة النساء آية ٢٥

(٢) أخرجه الترمذي ج ٢ ص ٢٧٤ برقم ١٠٩٠ ، ١٠٩١

(٣) سورة الأحزاب ٥٠

الرد على الكرخي

والجواب : أن معنى (الإجارة) يتنافى مع عقد النكاح ، إذ النكاح مبني على التأييد ، والتوقيت يبطله ، وعقد الإجارة مبني على التوقيت ، حتى لو أطلق كان مؤقتا ويتجدد ساعة فساعة ، فكيف يصح جعل ما هو موضوع على التوقيت دالا على ما يبطله التوقيت

ومن جهة ثانية فإن الإجارة عقد على المنافع بعوض ، والمهر ليس مقابل العوض . بل هو عطية أوجبها الله تعالى إظهارا لخطر المحل ، ولذلك يصح النكاح مع عدم ذكر المهر ، ويجب مهر المثل بالدخول ، ولا يصح النكاح بلفظ الإجارة ، حتى لا يلتبس الأمر بعقد المتعة الباطل ، ولهذا لم يوافق أحد من فقهاء الحنفية الكرخي فيما ذهب إليه .

أما النكاح بلفظ الهبة فقد أجازته الحنفية ، ومنعه جمهور الفقهاء .

استدل الحنفية على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة بما يلي :

(١) قوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ ووجه الاستدلال أن الله عز وجل سمى العقد بلفظ الهبة نكاحا فقال : (أن يستنكحها) فدل على جواز النكاح بلفظ الهبة ، وإذا جاز هذا للنبي ﷺ فقد جاز لنا أيضا ، لأننا أمرنا باتباعه والافتداء به .

(ب) وقالوا أيضا : إن النبي ﷺ وأمته في عقد النكاح بلفظ (الهبة) سواء وخصوصيته التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ إنما هي في جواز النكاح بدون مهر ، بدليل قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ وذلك يشير إلى أن الخصوصية دفعت حرجا ، والحرج إنما يكون في الزام المهر ، لأنه يلزم مشقة السعى في تحصيل المال . وهو عليه السلام مشغول بشئون الرسالة ، وليس ثمة حرج في أن يكون العقد بلفظ النكاح ، أو التزويج ، فتكون الخصوصية له عليه السلام في النكاح بدون مهر .

ج - وقالوا : مما يؤيد هذا ما روى عن عائشة أنها كانت تعير النساء اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وتقول :

(ألا تستحي أن تعرض نفسك بغير صداق !!) فلما نزل قوله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾ إلى قوله ﴿ فلا جناح عليك ﴾ قالت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . . . وقد تقدم الحديث . (١)

(د) واستدلوا بحديث سهل بن سعد (إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : جئت لأهب نفسي لك وفيه) فقام رجل من الصحابة فقال يا رسول الله . ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، وذكر الحديث إلى قوله : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن (٢) .

ففي هذا الحديث أنه عقد له النكاح بلفظ التملك والهبة من ألفاظ التملك . فوجب أن يجوز

(١) سبق تخريجه ص ٥٦

(٢) أخرجه البخاري ج ٧ ص ٢٦ كتاب النكاح

بها عقد النكاح فكل ماكان من ألفاظ . (الاباحة) لم ينعقد به عقد النكاح قياسا على المتعة ، وكل ماكان من ألفاظ (التملك) ينعقد به عقد النكاح قياسا على سائر عقود التمليكات .
حجة الجمهور

واستدل الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة) على عدم جواز النكاح بلفظ الهبة بما يأتي :
(١) أن الله تعالى خص رسوله بهذه الخصوصية . وهي جواز النكاح بلفظ الهبة بدون مهر فقال جل ثناؤه : ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ وقوله : ﴿ خالصة لك ﴾ دليل على أن إحلال المرأة عن طريق الهبة إنما كان خاصا بالنبي (ﷺ) بدليل قوله تعالى : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ فالخصوصية له عليه السلام كانت بالهبة (لفظا ومعنى) لأن اللفظ تابع للمعنى .

ب - وقالوا ماكان من خصوصياته عليه السلام . فلا يجوز أن يشاركه فيها أحد . والآية دلت على أن هذا خاص بالرسول ﷺ أى أن النكاح بدون مهر . ويلفظ الهبة معا . من خصائصه عليه السلام .

فمن أين لكم الخصوصية في المعنى دون اللفظ ؟ ومن أين لكم أنه يجوز عقد النكاح لغير النبي (ﷺ) بلفظ الهبة مع إيجاد المهر ؟

ج - وأما استدلال الحنفية بحديث (سهل بن سعد) أن النبي عليه السلام زوج الصحابي بلفظ التملك بقوله (اذهب فقد ملكتها بما معك من القرآن)

فليس منه مايدل لهم . فقد جاء في بعض الروايات (اذهب فقد زوجتكها) وليس كل مايدل على التملك ينعقد به النكاح . فلفظ الاجارة يدل على التملك ومع ذلك لا ينعقد به النكاح باتفاق .

الترجيح : أقول : أدلة الحنفية كما بسطها الامام (الجصاص) وإن كانت قوية إلا أن النص ورد بالخصوصية للرسول عليه السلام في (نكاح الهبة) والظاهر أن المراد منه (اللفظ والمعنى) ، وحمله على المعنى دون اللفظ يحتاج إلى دليل ، وصيغ النكاح لايجزئ فيها القياس ، فما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح كما قال الامام مالك رحمه الله : إن الهبة لا تحل لأحد بعد النبي (ﷺ) إن كانت هبة نكاح ، والله أعلم .

الحكم الثاني : هل الهبة شرط في النكاح ؟

ظاهر الآية الكريمة يدل على أن من لم تهجر معه من النساء لا يحل له نكاحها لقوله تعالى : ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ الآية . وإلى هذا الظاهر ذهب بعض العلماء قال القاضي أبو يعلى : وهذا يدل على أن من لم تهجر معه من النساء لم يحل له نكاحها . قالت أم هانئ بنت أبي طالب : خطبني رسول الله (ﷺ) فاعتذرت إليه فعذرتني ، ثم نزلت هذه الآية ﴿ إنا أحللتنا لك أزواجك ﴾ . إلى قوله : ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ قالت : فلم أكن لأحل له . لأنى لم أهاجر معه . كنت من الطلقاء .

وجمهور المفسرين على أن الهجرة ليست بقيد ولا شرط . وإنما هي لبيان الأفضل كما في قوله تعالى : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ فالآية ذكرت الأصناف التي يباح للرسول ﷺ أن يتزوج منها ، وبين ما هو أفضل له وأكمل ، فكما أن ذكر (الأجور) ليس للقيد وإنما هو لبيان الأفضل فكذا هنا . قال أبو حيان : (والتخصيص باللاتي هاجرن معك . لأن من هاجر معه من قرابة غير المحارم أفضل من غير المهاجرات ، وقيل : شرط الهجرة في التحليل منسوخ) . وحكى الماوردي في ذلك قولين : أحدهما : أن الهجرة شرط في إحلال النساء له على الإطلاق . والثاني : أنه شرط في إحلال قراباته المذكورات في الآية دون الأجنبية . الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه جمهور المفسرين أن تقييد القريبات بكونهن مهاجرات لبيان الأكمل والأفضل ..

الحكم الثالث : هل كان عند النبي امرأة موهوبة ؟ ذكر أكثر العلماء إلى أن الهبة وقعت من كثير من النساء ، وقد وردت روايات كثيرة منها القوى ومنها الضعيف في أسماء الواهبات أنفسهن . منهن (أم شريك) و (خولة بنت حكيم) و (ليلي بنت الخطيم) . ولم يكن عند رسول الله ﷺ . منهن أحد ، وقيل (ميمونة بنت الحارث) و (زينب بنت خزيمة) كذلك من الواهبات أنفسهن والصحيح هو الأول . قال أبو بكر بن العربي : (وروى عن ابن عباس ومجاهد أنها قالا : لم يكن عند النبي ﷺ) امرأة موهوبة)

قال ابن كثير : (اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ) كثير ، كما قال البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ) وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء . ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾

قلت : مارأى بك إلا يسارع في هواك) . الحكم الرابع : هل كان القسم واجبا على رسول الله ﷺ ؟ يرى بعض العلماء أن القسم كان واجبا على رسول الله ﷺ) وأنه كان يقسم بينهن بالعدل ويقول : (اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك)^(١) يريد بقوله : (مالا أملك) ميل للقلب نحو بعض نسائه كعائشة رضي الله عنها . واستدلوا بأن القسم كان واجبا عليه بأنه عليه السلام كان يستأذن بعض نسائه فيقول : أتأذن لي أن أبيت عند فلانة . وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة . وذهب أكثر العلماء على أن هذه الآية الكريمة نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ) معاشرة من شاء من نسائه دون أن يكون القسم عليه واجبا ، ومع ذلك فقد كان يعدل بينهن ويسوى في القسمة . قال الجصاص : « وهذه الآية تدل على أن القسم بينهن لم يكن واجبا على النبي ﷺ) وأنه كان

(١) رواه الحاكم ١٠٧ / ٢ والبيهقي في السنن ٢٩٨ / ٧ وانحاف السادة المتقين ٣٦٨ / ٥

مخيرا في القسم لمن يشاء ، وترك من شاء منهم)

وقال ابن كثير : (وذهب طائفة من العلماء من الشافعية وغيرهم ، إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه ، ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، وقال البخاري عن معاذ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان النبي ﷺ يستأذنا في يوم المرأة منا ، بعد أن نزلت هذه الآية :

﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلى فإني لأرى يارسول الله أن أوثر عليك أحدا (١)

والصحيح أن القسم لم يكن واجبا عليه وهو اختيار الجمهور ، قوله تعالى : ﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافي قلوبكم وكان الله عليا حليما ﴾ ﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى باليك من تشاء ﴾ أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قسم بينهن ، بل الأمر في ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن . ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك في ذلك .

والخلاصة : أنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبي رزين قال : (لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يارسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ماشئت ، ودعنا كما نحن فنزلت هذه الآية . فأرجأ رسول الله ﷺ بعضهن ، وآوى إليه بعضهن . وكان ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمسا : أم حبيبة ، وميمونة ، وسودة ، وصفية ، وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ماشاء ، ثم بين السبب في الايواء والارجاء ، وأنه كان ذلك في مصلحتهن ، فقال : ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ ، أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك في أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارا منك لا وجوبا عليك . ففرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمبتك عليهن في قسمك لهن . وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك بينهن . ﴿ والله يعلم مافي قلوبكم ﴾ من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر له في حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : (اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) . يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين مافي القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله له من ذلك ،

(١) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٦٠٢ برقم ٢١٣٦ كتاب النكاح

وفوضه إلى مشيئته ، وبعث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله ﷺ .
﴿ وكان الله عليا حليما ﴾ أى وكان الله عليا بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ،
ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .
قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مملكت يمينك ﴾ ، وكان الله على كل شيء رقييا .
تتضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ،
والى ذلك أشار بقوله :

(١) ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ أى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في
عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن في ذلك أخرج أبو داود في ناسخه وابن
مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال :
(لما خيرهن فاخترن الله ورسوله ﷺ قصره سبحانه عليهن) .

وروى عن ابن عباس أنه قال في الآية : « حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه »
(٢) ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مملكت يمينك ﴾ أى ولا يحل لك أن
تستبدل بهن أزواجا غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة في الحسب
والجمال إلا ما مملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس ففسراها وأولدها
إبراهيم ومات رضيها .

وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبي (ﷺ) قال :
« إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » (١) وعن المغيرة بن
شعبة قال : (خطبت امرأة فقال لي النبي ﷺ : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا . قال : انظر إليها فإنه
أحرى أن يؤدم بينكما) .

﴿ وكان الله على كل شيء رقييا ﴾ أى وكان الله حافظا ومطلعا على كل شيء ، عليا بالسر
والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده ، وتخطى حلاله إلى حرامه .

آداب الاستئذان والوليمة والحجاب

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ
نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثِ إِنَّ
ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ
مَتَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا

(١). أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ برقم ٢٠٨٢

رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
 إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خِفْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

معاني المفردات

يؤذن لكم : أى تدعوا إلى تناول الطعام ، والأصل أن يتعدى بـ (فى) تقول : أذنت لك فى الدخول ، ولا تقول أذنت لك إلى الدخول ، ولكن اللفظ لما ضمن معنى (الدعوة) عدى بـ (إلى) بدل (فى) ومعنى الآية .

لا تدخلوا بيوت النبي إلا إذا دعيتم إلى تناول الطعام .
 قال الزمخشري : ﴿ إلا أن يؤذن ﴾ فى معنى الظرف تقديره : وقت أن يؤذن لكم . ناظرين إناه : أى منتظرين نضجه ، قال فى اللسان : وإن الشئ : بلوغه وإدراكه ، وفى التنزيل ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ أى غير منتظرين نضجه وإدراكه وبلوغه ، تقول : أنى يأتى إذا نضج إلى أى نضجا ، والانى بكسر الهمزة والقصر : النضج فهو على هذا مصدر مضاف إلى الضمير .
 ويرى بعض المفسرين أنه ظرف بمعنى (حين) وهو مقلوب (آن) بمعنى (حان) فعلى الأول يكون المعنى : غير منتظرين نضجه ، وعلى الثانى يكون المعنى : غير منتظرين وقته أى وقت إدراكه ونضجه ، وهما متقاربان .

فانتشروا : أى أخرجوا وتفرقوا ، يقال انتشر القوم : أى تفرقوا ومنه قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ ^(١) أى تفرقوا فى الأرض لطلب الرزق والكسب .
 مستأنسين لحديث : معنى الاستئناس : طلب الأناس بالحديث لأن السين والتاء للطلب تقول : أستأنس بالحديث : أى طلب الأناس والطمانينة والسرور به . وتقول : ما بالدار أنيس ، أى ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ، وقد كان من عادة الناس أنهم يجلسون بعد الأكل فيتحدثون طويلا ، ويأنسون بحديث بعضهم بعضا فعلمهم الله الأدب ، وهو أن يتفرقوا بعد تناول الطعام . ولا يثقلوا على أهل البيت ، لأن المكث بعده فيه نوع من الاثقال .

إن ذلكم : اسم الإشارة راجع إلى الدخول بغير إذن . والمكث عقب الطعام للاستئناس بالحديث . وقيل : هو راجع إلى الأخير خاصة ، ومعنى الآية : إن انتظاركم واستئناسكم يؤذى النبى . .

فيستحيى منكم : أى يستحيى من اخراجكم من بيته ، والله لا يستحيى من بيان الحق فهو على حذف مضاف .

متاعا : المتاع : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ، وهو فى اللغة : ما يستمتع به حسيا كان كالثوب والقدر والماعون . أو معنويا كمعرفة الأحكام الشرعية والسؤال عنها ، وقد يأتى المتاع بمعنى

التمتع بالشئ والايقاع به كما قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾^(١) وفي الحديث الشريف : (الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة)^(٢) .

حجابها : أى ساتر يستره عن النظرة قال فى اللسان : حجب الشئ يحجبه أى ستره ، وقد احتجب وتحجب إذا اكن من وراء حجاب . وامرأة محجوبة قد سترت بستر ، والحجاب : اسم ما احتجب به .

وكل ما حال بين شيئين فهو حجاب . قال تعالى : ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾^(٣) ومعنى الآية : إذا سألتموهن شيئا مما يستمتع به ويتنفع فاسألوهن من وراء ستر وحجاب أظهر : أى أسلم وأتقى . أفعّل تفضيل من الطهارة بمعنى النزاهة والنقاء . والمعنى : سؤالكم للسؤال من وراء حجاب ، أكثر نقاء وتنزيها لقلوبكم وقلوبهن من الهواجس والخواطر ، التى تتولد فيها عند اختلاط الرجال بالنساء ، وأبعد عن الريبة وسوء الظن .

أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يتأدبوا بالآداب الاسلامية الكريمة ، ويتمسكوا بما شرعه لهم من التوجيهات والارشادات الحكيمة ، التى بها صلاح دينهم ودنياهم ، وخاصة مع النبى ﷺ ، فمقام النبوة لا يعادله مقام ، وإيذاء النبى ﷺ - سواء كان بالقول أو الفعل - من أعظم الكبائر عند الله ، وقد ألزمتنا الله سبحانه بتلك الآداب الفاضلة ، وأمرنا بالتمسك بها حتى يتحقق المجتمع الفاضل الذى ينشده الاسلام . وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أمرين هامين .

الأول : الأدب فى أمر الطعام والاستئذان ودخول البيوت (أدب الوليمة)

الثانى : الأدب فى مخاطبة النساء ، وعدم الاختلاط بهن أو الخلوة .

أدب (الحجاب الشرعى)

يقول الله جل ثناؤه مامعناه : يا أيها المؤمنون لا تدخلوا بيوت النبى إلا بعد الاذن ولا تترقبوا أوقات الطعام فتدخلوا عليه فيها ، أو تنتظروا إلى أن يحين وقت نضج الطعام فتستأذنوا عليه فى الدخول ، إلا إذا كنتم مدعوين إلى وليمة قد أعدها لكم رسول الله (ﷺ) . ومع ذلك إذا دعيتم وطعمتم فاخرجوا وتفرقوا ولا تثقلوا على الرسول الكريم بالجلوس بعد الطعام ، فإن حيائه يمنعه أن يأمركم بالانصراف . أو يظهر لكم الامتعاض من جلوسكم فى بيته ، فهو ذو الخلق الرفيع ، والقلب الرحيم ، لا يصدر منه إلا ما يسركم . فلا يليق بكم أن تثقلوا عليه ، أو تؤذوه فى نفسه أو أهله ، وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات ، فاسألوهن من وراء حاجز وحجاب ، لأن ذلكم أزكى لقلوبكم وقلوبهن ، وأنفى للريبة ، وأبعد عن التهمة وأظهر لبيت النبوة .

ولا يليق بكم أيها المؤمنون أن تؤذوا رسولكم ، الذى هداكم الله به وأخرجكم من الظلمات إلى

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ الحديد آية ٢٠

(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١٠٩٠ برقم ١٤٦٧/٦٤

(٣) سورة فصلت آية ٥

النور ، فهو كالوالد لكم ، وأزواجه كالأمهات لكم ، وهل يصح لمؤمن أن يتزوج أمه ؟ فلا تؤذوه في حياته ولا بعد مماته ، ولا تتزوجوا بأزواجه من بعده أبدا ، فإن إيذاء الرسول ، ونكاح أزواجه من بعد وفاته ، ذنب عظيم عند الله لا يغفره الله لكم أبدا ، وهو عند الله بالغ الذنب والعقوبة .

سبب النزول

تعرضت الآية الكريمة لأمرين هامين هما : (آداب الدعوة) و (مشروعية الحجاب) ولكل منهما سبب نزول .

أما الأول : فقد روى البخارى ومسلم في صحيحهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله فصنعت (أم سليم) أمى حيسا فجعلته في تور وقالت يا أنس : اذهب إلى رسول الله ﷺ فقل بعثت به إليك أمى ، وهى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا منا قليل يا رسول الله !!!

قال : فذهبت به إلى رسول الله ﷺ وقلت له : إن أمى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله . فقال : ضعه ثم قال : اذهب فادع لى فلانا وفلانا ، ومن لقيت وسمى رجالا ، فدعوت من سمى ومن لقيت ، قيل لأنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة . قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ يا أنس هات التور ، قال فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة فقال رسول الله (ﷺ) ليتخلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه . فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم .

فقال لى : يا أنس : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ؟ وجلس منهم طوائف يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وهو جالس وزوجه مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ فخرج فسلم على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب وخرجوا كلهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل وأنا جالس في الحجرة فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج على وأنزل الله هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ فخرج رسول الله ﷺ فقرأها على الناس . (١)

ثانيا : وأما بالنسبة لمشروعية الحجاب فقد كان سبب النزول ماروى في الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ الآية . وهذه إحدى الموافقات الثلاثة التى نزل القرآن الكريم فيها موافقا لرأى عمر رضى الله عنه . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (وافقت ربه في ثلاث :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، برقم ٩٠٥ والامام مسلم ج ٢ ص ١٠٥١ برقم ٩٤ /

قلت يا رسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزل : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾^(١) . وفي الحجاب : فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي (ﷺ) في الغيرة فقلت : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن)^(٢) فنزلت كذلك .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ بيوت النبي ﴾ إضافة البيوت إلى النبي (ﷺ) إضافة تشريف ، مثل (ناقة الله) و (بيت الله) الإضافة فيها للتكريم والتشريف فليوت النبي (ﷺ) من الحرمة مالم يس لغيرها من البيوت ، وهذه الأحكام المذكورة هنا خاصة ببيوت النبي (ﷺ) تكريما له عليه السلام وتشريفا .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام ﴾ في الكلام باء محذوفة تسمى (باء المصاحبة) أى إلا بأن يؤذن لكم ، وتضمن (الاذن) معنى (الدعوة) للاشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن وجد صريح الاذن بالدخول ، حتى لا يكون الانسان (طفيليا) يحضر الوليمة بدون سابق دعوة .

ومما يدل على هذا التضمن قوله تعالى بعدها : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ فإنها صريحة في أن المراد بالاذن (الدعوة) فتنبه لهذا السر فإنه دقيق .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ قال الامام الرازى : (فيه لطيفة وهى أن فى العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن : لا تدخلها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء ، فقال : لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون ، بل كونوا طائعين سامعين ، إذا قيل لكم : لا تدخلوا فلا تدخلوا ، وإذا قيل لكم : ادخلوا فادخلوا ، وهذا معنى لطيف .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق . فالأمر أمر وليمة وقد انتهت .

ولم يبق إلا أن يفرع أهل البيت لبعض شأنهم . والبقاء بعد ذلك فيه نوع من الاثقال غير محمود .

قال بعض العلماء : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، وقرأها بعضهم فقال : (هذا أدب من الله تعالى أدب به الثقلاء) ويروى عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما : (حسبك فى الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم) وأنشد بعض الفضلاء :

(١) سورة البقرة آية ١٢٥

(٢) التحريم آية ٥

ومن شدة العذاب الأليم
سواء عقوبة للجحيم

وثقيل أشد من ثقل الموت
لو عصت ربها الجحيم لما كان

وقال آخر :

خفيفا في كفة الميزان
ثقيل أربى على سهلان
حملت فوقها أبا سفيان

ربما يثقل الجليس ولو كان
ولقد قلت حين وتد في البيت
كيف لم تحمل الأمانة أرض

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ﴾ الاستحياء لا يكون من الذات ، وإنما يكون من الأفعال ، بدليل قوله تعالى : ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ ولم يقل : والله لا يستحي منكم والكلام فيه حذف تقديره : فيستحي من إخراجكم أو من أمركم بالانصراف والله لا يستحي من بيان الحق ، وأطلق استحياء الله وأراد منه عدم السكوت عن بيانه ، فسمى السكوت عليه استحياء على (طريق المشاكلة) لوقوعه بجانب استحياء الرسول على حد قول القائل :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم ﴾ فيه إشارة دقيقة إلى ما بين العين والقلب من صلة وثيقة ، فالعين طريق الهوى والنظرة بريد الشهوة ، فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب ، وكما قال بعض الأدباء :

وما الحب إلا نظرة إثر نظرة تزيد نموا إن تزده لجاجا .

فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر .

اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ الإشارة في قوله (ذلكم) يعود إلى ما ذكر من إيدائه عليه الصلاة والسلام ، ونكاح أزواجه من بعده ، وقد جاء التعبير بلفظ (ذلكم) ولم يأت بلفظ (هذا) للتهويل والتعظيم .

قال أبو السعود :

وما فيه من معنى البعد للايدان ببعد منزلته في الشر والفساد ، وقوله : ﴿ كان عند الله عظيما ﴾ أى أمرا عظيما . وخطبا هائلا ، لا يقادر قدره ، وفيه من تعظيمه تعالى بشأن رسوله ﷺ ، وإيجاب حرمة حيا وميتا مالا يخفى ، ولذلك بالغ تعالى في الوعيد .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز تناول الطعام بدون دعوة ؟ اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز دخول البيوت إلا بإذن ، ولا يجوز تناول طعام الانسان إلا بإذن صريح أو ضمنى ، لقول عليه السلام : (لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس)^(١)

وقد دلت الآية الكريمة على حرمة دخول بيوت النبي ﷺ إلا بعد الاذن ، وعلى حرمة التطفل ، وهو أن يحضر إلى الوليمة بدون دعوة وفاعله يسمى بـ (الطفيل) والحكم عام في جميع البيوت ، فلا يجوز للانسان أن يدخل بيت أحد بدون إذنه ، ولا أن يتناول الطعام بدون رضا صاحبه . وهذا أدب رفيع من الآداب الاجتماعية ، التى أرشد إليها الاسلام .

قال ابن عباس : كان ناس يتحينون طعامه عليه الصلاة والسلام ، فيدخلون عليه قبل الطعام ، وينتظرون الى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، فكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم ، فنزلت هذه الآية .

وقال ابن كثير رحمه الله :

حظر الله تعالى على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الاسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى لهذه الأمة ومعنى الآية : أى لاترقبوا الطعام إذا طبخ ، حتى اذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه ثم قال : وهذا دليل على تحريم التطفل وهو الذى تسميه العرب (الضيفن) .

الحكم الثانى : هل الجلوس بعد تناول طعام الوليمة حرام ؟

دل قوله تعالى : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ على ضرورة الخروج بعد تناول الطعام ، وهذا من الآداب الاسلامية التى أدب الله بها المؤمنين .

فالمكث والجلوس بعد تناول الطعام ، ليس بحرام ولكنه مخالف لآداب الاسلام ، لما فيه من الاثقال على أهل المنزل ، سيما إذا كانت الدار ليس فيها سوى بيت واحد ، اللهم إلا اذا كان الجلوس بإذن صاحب الدار أو أمره ، أو كان جلوسا يسيرا تعارفه الناس ، لا يصل إلى حد الأثقال المذموم

ومع ذلك فالأفضل الخروج ، ولهذا جاء التعبير بالفاء ، التى تفيد الترتيب والتعقيب (فانتشروا) فالمكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، ولم يبق إلا أن يفرغ أهل البيت لبعض شأنهم ، والبقاء بعد ذلك نوع من الأثقال غير محمود ، ، يتنافى مع الأدب الرفيع ، والذوق السليم .

الحكم الثالث : هل الأمر بالحجاب خاص بأزواج النبي أو هو عام ؟

الآيات الكريمة وردت فى شأت بيوت النبي ﷺ خاصة ، تعظيما لرسول الله وتكريما لشأنه ، ولكن الأحكام التى فيها عامة ، تعم جميع المؤمنين ، لأنها آداب اجتماعية ، وإرشادات إلهية ، يستوى

(١) أخرجه الامام أحمد ج ٥ ص ٧٢

فيها جميع الناس ، فالأمر بعدم الاختلاط بالنساء وبسؤالهن من وراء حجاب ، ليس مقصورا على أزواج الرسول ﷺ ولكنه عام يشمل جميع نساء المؤمنين ، فإذا كان نساء الرسول ﷺ لا يجوز الاختلاط بهن ، ولا النظر إليهن ، مع أنهن ﴿ أمهات المؤمنين ﴾ يحرم الزواج بهن ، ولا يجوز سؤالهن الا من وراء حجاب ، فلا شك أن الاختلاط بغيرهن من النساء ، أو التحدث إليهن بدون حجاب ، يكون حراما من باب أولى ، لأن الفتنة بالنساء متحققة .

ثم أن أمر الحجاب ليس خاصا بأزواج الرسول ﷺ ، بل هو عام لجميع نساء المؤمنين ، بدليل قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾

فهل خرجت مؤمنة من هذا الخطاب ؟ وهل أمر الحجاب خاص بنساء الرسول حتى يزعم بعض المضلين ، أن الحجاب مفروض على نساء الرسول ﷺ خاصة دون سائر النساء ؟
الحكم الرابع : هل الطعام المقدم للضيف على وجه التمليك أو الإباحة ؟
أشارت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ الى أن الطعام الذي يقدم للضيف ، لا يكون على وجه التمليك ، وإنما هو على وجه الإباحة ، فلو أراد الضيف أن يحمل معه الطعام الى بيته ، لا يجوز له ذلك ، لأن المضيف إنما أباح له الأكل فقط ، دون التمليك له أو أخذه أو إعطائه لأحد .

قال العلامة القرطبي : (في هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقي الملك على أصله

الحكم الخامس : هل زال النكاح عن أمهات المؤمنين بموت النبي ﷺ ؟
قال القرطبي : في تفسيره الجامع لأحكام القرآن : اختلف العلماء في أزواج النبي ﷺ بعد موته ، هل بقين أزواجا أو زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت ، فهل عليهن عدة أو لا ؟
ف قيل : عليهن العدة ، لأنه توفي عنهن والعدة عبادة .
وقيل : لأعدة عليهن ، لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة .

والقول الثاني هو الصحيح لقوله عليه السلام (ماتركت بعد نفقة عيالي) وروى (أهلي)^(١) وهذا اسم خاص بالزوجية فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن ، لكونهن نساء وحرمن على غيره ، وهذا هو معنى بقاء النكاح ، وإنما جعل الموت في حقه عليه السلام بمنزلة المغيب في حق غيره ، لكونهن أزواجا له في الآخرة قطعا ، بخلاف سائر الناس ، لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة ، فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار ، فبهذا انقطع السبب في حق الخلق ، وبقي في حق النبي ﷺ ، وقد قال عليه السلام : (كل سبب ونسب ينقطع الاسبي ونسبي فإنه باق إلى يوم القيامة)^(٢)

(١) القرطبي ج ٨ ص ١٧٨ ، ج ١٤ ص ٢٢٩

(٢) كنز العمال ج ١١ ص ٤٠٩ برقم ١٣٩١٤ .

فأما زواجه عليه السلام اللاتى فارقهن فى حياته ، مثل الكلبية وغيرها .
 فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ؛ لما روى أن الكلبية التى
 فارقها رسول الله ﷺ تزوجها (عكرمة بن أبى جهل)
 وقيل إن الذى تزوجها (الاشعث بن أبى جهل)
 قال القاضى أبو الطيب : الذى تزوجها (مهاجر بن أبى أمية) ولم ينكر ذلك أحد ، فدل على أنه
 إجماع .

ماترشد إليه الآيات الكريمة

- (١) النهى عن دخول بيوت الرسول ﷺ بغير اذنه وبدون سابق دعوة .
- (٢) لا ينبغي الحضور قبل نضج الطعام ، ولا المكث بعد تناول الوليمة .
- (٣) وجوب احترام الرسول ﷺ ، وتعظيمه ، وامثال أوامره ، وتقديم طاعته . على كل
 شئ .
- (٤) حرمة إيذاء الرسول ﷺ بالأقوال أو الأفعال ، والتأدب معه فى جميع الأقوال .
- (٥) حرمة نكاح أمهات المؤمنين من بعد وفاته ، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ .
- (٦) خلق الرسول الرفيع يمنعه من أمر الناس بالخروج من منزله ، فينبغى عدم الاثقال عليه .
- (٧) نساء الرسول ﷺ ، هن القدوة والاسوة الحسنة لسائر النساء ، فينبغى مخاطبتهن من وراء
 حجاب .
- (٨) فى عدم الاختلاط بالنساء ، صفاء النفس ، وسلامة القلب ، ونقاء السريرة ، والبعد عن
 مظان التهم .
- (ج) الآداب التى أرشد إليها القرآن ، ينبغى التمسك بها وتطبيقها تطبيقاً كاملاً .

حكمة التشريع

حرم الله تعالى على المؤمنين دخول بيوت النبى ﷺ بدون إذن ، تكريماً لرسول الله عليه السلام
 وتعظيماً لشأنه ، ومنع الناس من الاثقال على رسول الله ﷺ ، سواء بالدخول الى بيوته دون سابق
 دعوة ، أو المكث فيه بعد تناول طعام الوليمة ، لأن فى ذلك إثقالاً على الرسول الكريم ، وإيذاء له
 والتطفل ، والاثقال على أهل الدار ، ليس من أوصاف المؤمنين ، وقد كان رسول الله ﷺ شديد
 الحياء ، وكان كما فى حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه .
 (أشد حياء من العذراء فى خدرها^(١)) ولم يكن من خلقه الكريم ، ان يجابه أحداً بما يكره ، مهما

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٦١١ برقم ١٤٩٩ من رواية أبى سعيد الخدرى ، زوائد البزار عن أنس
 ج ٣ ص ١٥٣

أصابه الأذى والضرر ، ولا من عادته أن يأمر الزائر بالانصراف ، مهما طال المكث والبقاء ، لأن هذا لا يتفق مع خلق الداعية ، فكيف بخلق النبوة وأوصاف سيد المرسلين ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾^(١) .

وكان بعض الناس ممن لم تتهدب أخلاقهم بعده ، يتحينون طعام النبي ﷺ ، فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن ينضج ، ثم يأكلون ، ولا يخرجون ، فكان الناس بحاجة إلى أن يتعلموا الآداب الرفيعة ، وأن يكون عندهم (ذوق اجتماعي) وشعور رقيق ، يمنعهم عن ارتكاب النقائص ، وفعل ما يخل بالمروءة .

لذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات الكريمة تعليما للأمة ، وإرشادا لها إلى سلوك الطريق القويم ، وقد قال اسماعيل بن أبي حكيم : (هذا أدب أدب الله به الثقلاء) وقال آخر : هذه الآية نزلت في الثقلاء وحسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

ولقد كان هناك من بعض المنافقين إيذاء لرسول الله ﷺ بالفعل أو القول ، حتى قال رجل من المنافقين حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد وفاة زوجها أبي سلمة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قدمنا ، لأجلنا السهام على نسائه يريد اقتسمناهن بالقرعة ، فنزلت الآية في هذا ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لمن حكم الأمهات تطيبا لخاطره الشريف ، وهذا من خصائصه عليه السلام تميزا ، لشرفه ، وتنبيها على مرتبته ، وما كان لمؤمن أن يؤذي في نفسه ، أو أهله ، لأنه عليه الصلاة والسلام أب للمؤمنين ، وهل يليق بالإنسان أن يتزوج امرأة أبيه ، وهي أمه ينص القرآن الكريم وصدق الله .

﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ قوله تعالى : ﴿ ان تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما ﴾ هذه مبالغة في الوعيد والتهديد . أي أن ماتكنه ضمائركم ، وتنطوى عليه سرائركم ، فالله يعلمه ، إذ لا تخفى عليه خافية ، ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(٢) ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية ، والكلام ، وإن كان عاما بظاهره ، فالمقصود ما يتعلق بزواجه عليه الصلاة والسلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب ، قال رجل : أنهي أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجن نساءه .

وأخرج جوير عن ابن عباس (أن رجلا أتى بعض أزواج النبي فكلما هو ابن عمها ، فقال النبي ﷺ : لا تقومين هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يارسول الله إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكرا ، ولا قالت لي قال النبي ﷺ :

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة غافر آية ١٩

قد عرفت ذلك : أنه ليس أحد أغير من الله تعالى - وانه ليس أحد أغير مني فمضى ثم قال : ما يمنعني من كلام ابنة عمي لاتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية فأعتق الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله وحج ماشيا لأجل كلمته)

وروى ان بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبي سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِ آبَائِهِنَّ وَلَا مَمْلَكَتٍ أَيْمَنُوهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٦ ﴾

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ان نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب ، أردف ذلك استثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما في الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى انه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت .

التفسير

لا إثم على أزواج النبي ﷺ في ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع ، أو أبنائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن ، أو أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والمبعدة ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد ، لما في الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

وأخشين الله في السر والعلن ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازي على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة أن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملتكم فاتقوه فيما تأتون وما تدرن .

الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦ ﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٤﴾

معاني المفردات

يصلون : الصلاة في اللغة معناها : الدعاء والاستغفار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾^(١) . أى ادع لهم بالمغفرة والرحمة ، قال الأعشى :

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى * * * نوما ، فإن لجنب المرء مضطجعا

أى لك من الدعاء مثل ما دعوت لى به .

وسميت الصلاة المفروضة صلاة ، لما فيها من الدعاء والاستغفار ، وتأتى الصلاة بمعنى الرحمة ، ومنه قوله (ﷺ) : (اللهم صل على آل أبى أوفى)^(٢) .

قال الأزهري : هى بمعنى الرحمة . أى ارحم آل أبى أوفى ، وقال الشاعر :

صل على عزة الرحمن وابتها * * * ليل وصل على جارتها الآخر

قال ابن عباس : (أراد أن الله تعالى يرحمه ، والملائكة يدعون له ويبركون وقال أبو العالية : « صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاتهم دعاؤهم له) .

النبى : قال الجوهري : والنبى المخبر عن الله عز وجل ، لأنه أنبأ عنه وجمعه أنبياء ، وفى النهاية : يجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه .

قال سيبويه : ليس أحد من العرب إلا ويقول : تنبأ مسيلمة بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز فى النبى ، كما تركوه فى الذرية والبرية ، إلا أهل مكة ، فإنهم يهمزون هذه الأحرف ، ثم قال : والهمز فى (النبى) لغة رديئة ، وإشتقاقه من نبا وأنبا أى أخبر .

وجمع النبىء : انبياء ونباء .

قال ابن مرداس :

يا خاتم النبأ إنك مرسل
بالخير كل هدى السبيل هداكا
إن الإله أثنى عليك محبة
فى خلقه ومحمدا أسماكا

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٢) أخرجه الامام مسلم ج ٢ ص ٢٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ كتاب الزكاة والامام أحمد ح ٤ ص ٣٥٣ .

أقول : كل ماورد فى القرآن من خطاب للنبي أو الرسول ، فإنما يقصد به محمد عليه الصلاة والسلام ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين يؤذون الله : إيذاء الله : وصفه بمالا يليق به جل وعلا كقول اليهود : ﴿ يد الله مغلولة ﴾^(١) . ، و﴿ عزيز ابن الله ﴾^(٢) ، وقول النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾^(٣) . ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾^(٤) . وقول كفار قريش : الملائكة بنات الله ، وسائر مالا يرضى الله عز وجل من الكفر والعصيان .

وإيذاء الرسول كقولهم عنه : مجنون ، شاعر ، ساحر ، كذاب ، أو إلحاق الأذى به ، كشج وجهه الشريف ، وكسر رباعيته فى أحد ، وأمثال ذلك من الأذى الحسى أو المعنوى ، الذى كان يلحقه به المنافقون والكفار . لعنهم الله : اللعن : الطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾^(٥) .

بهتان : الهتان : الإفتراء والكذب الواضح ، وهو من البهت بمعنى التحير . قال فى اللسان : بهت الرجل يبهته بهتان . وباهته استقبله بأمر يقذفه به وهو منه برىء . والبهتان : الباطل الذى يتحير من بطلانه . مبينا : بينا ظاهرا لأنه واضح الكذب والبهتان : تقول : بان الشيء ، وبان الأمر ، وبان الحق ، اذا ظهر جليا واتضح ، قال الشاعر .

فبان للعقل ان العلم سيده فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

وتسمى البينة بينة ، لأنها تكشف الحق وتظهره .

المعنى الإجمالى

يخبر المولى جل وعلا بما ناله الرسول الكريم ، من جاه عظيم ، ومنزلة سامية ، ومكانة رفيعة عند الله تعالى ، وماله من السيادة والمقام المحمود فى الملأ الأعلى ، وما خصه الله تعالى به من الشناء العاطر ، والذكر الحسن ، فيقول الله تعالى ما معناه : إن الله تعالى يرحم نبيه ، ويعظم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكته الأبرار ، وجنده الأطهار ، يدعون للنبي عليه السلام ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يبارك ويمجد عبده ونبيه محمدا (ﷺ) وينيله أعلى المراتب ، ويظهر دينه على جميع الأديان ، ويجزل له الأجر والثواب ، على ما قدم لأمته من خير عظيم ، وفضل جسيم ، فيأيتها المؤمنون : صلوا أنتم عليه ، وعظموا أمره ، واتبعوا شرفه ، وأكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، ومهما فعلتم فلن تؤدوه حقه ، فقد كان المنفذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، وبه أخرجكم الله من الظلمات إلى النور .

(١) سورة المائدة آية ٦٤

(٢) ، (٣) سورة التوبة آية ٣٠

(٤) سورة المائدة آية ٧٣

(٥) سورة الأحزاب آية ٦١

﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾^(١) . فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف : اللهم صل على محمد وسلم تسليما كثيرا ، وادعوا الله أن يجزيه عنكم خير الجزاء ، ثم أخبر تعالى أن الذين يؤذون الله ورسوله قد استحقوا غضب الله ولعنته ، عليهم فى دنياهم وآخرتهم ، وأن الله أعد لهم عذابا شديدا لا يدرك كنهه ولا يعرف هوله ، وكذلك الذين آذوا المؤمنين والمؤمنات ، فنسبوا إليهم مالم يفعلوه ، واتهموهم بالكذب والزور والبهتان ، وتقولوا على ألسنتهم ، مالم يقولوه ، هؤلاء الذين فعلوا ذلك لهم أيضا عذاب أليم فى الدنيا والآخرة جزاء ما اقترفوا من سوء الأعمال .

وجه الارتباط بالآيات الكريمة السابقة

فى الآيات الكريمة السابقة ، كان الحديث عن حرمة دخول بيوت النبى ، وعن حرمة نكاح أزواجه الطاهرات ، وقد بين تعالى فيها أن شأن المؤمنين ألا تكون منهم أذية للرسول عليه الصلاة والسلام ، لما له عليهم من حق عظيم ، وفى هذا تكريم وإرشاد إلى تكريمه (ﷺ) وحيطة لمقامه الشريف ، وهنا بين تعالى أن الله يكرم نبيه ، ويرحمه ويعلى شأنه ، وملائكته كذلك ، فكيف لا يكرمهم المؤمنون ، مع أن الله يصلى عليه ؟ وهو لا يستحق إلا كل تكريم وتمجيد ، فكأنه قيل لهم : لا ينبغي لكم أن تؤذوه ، فإن الله يصلى عليه وملائكته ، فهذا وجه الارتباط ، والله تعالى أعلم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون ﴾ .

ورد ذكر الشاء على الرسول (ﷺ) بهذه الصيغة ، فجاء الخبر مؤكدا بـ (إن) اهتماما به ، وجيء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وكانت الجملة إسمية فى صدرها ، ﴿ إن الله ﴾ فعلية فى عجزها ﴿ يصلون ﴾ للإشارة إلى أن هذا الشاء من الله تعالى ، والتمجيد الدائم يتجدد وقتا فوقتا على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .

اللطيفة الثانية : قد يقول قائل : اذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا عليه . نقول : الصلاة عليه ليس لحاجة إليها ، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه عليه السلام لشيئنا الله تعالى عليه ، ولهذا قال عليه السلام : (من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرا)^(٢) . فصلوات ربى وسلامه عليه .

اللطيفة الثالثة : قال الإمام الفخر : الصلاة الدعاء ، يقال فى اللغة صلى عليه : أى دعا له ،

(١) سورة الحديد آية ٩

(٢) أخرجه النسائى ج ٣ ص ٤٣

تحاف السادة المتقين ج ٣ ص ٢٨٨ الدارمى ٣١٧/٢

وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى ، فإنه لا يدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث ، والجواب : أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معا ، وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائر ، وهذا مذهب الشافعي رحمه الله ، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار ، وهما يشتركان في العناية بحال المرحوم ، والمستغفر له . والمراد هو القدر المشترك .

اللطيفة الرابعة : أمرنا الله بالصلاة على نبيه المصطفى (ﷺ) وكان يكفي أن نقول صلينا عليه ، أو يقول الإنسان : أصلى عليه ، فلماذا نقول عند الصلاة عليه : اللهم صل على محمد ؟

والجواب : أن الله لما أمرنا بالصلاة عليه ، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك ، أحلناه على الله تعالى ، وقلنا : اللهم صل أنت على محمد ، لأنك أعلم بما يليق به ، فنحن عاجزون عن توفيته حقه ، وقاصرون عن معرفة الثناء الذي يليق بقدره ، وقد أوكلنا القدر إليك فتدبر سر هذه الجملة : (اللهم صل على محمد) فإنه نفيس ودقيق .

اللطيفة الخامسة : قال بعض العلماء : معنى قولنا : اللهم صل على محمد أي عظمه في الدنيا بإعلاء ذكره ، وإظهار دعوته ، وإبقاء شريعته ، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته ، وتضعيف أجره ومثوبته ، وإعطائه المقام المحمود .

فضائل الصلاة على النبي (ﷺ)

- ١ - عن أبي طلحة رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) : (جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه ، فقلنا : إنا لنرى السرور في وجهك !! فقال : إنه أتاني الملك فقال يا محمد : إن ربك يقول : أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا)^(١) .
- ٢ - وقال (ﷺ) : (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة)^(٢) .
- ٣ - وقال (ﷺ) : (البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل عليّ)^(٣) . اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك وبركاتك . على سيد المرسلين ، وإمام المتقين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، إنك سميع مجيب الدعاء .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هي صيغة الصلاة والتسليم على النبي عليه السلام ؟

صيغة الصلاة على النبي (ﷺ) وردت فيها طرق كثيرة من السنة النبوية المطهرة ، وقد ذكرت فيها صور مختلفة عن كيفية الصلاة عليه من المؤمنين ، واختلافها يشعر بأن الغرض ليس تحديد (كيفية

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٣ ط النهضة الحديثة .

(٢) أخرجه الترمذي ج ١ ص ٣٠٢ برقم ٤٨٢ ، تحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٤٨

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٤ ط النهضة الحديثة .

الترمذي ج ٥ ص ٢١١ برقم ٣٦١٤ أبواب الدعوات احمد ج ١ ص ٢٠١ .

خاصة) وإنما هي ألوان من التعظيم والثناء له عليه السلام ، وسنقتصر على بعض ما صح من هذه الكيفيات ، لأن استيعابها يطول ، فنقول ومن الله نستمد العون .

أولاً : روى الشيخان عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله : أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ . قال : قل : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد)^(١) .

ثانياً : وروى مالك وأحمد والشيخان عن أبي حميد الساعدي رضى الله عنه أنهم قالوا يا رسول الله : كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)^(٢) .

ثالثاً : وأخرج الجماعة عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : قلنا : يا رسول الله : هذا السلام عليك قد علمناه فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : (اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم ، في العالمين ، إنك حميد مجيد)^(٣) .

رابعاً : وروى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي مسعود البدرى أنه قال : أتانا النبي (ﷺ) ونحن في مجلس (سعد بن عبادة) فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال قولوا : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم) .

وفي بعض رواياته : (اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد)^(٤) .

وأما التسليم فصيغته معروفة وهي أن يقول المؤمنون : السلام عليك يا رسول الله .

وفي التشهد يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ومعنى التسليم : الدعاء بالسلامة من جميع البلاء والآفات والأسقام ، وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم : الانقياد وعدم المخالفة أي سلموا لما يأمركم به والله أعلم .

الحكم الثاني : ما معنى صلاة الله والملائكة على النبي عليه السلام ؟

تقدم معنا أن الصلاة في اللغة تأتي بمعنى (الدعاء) وتأتي بمعنى (الرحمة) وتأتي بمعنى التمجيد

والثناء ، ومن الأخير قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾^(٥) .

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٩٥ كتاب الدعوات/ ومسلم ج ١ ص ٣٠٥ برقم ٦٦/٤٠٦ والنسائي ج ٣ ص ٤٠ وأبو داود ج ١ ص ٦٠٠ رقم ٩٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٧٨/ ومسلم ج ١ ص ٣٠٦ برقم ٦٩/٤٠٧ كتاب الصلاة وأحمد ج ٥ ص ٤٢٤/ وأبو داود ج ١ ص ٦٠٠ برقم ٩٧٩ .

(٣) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٥١ تفسير سورة الأحزاب . والنسائي ج ٣ ص ١٧٨ وأحمد ج ٣ ص ٤٧ .

(٤) أخرجه النسائي ج ٣ ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(٥) سورة البقرة آية ١٥٧ .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصلاة من الله تعالى على نبيه معناها تمجيده والثناء عليه وإلى هذا ذهب البخارى وطائفة من العلماء وهو الأظهر .

وقال آخرون : المراد بالصلاة على النبي رحمته ومغفرته وإلى هذا ذهب الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، وقيل : المراد بها البركة والكرامة . وأما صلاة الملائكة فمعناها : الدعاء له عليه السلام والاستغفار لأمته ، وعلى جميع الأقوال فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة .

ولما جاء اللفظ مجموعا مضافا إلى واو الجماعة (إن الله وملائكته يصلون على النبي) وكانت الصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة ، لذلك فقد اختلف المفسرون في تأويل الآية على أقوال : أ - فذهب بعضهم إلى أن في الآية حذفاً دل عليه السياق ، تقديره : إن الله يصل على النبي ، وملائكته يصلون على النبي ، فتكون واو الجماعة راجعة إلى الملائكة خاصة ، ويؤيد هذا قراءة الرفع (وملائكته) وليس اللفظ مشتركا بين الله تعالى والملائكة .

ب - وذهب بعضهم إلى أنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو اختيار الفخر الرازى ومذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، فعنده يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه معا ، كما يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فيكون لفظ (يصلون) عائداً إلى الله وإلى الملائكة بالمعنيين معا ويصبح معنى الآية (**﴿ إن الله تعالى يرحم نبيه وملائكته يدعون له ﴾** .

ج - وذهب جماعة إلى القول بأنه من باب (عموم المجاز) لا من باب (الجمع بين الحقيقة والمجاز) فيقدرون معنى مجازيا عاما ، ينتظم أفرادا كثيرة يشملها هذا اللفظ ، وهذا المعنى العام هو مثلا (العناية بشأن النبي) (**﴿ ﷺ ﴾**) فالاعتناء يكون من الله تعالى على وجه ويكون من الملائكة على وجه آخر ، وهذا اختيار أبى السعود وأبى حيان والزحشرى ، وغيرهم من مشاهير المفسرين .

قال أبو السعود : قوله تعالى : **﴿ يصلون على النبي ﴾** قيل : الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، وقال ابن عباس : أراد أن الله يرحمه ، والملائكة يدعون له . . . فينبغى أن يراد في **﴿ يصلون ﴾** معنى مجازى عام ، يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له ، أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ، ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ، وذلك من الله سبحانه بالرحمة ، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار .

وقال أبو حيان فى البحر المحيط : (وصلاة الله غير صلاة الملائكة فكيف اشتركا ؟ والجواب : اشتركا فى قدر مشترك وهو إرادة وصول الخير إليهم ، فالله تعالى يريد برحمته إياهم ووصول الخير إليهم ، والملائكة يريدون بالاستغفار ذلك)

الحكم الثالث : هل الصلاة على النبي (**﴿ ﷺ ﴾**) على سبيل الندب أو الفرض ؟ أمر الله سبحانه المؤمنين بالصلاة على نبيه الكريم ، وهذا الأمر للوجوب ، فتكون الصلاة على النبي (**﴿ ﷺ ﴾**) واجبة ، ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرة فى العمر ، لقد حكى (القرطبى) الإجماع على ذلك ، عملا بما يقتضيه الأمر (صلوا) من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام فى ذلك كالتلطف بكلمة التوحيد ، حيث لا يصح إسلام الإنسان إلا بالنطق بها .

وقد اختلف العلماء فى حكم الصلاة على النبي (**﴿ ﷺ ﴾**) هل تجب فى كل مجلس ، وكلما ذكر اسمه

الشريف ﷺ ؟ أم هي مندوبة ؟ وذلك بعد اتفاقهم على أنها واجبة في العمر مرة واحدة .
أ - فقال بعضهم : إنها واجبة كلما ذكر اسم النبي عليه السلام .

ب - وقال آخرون : تجب في المجلس مرة واحدة ولو تكرر ذكره عليه السلام في ذلك المجلس عدة مرات .

ج - وقال آخرون : يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد أو مجلس ، ولا يكفي أن تكون في العمر مرة .

وحجة القائلين بالوجوب في المجلس ، أو كلما ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن الله عز وجل أمر بها ، والأمر يفيد التكرار ، ثم ما ورد من الوعيد الشديد لمن لم يصل على رسول الله عليه السلام ، .

كقوله : (البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل على)^(١) .

وقوله عليه السلام : (ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)^(٢) .
* معنى ترة : حسرة وندامة .

وقول جبريل للنبي عليه السلام : (بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين) .
فهذه تفيد الوجوب عندهم .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبي الله ، قربة وعبادة ، كالذكر والتسبيح والتحميد .
وأنها واجبة في العمر مرة ، ومندوبة ومسنونة في كل وقت وحين ، وأنه ينبغي الإكثار منها لما صح عنه (ﷺ) انه قال :

(من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا)^(٣) . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة في فضل الصلاة على النبي عليه السلام . فهي مطلوبة ولكن لا على سبيل (الوجوب) بل على سبيل (الندب) والاستحباب .

قال العلامة أبو السعود : (والذي يقتضيه الاحتياط ويستدعيه : معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام ، أن يصل على كلما جرى ذكره الرفيع . وما ذهب اليه الجمهور هو الأصح والأرجح والله أعلم .

الحكم الرابع : هل تجب الصلاة على النبي عليه السلام في الصلاة ؟

اختلف الفقهاء في حكم الصلاة على النبي (ﷺ) في الصلاة على مذهبين :

أ - مذهب الشافعي وأحمد : أنها واجبة في الصلاة ولا تصح الصلاة بدونها .

ب - مذهب مالك وأبي حنيفة : أنها سنة مؤكدة في الصلاة ، وتصح الصلاة بدونها مع الكراهة والإساءة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٤

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ج ٥ ص ٢١١ برقم ٣٦١٤ وأحمد ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٣ ص ٤٣ تحف السادة المتقين ج ٣ ص ٢٨٨ أحمد ج ٣ ص ٢٦١ .

- أدلة الشافعية والحنابلة :

استدل الشافعية والحنابلة على أن الصلاة على النبي (ﷺ) واجبة في الصلاة بأدلة نوجزها فيما يلي :

- أ - الأمر الوارد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ والأمر يقتضي الوجوب ، ولا وجوب في غير التشهد ، فتكون الصلاة على النبي واجبة في الصلاة .
- ب - حديث كعب بن عجرة (قلنا يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ فقال : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)^(١) . الحديث قال ابن كثير رحمه الله : ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصل أن يصلى على رسول الله (ﷺ) في التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته ، وهو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، وهو مذهب الإمام أحمد ، واليه ذهب ابن مسعود وجابر بن عبد الله .

- أدلة المالكية والأحناف :

واستدل المالكية والأحناف على مذهبهم ببضعة أدلة نوجزها فيما يلي :

- أ - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ قالوا : قد تضمنت هذه الآية الأمر بالصلاة على النبي (ﷺ) وظاهره يستضي الوجوب ، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة في صلاة أو غير صلاة ، فقد أدى فرضه ، وهو مثل كلمة التوحيد والتصديق بالنبي (ﷺ) متى فعله الإنسان مرة واحدة في عمره ، فقد أدى فرضه ، والأمر يقتضي الوجوب لا التكرار .
- ب - حديث ابن مسعود حين علمه ﷺ فقال : (إذا فعلت هذا ، أو قلت هذا ، فقد تمت صلاتك ، فإن شئت أن تقوم فقم ، ثم اختر من أطيب الكلام ما شئت) ولم يأمره بالصلاة على النبي عليه السلام .
- ج - حديث معاوية السلمى وفيه أن النبي ﷺ قال : (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتهليل وقراءة القرآن)^(٢) . ولم يذكر الصلاة على النبي ﷺ .
- د - ما روى عن كثير من الصحابة أنهم كانوا يكتفون بالتشهد في الصلاة وهو : (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) ولا يوجبون الصلوات الإبراهيمية .
- قال أبو بكر الرازي : (زعم الشافعي أن الصلاة على النبي (ﷺ) فرض في الصلاة ، وهذا قول لم يسبقه إليه أحد من أهل العلم - فيما نعلمه - وهو خلاف الآثار الواردة عن النبي (ﷺ) لفرضها في الصلاة) .
- الحكم الخامس : هل تجوز الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ يرى بعض العلماء أن الصلاة تجوز على غير الأنبياء ، لأن الصلاة معناها الدعاء ، والدعاء يجوز للأنبياء ولغير الأنبياء .

(١) أخرجه : البخارى ج ٤ ص ١٧٨ الترمذى ج ١ ص ٣٨١ برقم ٤٨٤
(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ج ١ ص ٣٨١، ٣٨٢ برقم ٥٣٧/٣٣

واستدلوا بما ورد عنه ﷺ من قوله : (اللهم صل على آل أبي أوفى)^(١) .
 وذهب الأكثرون إلى أن الصلاة (شعار) وهى خاصة بالأنبياء ، فلا تجوز لغيرهم فلا يصح أن
 تقف : اللهم صل على الشافعى مثلاً أو على أبى حنيفة ، وإنما تترحم عليهما ، ويجوز الترضى عن
 الصحابة والتابعين ولا تجوز الصلاة عليهم لأنها شعار الأنبياء والمرسلين .
 قال العلامة أبو السعود : (وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعاً ،
 وتكره استقلالاً . لأنه فى العرف شعار ذكر الرسل . ولذلك لا يجوز أن يقال : (محمد عز وجل) مع
 كونه ﷺ عزيزاً جليلاً .

والمراد بقوله أن تقول مثلاً : اللهم صل على محمد وآله وذريته وأتباعه المؤمنين فلا يصح أن
 تقول : اللهم صلى على ذرية محمد ، ولا اللهم صل على أزواج محمد ، وإنما اذا صليت على الرسول
 يجوز لك أن تضيف تبعاً من شئت من عباد الله الصالحين . والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- (١) منصب النبوة منصب عظيم ، ومكانة الرسول مكانة عظيمة عند الله تعالى .
- (٢) ثناء الله عز وجل على نبيه الكريم وثناء الملائكة الأطهار مظهر من مظاهر رفعة الرسالة .
- (٣) احترام الرسول وتعظيم أمره واجب على المؤمنين ، لأنه من تعظيم أمر الله وطاعته جل وعلا .
- (٤) الصلاة على الرسول ﷺ ينبغى أن تكون بالصيغة الشرعية : (اللهم صل على محمد) إلخ .
- (٥) يندب للمسلم أن يصلى على الرسول (ﷺ) كلما ذكر اسمه الشريف ﷺ امتثالاً للأمر الإلهى .
- (٦) إيذاء الرسول ﷺ إيذاء لله تعالى ، وهو سبب لسخط الله وغضبه .
- (٧) إيذاء المؤمنين واتهامهم بما ليس فيهم من الكبائر التى ينبغى أن يتعد عنها المسلم .

خاتمة البحث :

مجد الله رسوله (ﷺ) وأثنى عليه الثناء العاطر ، ورفع مكانته على جميع الأنبياء والمرسلين ،
 وأحله المحل الرفيع الذى يليق بمنزلته السامية ، ومرتبته العالية ، وأمر المؤمنين بالتأدب مع الرسول
 الكريم ، وبتعظيم أمره ، وتمجيد شأنه ، وصلى عليه فى الملأ الأعلى مع الملائكة الأطهار ، وكل ذلك
 ليعلم المؤمنين مكانة هذا النبى العظيم ، ليجلوه ويحترموا ، ويطيعوا أمره ، لأنه سبب سعادتهم
 وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾^(٢) .
 وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالصلاة على الرسول الكريم ، وجعل ذلك فرضاً لازماً لا
 يتم إيمان بدونه ، وحرم إيذاءه بالقول أو بالفعل ، ونهى عن كل ما يمس مقامه الشريف من إساءة أو

(١) أخرجه مسلم ج ٢ ص ٧٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ . والامام احمد ج ٤ ص ٣٥٣ .

(٢) سورة الفتح آية ٩

عدوان ، وجعل ذلك إيذاء له تعالى ، لأن فى تكذيبه ﷺ تكذيباً لله تعالى ، وفى الاستهزاء بدعوته ، استهزاء بالله تعالى ، لأنه رسول رب العالمين ، فيجب أن يطاع فى كل أمر ، وأن يحترم قوله ، لأنه مبلغ من عند الله وصدق الله حيث يقول : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (١) .

وقد حكم الله جل وعلا باللعنة والغضب على من آذى الرسول عليه السلام ، لأنه كفران للنعمة ، وجحود للفضل الذى أسداه الرسول ﷺ لأمته ، وكيف يليق بالمؤمن أن يؤذى رسول الله ، مع أنه صلوات الله عليه سبب لإنقاذنا من الضلالة ، وإخراجنا من الظلمات إلى النور ؟! وهو باب الرحمة الإلهية ، ومظهر الفضل والإحسان والجود ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (٢) . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين . وصدق من قال :

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه ، فما مقدار ما تمدح الورى ؟

حجاب المرأة المسلمة

قال الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٥٩ ﴾

معانى المفردات

أزواجك : المراد بكلمة الأزواج (أمهات المؤمنين) الطاهرات رضوان الله عليهن ، ولفظ الزوج فى اللغة يطلق على الذكر والأنثى ، قال تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ (٣) . ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (٤) . وإطلاق لفظ (الزوجة) صحيح ولكنه خلاف الأفصح وأنكر الأصمعى لفظ (زوجة) بالهاء .

وقال : هى زوج لا غير . واحتج بأنه لم يرد فى القرآن إلا بدون هاء ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ (٥) . والصحيح أنه خلاف الأفصح وليس بخطأ قال الفرزدق :

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى كساع الى أسد الثرى يستيلها
وفى حديث عمار بن ياسر قوله عن السيدة عائشة : (والله انى لأعلم انها زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعونه أم تطيعونها) .

(١) سورة النساء آية ٨٠

(٢) سورة التوبة آية ١٢٨

(٣) البقرة آية ٣٥ والأعراف آية ١٩

(٤) الأعراف آية ١٨٩

(٥) الأحزاب آية ٣٧

يدنين : أي يسدلن ويرخين . وأصل الإدناء التقريب .
يقال للمرأة اذا زل الثوب عن وجهها أدن ثوبك على وجهك . والمراد في الآية الكريمة يغطين وجوههن وأبدانهن ليميزن عن الإماء والقينات .
ولما كان متضمنا معنى الإرخاء والسدل عدى بعلی (يدنين عليهن) .
جلايبهن : جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن .
قال الشهاب هو ازار يلتحف به . وقيل هو الملحفة وكل ما يغطي سائر البدن . قال في لسان العرب : الجلباب ثوب أوسع من الخمار دون الرداء ، تغطي به المرأة رأسها وصدرها ، وقيل هو الملحفة .
قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلا لها :

مشى العذارى عليهن الجلايب

تمشى النسور إليه وهي لاهية

وقيل جلباب المرأة : ملاءتها التي تستمل بها واحدا جلباب والجماعة جلايب وانشدوا . مجلبب من سواد الليل جلبابا .
وفي الجلالين : الجلايب جمع جلباب ، وهي الملاءة التي تستمل بها المرأة .
قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلايب ، إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر .
والخلاصة فإن الجلباب هو الذي يستر جميع بدن المرأة ، وهو يشبه الملحفة المعروفة في زماننا نسأله تعالى الستر والسلامة .
أدنى : افعل تفضيل بمعنى أقرب من الدنو بمعنى القرب ، يقال أدنانى منه أى قربنى منه .
وقوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾^(١) . أى قريبة المنال وتأى كلمة (أدنى) بمعنى أقل وقد جمع المعنيان في قول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان

غفورا : أى ساترا للذنوب ، ماحيا للآثام ، يغفر لمن تاب وأناب ، ما فرط منه ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم إهتدى ﴾^(٢) .
رحيما يرحم عباده ويلطف بهم ومن رحمته تعالى انه لم يكلفهم مالا يطيقون .
المعنى الاجمالى :

يأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن يوجه النداء إلى الأمة الاسلامية جمعاء ، بأن تعمل على

(١) سورة الحاقة ٢٣

(٢) سورة طه آية ٨٢

التمسك بآداب الاسلام ، وإرشاداته الفاضلة ، ونظمه الحكيمة ، التي بها صلاح الفرد ، وسعادة المجتمع ، وخاصة في أمر اجتماعي هام ، يتعلق بالأسرة المسلمة ، ألا وهو (الحجاب الشرعي) الذي فرضه الله على المرأة المسلمة ، ليصون لها كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النفوس المريضة ، والنوايا الخبيثة ، التي يكنها الفساق من الرجال للنساء غير المحتشمت ، فيقول الله تعالى ما معناه :
يا أيها النبي بلغ أوامر الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، وابدأ بنفسك ، فمر زوجاتك أمهات المؤمنين الطاهرات ، وبناتك الفضليات الكريمات ، ان يرتدين الجلباب الشرعي ، وأن يحتجبن عن أنظار الرجال ، ليكن قدوة لسائر النساء في التعفف والتستر والاحتشام ، حتى لا يطمع فيهن فاسق أو ينال من كرامتهن فاجر ، وأمر سائر نساء المؤمنين ، أن يلبسن الجلباب السابغ ، الذي يستر محاسنهن وزينتهن ، ويرفع عنهن ألسنة السوء ، وأمرهن كذلك أن يغطين وجوههن ، وأجسامهن بجلابيبن ، ليميزن عن الاماء والقينات ، فلا يكن هدفا للمغرضين ، وليكن بعيدات عن التشبه بالفواجر ، فلا يتعرض لهن إنسان بسوء ، فذلك أقرب إلى أن يعرفن بالعفة والتصون ، فلا يطمع فيهن من في قلبه مرض ﴿ وكان الله غفورا ﴾ يغفر لمن امثل أمره ، رحيا بعباده حيث لا يشرع لهم إلا مافيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة

سبب النزول

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، أن الحرة والأمة كانتا تخرجان ليبي لقضاء الحاجة في الغيطان ، وبين النخيل من غير تمييز بين الحرائر والاماء ، وكان في المدينة فساق لا يزالون على عاداتهم في الجاهلية ، يتعرضون للاماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم يقولون حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الاماء في الزي ، فيتسترن ليحتشمن ، ويهين فلا يطمع فيهن ذوو القلوب المريضة ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك .. ﴾ الآية .

وقال ابن الجوزي : سبب نزولها أن الفساق كانوا يؤذون النساء اذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها ، وقالوا هذه حرة ، واذا رأوها بغير قناع قالوا : أمة فأذوها ، فنزلت هذه الآية . قاله السدي .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : بدأ الله تعالى بنساء النبي ﷺ وبناته في الأمر بـ (الحجاب الشرعي) وذلك للإشارة إلى أنهن قدوة لبقية النساء ، فعليهن التمسك بالآداب الشرعية ، ليقتدى بهن سائر النساء ، والدعوة لا تشر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، ومن أحق من (بيت النبوة) بالتمسك بالآداب والفضائل ، وهذا هو السر في تقديمهن في الخطاب في قوله تعالى : ﴿ قل لأزواجك وبناتك ﴾ .

اللطيفة الثانية : الأمر بالحجاب إنما جاء بعد أن استقر أمر الشريعة على وجوب (ستر العورة) فلا بد أن يكون الستر المأمور به هنا زائدا على ما يجب من ستر العورة ، ولهذا اتفقت عبارات المفسرين على اختلاف الفاظها - على أن المراد بالجلباب . الرداء الذي تستر به المرأة جميع بدنها فوق الثياب وهو ما يسمى في زماننا بـ (الملاءة) أي المحلفة ، وليس المراد ستر العورة كما ظن بعض الناس .

اللطيفة الثالثة

في هذا التفصيل والتوضيح ﴿ أزواجك .. بناتك .. نساء المؤمنين ﴾ رد صريح على الذين يزعمون أن الحجاب انما فرض على أزواج النبي ﷺ خاصة .
فإن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يدل دلالة قاطعة ، على أن جميع نساء المؤمنين مكلفات بالحجاب ، وأنهن داخلات في هذا الخطاب العام الشامل ، فكيف يزعمون أن الحجاب لم يفرض على المرأة المسلمة ؟!

اللطيفة الرابعة :

أمر الحرائر بالتستر ، ليميزن عن الاماء ، قد يفهم منه ان الشارع أهمل أمر إيماء ، ولم يبال بما ينالهن من الايذاء ، وتعرض الفساق لهن فكيل يتفق هذا مع حرص الاسلام على طهارة المجتمع ؟
الجواب :

ان الاماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن في الأسواق ، لقضاء الحاجات وخدمة سادتهن ، فاذا كلفن بلبس الحجاب السابغ كلما خرجن كان في ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر ، لأنهن مأمورات بالاستقرار في البيوت ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾^(١) . وعدم الخروج الا عند الحاجة ، فلم يكن عليهن من الحرج والمشقة في التستر ما على الاماء ، وقد وردت الآية السابقة ﴿ ان الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ وهى تتوعد المؤذين بالعذاب الأليم ، وهذا يشمل الحرائر والاماء .

اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ فيه ذكر للعله أى (الحكمة) التى فرض من أجلها الحجاب والاحكام الشرعية كلها مشروعة لحكمة وجمهور المفسرين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ أن يعرفن ﴾ أى يعرفن أنهن حرائر ويميزن عن الإماء ، وقد اختار (أبو حيان) وجها آخر غير الوجه الذى سلكه الجمهور ، فجعل الأمر بالحجاب موجها الى جميع النساء سواء منهن (الحرائر والاماء) .
وفسر قوله تعالى ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد .

وليك نص كلامه كما فى البحر المحيط :

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يشمل الحرائر والاماء ، والفتنة بالاماء أكثر ، لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .
وقوله : ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة اذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها ، بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها وهو رأى تبدو عليه مخايل الجودة والدقة فى الاستنباط .

وما اختاره أبو حيان ، هو الذى نختاره لأنه يحقق غرض الاسلام فى التستر والصيانة . والله أعلم .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل يجب الحجاب على جميع النساء ؟
يدل ظاهر الآية الكريمة على أن الحجاب مفروض على جميع المؤمنات (المكلفات شرعا) وهن :
(المسلمات . الحرائر . البالغات) لقوله تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية .

فلا يجب الحجاب على الكافرة ، لأنها لا تكلف بفروع الإسلام ، وقد امرنا ان نتركهم وما يدينون ، ولأن لحجاب عبادة ، لما فيه من امثال أمر الله عز وجل ، إذا تركته تقلدا للمجتمع الفاسد مع اعتقادها بوجوبه فهي عاصية مخالفة لتعاليم القرآن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴿^(١)

وغير المسلمة - وان لم تؤمر بالحجاب - لكنها لا تترك تفسد فى المجتمع ، وتتعرى أمام الرجل وتخرج بهذه الميوعة والانحلال الذى نراه فى زماننا ، فإن هناك (آدابا اجتماعية) يجب ان تراعى وتطبق على الجميع ، وتستوى فيها المسلمة وغير المسلمة ، حماية للمجتمع ، وذلك من السياسات الشرعية التى تجب على الحاكم المسلم .

وأما الأول فقد عرفت مافيه من أقوال للعلماء ، وقد ترجح لديك رأى العلامة (أبى حيان) فى أن الأمر بالتستر عام ، يشمل الحرائر والاماء ، وهذا ما يتفق مع روح الشريعة فى صيانة الأعراض ، وحماية المجتمع من التفسخ والانحلال الخلقى ، وأما البلوغ فهو شرط التكليف . أقول : يطلب من المسلم أن يعود بناته منذ سن العاشرة ، على ارتداء الحجاب الشرعى ، حتى لا يصعب عليهن بعد ارتداؤه ، وإن لم يكن الأمر على وجه التكليف ، وإنما هو على وجه التأديب ، قياسا على أمر الصلاة .
(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع)^(٢) .

الحكم الثانى : ما هى كيفية الحجاب ؟

أمر الله المؤمنات بالحجاب وإرتداء الجلباب ، صيانة لهن وحفظا ، وقد اختلف أهل التأويل فى كيفية هذا التستر على أقوال :

(١) الأحزاب آية ٣٣

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ج ١ ص ٣٣٤ برقم ٤٩٥

- ١ - فأخرج ابن جرير الطبري عن ابن سيرين انه قال : سألت (عبيدة السلماني) عن هذه الآية ﴿ يدين عليهن من جلابيهن ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها ، وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه ، وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر .
- ٢ - وروى ابن جرير وأبو حيان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (تلوى الجلباب فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف وان ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .
- ٣ - وروى عن السدي في كفيته انه قال : (تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين . قال أبو حيان وكذا عادة بلاد الأندلس ، لا يظهر من المرأة إلا عينا الواحدة .
- ٤ - وأخرج عبد الرازق وجماعة عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت :
- (لما نزلت هذه الآية ﴿ يدين عليهن من جلابيهن ﴾ خرج نساء الأنصار ، كان على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها)^(١) .

الحكم الثالث : هل يجب على المرأة ستروجهها ؟ تقدم معنا في سورة النور ، أن المرأة منية عن إبداء زينتها إلا للمحارم ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ﴾ الآية .

ولما كان الوجه أصل الزينة ، ومصدر الجمال والفتنة ، لذلك كان ستره ضروريا عن الاجانب ، والذين قالوا ان الوجه ليس بعورة ، اشترطوا ألا يكون عليه شيء من الزينة ، كالأصباغ والمساحيق التي توضع عادة للتجمل ، وبشرط أمن الفتنة ، فاذا لم تؤمن الفتنة فيحرم كشفه .

ومما لاشك فيه أن الفتنة في هذا الزمان غير مأمونة ، لذا نرى وجوب ستر الوجه حفاظا على كرامة المسلمة ، وقد ذكرنا بعض الحجج الشرعية على وجوب ستره في بحث (بدعة كشف الوجه) . من سورة النور ، ونزيد هنا بعض أقوال المفسرين في وجوب ستر الوجه .

(طائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستر الوجه) .

أولا : قال ابن الجوزي في قوله تعالى : ﴿ يدين عليهن من جلابيهن ﴾ أى يغطين رءوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر ، والمراد بالجلابيب : الأردية قاله ابن قتيبة .

ثانيا : وقال أبو حيان في البحر المحيط : وقوله تعالى : ﴿ يدين عليهن من جلابيهن ﴾ شامل لجميع أجسادهن ، أو المراد بقوله : ﴿ عليهن ﴾ أى على وجوههن لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه .

ثالثا : وقال أبو السعود : الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء ، تلويه المرأة على رأسها ، وتبقى منه ما ترسله على صدرها ، ومعنى الآية : أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن ، إذا برزن لداعية من الدواعي .

وعن السدي : تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين .

رابعا : وقال أبو بكر الرازي وفي هذه الآية ﴿ يدين عليهن من جلابيهن ﴾ دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبية ، وإظهار الستر والعفاف عند الخروج ، لئلا يطمع فيها أهل الريب .

خامسا : وفي تفسير الجلالين : الجلابيب جمع جلباب ، وهي الملاءة التي تشتمل بها المرأة ، قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ، ليعلم أنهن حرائر .

سادسا : وفي تفسير الطبرى : عن ابن سيرين انه قال : (سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه . وأخرج عينة اليسرى من شق وجهه الأيسر . وروى مثل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد تقدم الحديث سابقا .

فهذا وأمثاله كثير من أقوال مشاهير المفسرين ، يدل دلالة واضحة على وجوب ستر الوجه وعدم كشفه أمام الأجانب ، اللهم إلا إذا كان الرجل خاطبا ، أو كانت المرأة في حالة احرام بالحج ، فانه وقت عبادة والفتنة مأمونة ، فلا يقاس على هذه الحالة كما يفعل بعض الجهلة اليوم ، حيث يقولون : اذا جاز لها أن تكشف عن وجهها في حالة الاحرام ، فمعناها انه يجوز لها ان تكشفه في غيره من الأوقات ، لان الوجه ليس بعورة فهذا كلام من لم يفقه شريعة الاسلام .

ومن درس حياة السلف الصالح ، وما كان عليه النساء الفضليات - نساء الصحابة والتابعين - وما كان عليه المجتمع الاسلامى في عصره الذهبى من التستر ، والتحفظ ، والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون ان الوجه لا يجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة ، لأجل ان يتخلصوا من الاثم - بزعمهم - فى كتم العلم ، وما دروا انها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التدرج بالمرأة المسلمة الى التخلص من الحجاب الشرعى ، الذى عمل له الاعداء زمنا طويلا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الحكم الرابع : ماهى شروط الحجاب الشرعى ؟

يشترط فى الحجاب الشرعى بعض الشروط الضرورية وهى كالآتى : أولا : ان يكون الحجاب ساترا لجميع البدن ، لقوله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ وقد عرفت معنى (الجلباب) وهو الثوب السابغ الذى يستر البدن كله ، ومعنى (الادناء) وهو الارحاء والسدل ، فيكون الحجاب الشرعى ما ستر جميع البدن .

ثانيا : ان يكون كثيفا غير رقيق ، لأن الغرض من الحجاب الستر ، فإذا لم يكن ساترا لا يسمى حجابا ، لانه لا يمنع الرؤية ولا يحجب النظر ، وفى حديث عائشة أن (أسماء بنت أبى بكر) دخلت على رسول الله ﷺ (الحديث رواه ابو داود بسند مرسل)^(١) .

ثالثا : ألا يكون زينة فى نفسه ، أو مبهرجا ذا ألوان جذابة ، يلفت الأنظار لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ الآية ، ومعنى ﴿ ما ظهر منها ﴾ أى بدون قصد ولا تعمد ، فإذا كان فى ذاته زينة ، فلا يجوز ارتداؤه ، ولا يسمى (حجابا) لأن الحجاب هو الذى يمنع ظهور الزينة للأجانب .

رابعا : ان يكون فضفاضا غير ضيق ، ولا يشف عن البدن ، ولا يجسد العورة ، ولا يظهر أماكن

(١) أخرجه أبو داود ١٨٢/٢ ، ١٨٣ ، ترغيب ج ٣ ص ٩٥

الفتنة في الجسم ، وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ انه قال (صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضرب بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا . .) .
وفي رواية أخرى : وان ريحها ليوجد من مسير خمسمائة عام (١).

ومعنى قوله عليه السلام : (كاسيات عاريات) أى كاسيات في الصورة ، عاريات في الحقيقة ، لأنهن يلبسن ملابس لا تستر جسدا ، ولا تخفى عورة ، والغرض من اللباس الستر ، فإذا لم يستر اللباس كان صاحبه عاريا .

ومعنى قوله : (مميلات مائلات) أى مميلات لقلوب الرجال مائلات في شهيتهن ، يتبخترن بقصد الفتنة والإغراء ، ومعنى قوله : (كأسنمة البخت) أى يصففن شعورهن فوق رءوسهن ، حتى تصبح مثل سنام الجمل ، وهذا من معجزاته عليه السلام .
خامسا : ألا يكون الثوب معطرا فيه إثارة للرجال ، لقوله عليه الصلاة والسلام (كل عين نظرت زانية ، وان المرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعنى زانية) (رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح) .

وفي رواية أخرى (إن المرأة اذا استعطرت فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية) (٢) .
وعن موسى بن يسار قال : (مرت بأبي هريرة امرأة وريحها تعصف ، فقال لها : أين تريدين يا أمة الجبار ؟ قالت الى المسجد ، قال : وتطيت ؟ قالت : نعم قال : فارجعي فاغتسلي فإنى ستمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يقبل الله من امرأة صلاة ، خرجت الى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع الى بيتها فتغتسل) (٣) .

سادسا : ألا يكون الثوب فيه تشبه بالرجال ، أو مما يلبسه الرجال ، لحديث أبي هريرة : (لعن النبي ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل) (٤) . وفي الحديث (لعن الله المخشئين من الرجال ، والمترجلات من النساء) (٥) . أى المتشبهات بالرجال في أزيائهن وأشكالهن كبعض نساء هذا الزمان نسأله تعالى السلامة والحفظ .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- ١ - الحجاب مفروض على جميع نساء المؤمنين ، وهو واجب شرعى محتم .
- ٢ - بنات الرسول ونساؤه الطاهرات ، هن الأسوة والقودة لسائر النساء .
- ٣ - الجلباب الشرعى يجب أن يكون ساترا للزينة والثياب ولجميع البدن .

(١) أخرجه مسلم : ج ٣ ص ١٦٨٠ برقم ٢١٢٨/١٢٥ ترغيب ج ٣ ص ٩٥

(٢) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ١٩٤ برقم ٢٦٣٧/النسائى ٢٨٣/٢ أبو داود ١٩٢/٢ .

(٣) أخرجه البيهقى ١٣٣/٣ ، ٢٤٦ ترغيب ٩٤/٣ .

(٤) أخرجه أبو داود ١٨٤/٢ ابن ماجه ٥٨٨/١ احمد ٣٢٥/٢ .

(٥) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ١٩٤ برقم ٢٩٣٥ .

- ٤ - الحجاب لم يفرض على المسلمة تضييقا عليها ، وإنما تشريفا لها وتكريما .
- ٥ - في ارتداء الحجاب الشرعى صيانة للمرأة ، وحماية للمجتمع من ظهور الفساد ، وانتشار الفاحشة .
- ٦ - على المسلمة أن تتمسك بأوامر الله ، وتتأدب بالآداب الاجتماعية التى فرضها الاسلام .
- ٧ - الله رحيم بعباده ، يشرع لهم من الأحكام ما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدارين .

حكمة التشريع

قد يظن بعض الجهلة أن الحجاب لم يفرضه الاسلام على المرأة المسلمة ، وانه من العادات والتقاليد التى ظهرت فى العصر العباسى ، وهذا الظن ليس له نصيب من الصحة ، وهو وإن دل فلنما يدل على أحد أمرين .

- أ - اما الجهل الفاضح بالاسلام ويكتاب الله المبين .
 - ب - واما الغرض الدفين فى قلوب أولئك المتحللين .
- وأحب ان أكشف الستار ، لتوضيح الحقيقة ، حتى لا يلتبس الحق بالباطل ، ولا يختلط الخبيث بالطيب ، وحتى يظهر الصبح لذى عينين ، فما أكثر هؤلاء المضللين فى هذا الزمان ، الذين يزعمون انهم أرباب المدنية ودعاة التقدمية !! وما أشد خطرهم على الأخلاق والمجتمع ، لأنهم يفسدون باسم الإصلاح ، ويهدمون باسم البناء ، ويدجلون باسم الثقافة والعلم ، ويزعمون انهم مصلحون .

النصوص الواردة فى الحجاب

- ١ - يقول الله سبحانه : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ ^(١) .
- ٢ - ويقول تعالى : ﴿ وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ ^(٢) .
- ٣ - ويقول سبحانه مخاطبا نبيه العظيم ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾ ^(٣) . الآية .
- ٤ - ويقول سبحانه وتعالى أيضا : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ ^(٤) . الآية .

فمن هذه النصوص الكريمة ، نعلم أن الحجاب مفروض على المرأة المسلمة ، بنصوص فى كتاب الله قطعية الدلالة ، وليس كما يزعم المتحللون انه من العادات والتقاليد التى أوجدها العصر العباسى .. الخ فإن حبل الكذب قصير ..

(١) سورة الاحزاب آية ٣٣

(٢) سورة الاحزاب آية ٥٣

(٣) سورة الأحزاب آية ٥٩

(٤) سورة النور الآية ٣١

ومن خلال هذه الآيات الكريمة ، نلمح أن الاسلام ، إنما قصد من وراء فرض الحجاب ، أن يقطع طرق الشبهات ونزغات الشيطان أن تطوف بقلوب الرجال والنساء ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ وهدفه الأول إنما هو صون (الشرف) والمحافظة على (العفة والكرامة) ولا ننسى ان هناك كثيرا من ضعفاء القلوب ومرضى الضمائر يتربصون بالمرأة السوء ، ليهتكوا عنها ستر الفضيلة والعفاف .

ولا يشك عاقل ان تهتك النساء وخلاعتهم ، هو الذى أحدث ما يسمونه (أزمة الزواج) ذلك لأن كثيرا من الشباب قد أحجموا عن الزواج ، لأنهم أصبحوا يجدون الطريق معبدا لاشباع غرائزهم من غير تعب ولا نصب ، فهم فى غنى عن الزواج ، وهذا بلاشك يعرض البلاد الى الخراب والدمار ، وينذر بكارثة لا تبقى ولا تذر ، وليس انتشار الخيانات الزوجية وخراب البيوت إلا أثرا من آثار هذا التبرج الذميم .

يقول (الشيخ سيد سابق) فى كتابه فقه السنة :

(إن أهم ما يتميز به الانسان عن الحيوان اتخاذ الملابس ، وأدوات الزينة ، يقول الله تعالى : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ﴾ ^(١) . الآية . والملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والحضارة ، والتجرد عنها إنما هو ردة إلى الحيوانية ، وعودة الى الحياة البدائية ، وإن أعز ما تملكه المرأة الشرف ، والحياء ، والعفاف ، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة فى أسمى صورها ، وليس من صالح المرأة ، ولا من صالح المجتمع أن تتخلى المرأة عن الصيانة والاحتشام ، ولا سيما وان الغريزة الجنسية هى أعنف الغرائز ، وأشدّها على الاطلاق ^(٢) .

﴿ امنعوا الاختلاط .. وقيدوا حرية المرأة ﴾

وتحت هذا العنوان نشرت صحيفة (الجمهورية) بالقاهرة مقالا لصحفية أمريكية تدعى (هيلسيان متانسيرى) قالت هذه الكاتبة الأمريكية بعد أن مكثت شهرا فى جمهورية مصر العربية ما نصه : (ان المجتمع العربى مجتمع كامل وسليم ، ومن الخلق بهذا المجتمع ان يتمسك بتقاليده التى تقيد الفتاة والشباب فى حدود المعقول ، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبى والأمريكى ، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة ، وتحتم احترام الأب والأم ، وتحتم أكثر من ذلك عدم (الإباحية الغربية ، التى تهدد اليوم المجتمع والأسرة فى أوروبا وأمريكا) .

ان القيود التى يفرضها المجتمع العربى على الفتاة صالحة ونافعة ، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم ، وامنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية الفتاة ، بل ارجعوا الى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحية وإنطلاق ومجون أوروبا وأمريكا .

(١) سورة الاحراف آية ٢٦

(٢) فقه السنة ح ٢

امنعوا الاختلاط ، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير ، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً ، مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين ، يملأون السجون والأرصفة ، والبارات والبيوت السرية ، ان الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار ، قد جعلت منهم عصابات أحداث ، وعصابات (جيمس دين) وعصابات المخدرات والرقيق .

ان الاختلاط ، والإباحية ، والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي ، هدد الأسر وزلزل القيم والأخلاق ، فالفتاة الصغيرة - تحت سن العشرين - في المجتمع الحديث ، تخالط الشبان ، وترقص ، وتشرب الخمر ، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية . وهي تلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، بل وتتحدى والديها ، ومدرسيها والمشرفين عليها . . تتحداهم باسم الحرية والاختلاط ، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق ، تتزوج في دقائق ، وتطلق بعد ساعات ، ولا يكلفها أكثر من امضاء وعشرين قرشاً . وعريس ليلة (١) .

أقول : هذا رأى الكاتبة الأمريكية ، والفضل ما شهدت به الأعداء . . !

وصدق الله العظيم : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

﴿ من كتاب تفسير آيات الأحكام - للصابون ﴾ .

﴿ جزاء المنافقين وأحكام أخرى ﴾

قال تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا ۚ ۞ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ ۞ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۚ ۞ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۚ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ لَا يُجَدُّونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۚ ۞ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيَّتْنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۚ ۞ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ۚ ۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ۞ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ۚ ۞ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۚ ۞ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۚ ۞ يُصْلِحْ

لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾
 إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا
 وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
 وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

معاني المفردات

مرض : المراد مرض الفسوق والعصيان ، المرجفون والرجفان الاضطراب الشديد ، والمراد الملتمسون
 الفتنة المشيعون للأكاذيب والأباطيل (لتغرينك بهم : لنسلطنك عليهم . الساعة : يوم القيامة ، وما
 يدريك : أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا
 جمع السيد وهو كبير قومه ، وكبراءنا : أى ذوى الاسنان أو العلماء ، ضعفين من العذاب : أى مثل
 عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا .

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ، ومن يكون له من خصال الخير مابه يعرف ولا ينكر . القول السديد :
 القول الصادق الذى يراد به الوصول الى الحق ، من قولهم : سدد سهمه اذا وجهه للغرض المرمى ولم
 يعدل به عن سميته . العرض : هنا ، النظر الى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن
 عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل
 انها حقوق أوجبها الله على المكلفين واثمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد ، وأمرهم
 بالمحافظة عليها وأدائها دون الاخلال بشيء منها .

فأبين : أى كن غير مستعدات لها ، وحملها الانسان : أى كان مستعدا لها ، انه كان ظلوما جهولا : أى
 كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور ، لما غلب عليه
 من القوة الشهوية .

المناسبة واجمال المعنى

روى انه لما كانت الحرائر والاماء فى المدينة ، يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل
 بلا فارق بين الحرائر والاماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فاذا
 كلموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء - فطلب من رسوله ان يأمر الحرائر ان يخالفن الاماء فى الزى
 والتستر ، ليتمايزن ويهبن ، فلا يطعم فيهن الفساق وامراض القلوب ، وبعد ان ذكر حال هذه الفئات
 الثلاث فى الدنيا وهم : ١ - المنافقون الذين يؤذون الله سرا ، ٢ - ومن فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين
 باتباع نسائهم ، ٣ - والمرجفون الذين يؤذون الرسول بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من
 المدينة الى نحو ذلك مما يراد به اظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم - وانهم يلعنون ويهانون
 ويقتلون عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة ، فذكرهم بيوم القيامة ، وبين ما يكون لهم فى هذا
 اليوم .

وبعد ان بين سبحانه عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات ، عقب على ذلك بذكر الذين آذوا موسى من بني إسرائيل ، ونسبوا اليه ما ليس فيه ، فبرأه الله منه ، لأنه ذو كرامة ومنزلة لدية ، فلا يلصق به ما هو نقص فيه . وبعد ان نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو فعل ، أرشدهم الى ما ينبغي ان يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سببا في الفوز : النجاة في الدار الآخرة ، والقرب من الله ورسوله ، وان من يراعيها فله الفوز العظيم ، وأن من يتركها يستحق العذاب ، أردف ذلك عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية ، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس ، ثم بيان ان ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام انما يكون بلا جبر ولا التزام .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لئن لم يتنه المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ .

أي لئن لم يكف أهل النفاق الذين يسترون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم ، وركنوا الى الخلاعة والفجوز ، وأهل الأرجاف في المدينة الذين ينشرون الاخبار الملفة الكاذبة ، كاظهار عورات المؤمنين وابرار ما استكن من خفاياهم ، كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراهم ، ونحو ذلك مما في اظهاره مصلحة للعدو وكسر لشوكة المسلمين - لنسلطنك عليهم ، وندعونك الى قتالهم واجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها الا قليلا ، وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ، ثم بين مآل أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فقال عز وجل : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ ملعونين أي مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ أخذوا ﴾ لذلتهم وقتلتهم ﴿ وقتلوا تقتيلا ﴾ ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا ، هو شرعة الله في أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم فقال تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذه سنته في المنافقين اذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم ، ان أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ أي وسنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ .

يقول تعالى فخرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، انه لا علم له بالساعة ، وان سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها الى الله عز وجل : ﴿ كما قال تعالى في سورة الأعراف وهي مكية ، وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها ، الى الذي يقيمها ، لكن أخبره انها قريبة بقوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . وقال : ﴿ اقترب للناس

حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ أقم أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ ﴿٢﴾ .
قوله تعالى : ﴿ ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا . لا يجدون وليا ولا
نصيرا . يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا
ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ .

يقول سبحانه : ﴿ ان الله لعن الكافرين ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيرا ﴾ أي في
الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها . ونحو
ذلك قوله تعالى : ﴿ ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . ان الذين كفروا
وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله
يسيرا ﴾ ﴿٣﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب
أليم ﴾ ﴿٤﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ ﴿٥﴾ . وقوله
تبارك اسمه : ﴿ ان جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لا بشئ فيها أحقابا . لا يذقون فيها بردا ولا
شرابا . إلا حميا وغساقا جزاء وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء
أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ ﴿٦﴾ .

وقوله جل جلاله : ﴿ ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم
جلودا غيرها ليدوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما ﴾ ﴿٧﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ أي وليس لهم مغيث ولا معين ، ينقذهم مما هم
فيه . ثم قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أي
يسحبون في النار على وجوههم كما قال تعالى : ﴿ ان المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار
على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ ﴿٨﴾ .

وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار
جرون ﴾ ﴿٩﴾ . وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا
من أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم في حال العرضات بقوله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على
يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن

(١) سورة الانبياء آية ١

(٢) سورة النحل آية ١

(٣) سورة النساء الآيات ١٦٧ - ١٦٩

(٤) سورة المائدة آية ٣٧

(٥) سورة الجن آية ٢٣

(٦) سورة النبأ الآيات ٢١ - ٣٠

(٧) سورة النساء آية ٥٦

(٨) القمر الآيتان ٤٧ - ٤٨

(٩) سورة خافر الآيتان ٧١ - ٧٢

الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ ﴿٢﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يالتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ ﴿٣﴾ .

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه انهم يودون ان لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ قال طاوس : سادتنا يعني الاشراف وكبراءنا يعني العلماء - رواه ابن ابي حاتم - اى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا ان عندهم شيئا وانهم على شيء فاذا هم ليسوا على شيء ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾ اى بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿والعنهم لعنا كبيرا﴾ وهذا نحو قوله تعالى : ﴿قالوا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ .

قال البخارى في أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة رضى الله قال : قال رسول الله ﷺ (ان موسى عليه السلام كان رجلا حيا ستيلا لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برصى وإما أدره وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد ان يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ اقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملا من بنى إسرائيل فرأوه عريان أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من اثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا - قال - فذلك قوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ ﴿٥﴾ .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله قال قسم : رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار ان هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت ياعدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : (رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر) ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وكان عند الله وجيها﴾ اى ذا وجاهة وجاه ، قال أئمة المفسرين ومنهم الحسن

(١) سورة الفرقان الآيتان ٢٨ - ٢٩

(٢) سورة الحجر آية ٢

(٣) سورة الأنعام الآيتان ٢٧ - ٢٨

(٤) سورة ص آية ٦١

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب الانبياء ج ٤ ص ١٩٠

(٦) أخرجه الامام احمد ج ١ ص ٣٨٠

البصرى ، كان مستجاب الدعوة عند الله ، وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وقال معظم : من وجاهته عند الله انه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ (١) . وكقوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معي ردءا يصدقنى ، إني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . قال ابن حاتم بسنده عن أبي موسى الأشعري قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ الينا بيده فجلسنا فقال : ان الله تعالى أمرنى أن آمركم ان تتقوا الله وتقولوا قولا سديدا (ثم أتى النساء فقال : (ان الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولا سديدا) (٣) . وروى عن ابن عباس موقوفا : من سره ان يكون اكرم الناس فليتق الله . قال عكرمة القول السديد . لا آله إلا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد هو السداد ، وقال غيره هو الصواب والكل حق ، فيقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه ، أن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وان يقولوا (قولا سديدا) أى مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم انهم اذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بان يصلح لهم أعمالهم أى يوفقهم للأعمال الصالحة ، وان يغفر لهم الذنوب الماضية وما قد يقع منهم فى المستقبل ويلهمهم التوبة ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ وذلك انه يجار من نار الجحيم ويصير الى النعيم المقيم ..

والتقوى هى السلاح الأقوى ، ومصدر كل سعادة فى المعاش والمعاد ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٨) .

وقال تعالى : ﴿ وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ﴾ (٩) .

(١) سورة مريم الآيات ٥١ - ٥٣

(٢) سورة القصص الآيات ٣٤ - ٣٥

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٦

(٤) سورة آل عمران آية ٢٠٠

(٥) سورة النساء آية ١٣١

(٦) سورة الأعراف آية ٢٦

(٧) سورة البقرة آية ١٩٧

(٨) سورة يوسف آية ١٩٧

(٩) سورة البقرة آية ٢٨٢

وقال : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾^(١)
 وقال : ﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ﴾^(٢) .
 وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾^(٣) .
 وقال : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾^(٤) .
 وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾^(٥)
 وقال : ﴿ ياعباد أفاتقون ﴾^(٦) .
 وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾^(٧) .
 وقال ﷺ لمعاذ : (اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)^(٨) .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
 وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيمًا ﴾ .
 جاء فى معنى الأمانة أقوال نوضحها فيما يلى :
 قال العونى عن ابن عباس الأمانة : الطاعة ، عرضها عليهم قبل ان يعرضها على آدم ، فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها ؟ قال ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ .
 وقال ابن عباس أيضا : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم ، وان ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك ، وأشفقوا عليه من غير معصية ، ولكن تعظيما للدين الله الا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم ، فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ يعنى غرا بأمر الله .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢

(٢) سورة الحشر آية ١٨

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة المائدة آية ٣٥

(٥) سورة الحج آية ١

(٦) سورة الزمر آية ١٦

(٧) سورة آل عمران آية ١٠٢

(٨) أخرجه الامام أحمد ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٨ .

وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : ان الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة ، قال ابى بن كعب من الامانة أن المرأة أوثمت على فرجها ، وقال قتاده الامانة الدين والفرائض والحدود ، وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هي متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو انه ان قام بذلك أثيب ، وان تركها عوقب ، فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه الا من وفق الله وبالله المستعان .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن زيد بن أسلم في هذه الآية . قال الانسان بين أذن وعاتقى ، فقال الله عز وجل : إني معينك عليها ، إني معينك على عينيك بطبقتين فإذا نازعك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين فإذا نازعك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه الى ما أكره^(١) .

وقال ابن جرير بسنده عن ابى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خمس من جاء بهن يوم القيامة مع ايمان دخل الجنة . من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها - وكان يقول - وأيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن وأدى الأمانة) قالوا ياأبا الدرداء وما اداء الأمانة ؟ قال رضى الله عنه : الغسل من الجنابة فان الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره^(٢) .

وقال ابن جرير ايضا بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال . . القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها . . أو قال يكفر كل شيء إلا الأمانة يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك ؟ فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به الى أمه الهاوية فيذهب به الى الهاوية فيهورى فيها حتى ينتهى الى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها الى شفير جهنم حتى اذا رأى انه قد خرج زلت قدمه فهوى في أثرها أبد الأبد . . قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء والأمانة في الحديث وأشد ذلك الودائع . . فلقيت البراء فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال صدق^(٣) .

وروى الامام أحمد بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت احدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا ان الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها أثر المجمل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبرا وليس فيه شيء . . قال ثم أخذ حص فدحرجه على رجله قال . . فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال انه في بنى فلان رجلا أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من ايمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم ما بعث ان كان مسلماً ليردنه على دينه ، وان كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه فأما اليوم فما

(١) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٥٥

(٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ٢٣٤ ترجمة ابى الدرداء

(٣) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٢٢ ص ٥٦ ط الحلبي

كنت أبايع منكم الا فلانا وفلانا ، واخرجاه في الصحيحين^(١) .
 وروى البخارى بسنده عن أبي هريرة قال بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ في حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة ! قال ها أنا يارسول الله قال : فاذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة^(٢) .
 وروى الامام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال (أربع اذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمه)^(٣) . وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، فقد ورد في حديث مرفوع ، قال أبو داود بسنده .
 عن أبي بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من حلف بالأمانة فليس منا)^(٤) .

وللامام النسفى تفسير فى هذه الآية جديد بالذكر ، قال رحمه الله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) وهو يريد بالأمانة الطاعة لله ، ويحمل الأمانة الخيانة ، يقال فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، اذ الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها ، وهو حاملها ، ولهذا يقال ركبته الديون ولى عليه حق ، فاذا أداها لم تبقى راكبة له ولا هو حامل لها ، يعنى ان هذه الاجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها ، وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تليق بها ، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته ، ايجادا وتكويناً وتسوية ، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال سبحانه : ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾^(٥) . وأخبر ان الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله ، وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله ، واما الانسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه ، وهو العاقل الصالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات ، فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، وهذا معنى قوله : ﴿ فأبين أن يحملها ﴾ أى ابين الخيانة فيها والا يؤديها ﴿ وأشفقن منها ﴾ وخفن من الخيانة فيها ﴿ وحملها الانسان ﴾ أى خان فيها وأبى الا يؤديها . ﴿ انه كان ظلوما جهولا ﴾ لكونه تاركا لأداء الأمانة ﴿ جهولا ﴾ لاختطائه ، ما يسنده مع تمكنه منه وهو أداؤها قال الزجاج الكافر والمنافق حملا للأمانة ، أى خانا ولم يطيعا ومن أطاع من الانبياء والمؤمنين فلا يقال ظلوما جهولا .

وقوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أى إنما حمل ابن آدم الأمانة ، وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الايمان خوفا من

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٢٩ كتاب الرقاق/ واحد ج ٥ ص ٣٨٣ ومسلم فى كتاب الايمان ج ١ ص ١٢٦ برقم ١٤٣/٢٣٠ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ٢٢٠ كتاب طواف الوداع .

(٣) أخرجه الامام احمد ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٤٧ .

(٥) سورة فصلت آية ١١ .

أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهراً وباطناً على الشرك بالله ومخالفة الرسل .

﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى ويرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى وكان الله ستارا لذنوب عباده ، كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ، ورجع الى حظيرة قدسه ، وأخلص له العمل ، وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم ان تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات وتثيبنا بالفوز العظيم ، انك سميع قريب مجيب الدعوات .

تفسير سورة سبا

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها أربع وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف وخمسمائة واثنان عشر ..

مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول ﷺ - ومعجزات داود ، وسليمان ، ووفاتها وهلاك سبا ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة سادة الضلال ، وسفلتهم ، ومعاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المنفيين والمصدقين بالانحلال والرجوع بإلزام الحجة على مفكرى النبوة ، وتمنى الكفار فى وقت الوفاة الرجوع الى الدنيا فى قوله : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ مرتين بتقديم السموات ، بخلاف يونس ، فإن فيها (مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) لأن فى هذه السورة تقدم ذكر السموات فى أوائل السورة ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ وقد سبق فى يونس .

قوله : ﴿ أفلم يروا ﴾ بالفاء ليس غيره . زيد الحرف ، لأن الاعتبار فيها بالمشاهدة على ما ذكرنا ، وخصت بالفاء لشدة اتصالها بالأول لأن الضمير يعود الى الذين قسموا الكلام فى النبى ﷺ وقالو : محمد أما عاقل كاذب ، وأما مجنون هاذ ، وهو قولهم ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ فقال الله : بل تركتم القسم الثالث وهو اما صحيح العقل صادق .

قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ وفى الاسراء : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ ، لأن فى هذه السورة اتصلت بآية ليس فيها لفظ الله ، فكان التصريح أحسن ، وفى الاسراء اتصل بآيتين فيها (بضعة عشر) مرة ذكر الله صريحا وكناية ، (وكانت) الكناية أولى وقد سبق .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ ويَعْدُهُ ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ بالجمع ، لأن المراد بالأول : لآية على احياء الموتى ، فخصت بالتوحيد ، وفى قصة سبا جمع ، لأنهم

صاروا اعتبارا يضرب فيهم المثل ، تفرقوا أيدي سبأ ، فرقوا كل مفرق ، وفرقوا كل ممزق ، فوقع بعضهم الى الشام ، وبعضهم الى يثرب ، وبعضهم الى عمان ، فحتم بالجمع ، وخصت به لكثرتهم ، وكثرة من يعتبر بهن .

فقال : ﴿ لَايَات لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ على المحنة ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعمة أى المؤمنين . قوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّى يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وبعده : ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ سبق . وخص هذه السورة بذكر الرب ، لانه تكرر فيها مرات كثيرة منها ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٍ ﴾ ﴿ رَبَّنَا بِاعِدْ ﴾ ﴿ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ﴾ ﴿ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ولم يذكر مع الأول ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ لأن المراد بهم الكفار ، وذكر مع الثانى ، لانهم المؤمنون . وزاد ﴿ لَهُ ﴾ وقد سبق بيانه . قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ ولم يقل : من قبلك ، ولا قبلك خصت السورة به ، لأن في هذه السورة اخبارا مجردا ، وفي غيرها اخبار للنبي ﷺ ، وتسلية له ، فقال : ﴿ قَبْلَكَ ﴾ قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وفي غيرها ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

لأن قول ﴿ أَجْرَمْنَا ﴾ بلفظ الماضى ، أى قبل هذا ، ولم يقل : نجرم فيقع في مقابلة ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ لأن من شرط الايمان وصف المؤمن ان يعزم ألا يجرم . وقوله : ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ خطاب للكفار ، وكانوا مصرين على الكفر فى الماضى من الزمان والمستقبل ، فاستغنت به الآية عن قوله (كُنتُمْ) . قوله : ﴿ عَذَابُ النَّارِ الَّتِي ﴾ وقد سبق . صلتها بما قبلها .

(١) ان الصفات التى أجريت على الله فى مفتحتها ، تشاكل الصفات التى نسبت اليه فى مختم السورة السالفة .

(٢) انه فى السورة السابقة ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم انكارها صريحا ، وطعنهم على من يقول بالبعث ، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَ بَيْنَكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ﴾

وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٤﴾ لَيَجْزِي الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ الْيَمِّ ﴿٦﴾ وَيَرَى
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
 ﴿٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهَلْ نَدُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَثِّكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ
 جَدِيدٍ ﴿٨﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ
 الْبَعِيدِ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَّشَأْ نُخَسِّفْ
 بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿١٠﴾

معاني المفردات

- الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله .
 الحكيم : الذي احكم أمر الدارين ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة .
 الخبير : هو الذي يعلم بواطن الأمور وخوافيها .
 يلج في الأرض : أى يدخل فيها .
 ويعرج : أى يصعد .
 لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه .
 مثقال ذرة : أى مقدار أصغر ثملة .
 والكتاب المبين : اللوح المحفوظ .
 رزق كريم : أى حسن لا تعب فيه ولا من عليه .
 معاجزين : أى مسابقين يظنون انهم يفوتونا فلا نقدر عليهم .
 رجز : أى عذاب شديد .
 العزيز : أى الذى يغلب ولا يغلب .
 الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه
 وصراطه : هو التوحيد والتقوى
 تمزيق الشيء : تقطيع أوصاله وجعله قطعاً قطعاً ، يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق ومنه قوله :
 إذا كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق

والافتراء : اختلاق الكذب

والجنة : الجنون وزوال العقل

كسفا : قطعاً واحداً كسفة

منيب : أى راجع الى ربه مطيع له .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه ان له الحمد فى الآخرة على ما أسدى الى عباده من النعم ، أردف ذلك بيان أن كثيراً منهم ينكرها أشد الإنكار ، ويستهزئ بمن يثبتها ، ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظناً منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر ان مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان ان الناس فريقان ، مؤمن بآيات ربه ، يرى أنها الحق وأنها تهدى الى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى إبطالها . ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال ، وبعد أن أبان سبحانه انهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا ، وأكد كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون اذ ذاك من جزاء المؤمن بالثواب العظيم ، على ما عمل من صالح الاعمال ، وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب فى الجحيم ، على ما دسى به نفسه من اجتراح المعاصى ، وفاسد المعتقدات ، أردف ذلك ذكر مقال للكافرين ذكره تهكماً واستهزاء . ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد ، لعلمهم يرجعون عن عنادهم ، ويثوبون الى رشدهم .

التفسير

حمد الله تعالى ذاته ليلقن عباده كيف يحمدونه ، وقد سبق فى سورة الفاتحة قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وفى سورة الانعام قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ وفى سورة الكهف قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ .

وهنا يحمد الله تعالى ذاته لان له ما فى السموات وما فى الأرض فهو المالك المدبر ، والسيد المتصرف ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ ^(١) . فهو جلت قدرته بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو المحمود فى الدارين ، وهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، وهو الحكيم الذى تنزه عن العبث ، وتقديس عن النقائص ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، الخبير العليم بدقائق الأشياء ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ ^(٢) .

(٢) سورة الانعام آية ٥٩

(١) سورة القصص آية ٧٠

﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾^(١) . ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(٢) .
لذا جاء تفسير الخبير في الآية التي تليها قال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أى ما يدخل فيها ، كما يعلم ما يخرج منها ، ويعلم ما ينزل من السماء ، كما يعلم ما يعرج فيها ويصعد اليها ، أحاط علمه بكل شيء كما أحصى كل شيء عددا ، وهو الرحيم ، الذى شملت رحمته هذا الملك العظيم ، الغفور الذى يستر الذنوب ﴿ ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾^(٣) .
﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾^(٤) .
وسبحان القائل : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾^(٥) .

يامن يرى مد البعوض جناحه	في ظلمة الليل الميم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها	والخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها	في قاع بحر زاهر متجندل

وسبحان من علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

بصيرة في الحمد

قال صاحب البصائر :

الحمد : الثناء بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر ، فإن المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره ، وما يكون منه وفيه بالتسخير ، فقد يمدح الانسان بطول قامته ، وصباحة وجهه ، كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه ، والحمد يكون في الثاني دون الأول ، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة ، فكل شكر حمد ، وليس كل حمد شكرا ، وكل حمد مدح ، وليس كل مدح حمدا ، وفلان محمود اذا حمد ، ومحمد اذا كثرت خصاله الحمودة ، ومحمد كمكرم اذا وجد محمودا .

(١) سورة نعام آية ١٦

(٢) سورة الملك آية ١٤

(٣) سورة الشورى آية ٢٥

(٤) سورة المجادلة آية ٧

(٥) سورة ق آية ٤

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾^(١) . يصح ان يكون في معنى المحمود وان يكون في معنى الحامد ، وحماذك ان تفعل كذا ، أى غايتك المحمودة .
وقوله تعالى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾^(٢) . فأحمد اشارة الى النبي ﷺ باسمه ، تنبيها على انه كما وجد احمد ، يوجد وهو محمود في أخلاقه وأفعاله ، وخص بلفظ احمد فيما يشير به عيسى عليه السلام ، تنبيها انه احمد منه ومن الذين قبله .
قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ محمد ههنا وان كان اسما له علما ، ففيه اشارة الى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾^(٣) . على معنى الحياة .

بصيرة في الشكر

وهو تصور النعمة وإظهارها ، وقيل : هو الثناء على المحسن بما أولى من المعروف ، ليقال : شكرته وشكرت له وتعديته باللام أفصح .
قال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾^(٤) . وقال جل ذكره : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾^(٥) .
وقوله تعالى : ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾^(٦) . يحتمل ان يكون مصدرا ، مثل قعد قعودا ، ويحتمل أن يكون جمعا ، مثل برد وبرود ، وكفر وكفور .
والشكران : خلاف الكفران ، والشكور : الشاكر والشكور من الدواب ، الذي يجترىء بالعلف القليل ، ويسمن عليه قال الأعشى : ولا بد من غزوة في الربيع .. رهب تكل الوقاح الشكورا وقيل : الشكر مقلوب الكشر ، أى الكشف وقيل : أصله من عين شكرى ممتلئة ، والشكر على هذا : الامتلاء من ذكر المنعم .
والشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على النعم ، وشكر بسائر الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .

﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ انتصابه على التمييز ومعناه : اعملوا ما تعملونه شكرا لله وقيل : شكرا مفعول لقوله : ﴿ اعملوا ﴾ ولم يقل : اشكروا ، لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ فيه تنبيه ان توفية شكر الله صعب ، ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه إلا على اثنين ، قال في وصف ابراهيم عليه السلام :

(١) هود آية ٧٣

(٢) البص آية ٦

(٣) الفتح آية ٢٩

(٤) مريم آية ٧

(٥) البقرة آية ١٥٢

(٦) لقمان آية ١٤

(٧) الانسان آية ٩

﴿ شاكرا لأنعمه ﴾^(١) وقال في نوح عليه السلام : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾^(٢) . وإذا وصف الله بالشكر في قوله ﴿ والله شكور حلیم ﴾^(٣) فإنما يعنى به إنعامه على عباده ، وجزاؤه بما أقامه من العبادة . واعلم ان الشكر أعلى منازل السالكين وفوق منزلة الرضا ، فإنه يتضمن الرضا وزيادة ، والرضا مندرج في الشكر ، اذ يستحيل وجود الشكر بدونه ، وهو نصف الايمان ، وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببا للمزيد من فضله ، وحارسا وحافظا لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسما من أسمائه ، فإنه سبحانه هو الشكور ، وهو موصل الشاكر ، الى مشكوره ، بل يعيد الشاكر مشكورا ، وهو غاية رضا الرب عن عبده ، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾^(٤) . وقال : ﴿ واشكروا لى ولا تكفرون ﴾^(٥) .

وقال عن خليفه ابراهيم : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾^(٦) وعن نبيه نوح : ﴿ انه كان عبدا شكورا ﴾^(٧) . وقال ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾^(٨) .

وقال : ﴿ أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾^(٩)

وقال : ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾^(١٠)

وقال : ﴿ واذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذاب لشديد ﴾^(١١) وقال ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾^(١٢)

وسمى نفسه شاكرا وشكورا ، وحسبك بهذا حجة للشاكرين وفضلا ، وأعاد به الشكر مشكورا ، كقوله : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾^(١٣) . ورضا الرب عن عبده كقوله (وإن تشكروا يرضه لكم)^(١٤) . وقلة أهله في العالمين على أنهم من خواصه .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ : (انه قام حتى تورمت قدماه فقبل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)^(١٥) . وقال لمعاذ (يامعاذ إني أحبك فلا تنس ان تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)^(١٦) .

(٩) البقرة آية ١٧٢

(١٠) آل عمران آية ١٤٤

(١١) ابراهيم آية ٧

(١٢) سبأ آية ١٩

(١٣) الانسان آية ٢٢

(١٤) الزمر آية ٧

(١٥) أخرجه الامام مسلم ج ٤ ص ٢١٧١ برقم ٢٨١٩/٧٩

(١٦) أخرجه في الحلية ج ١ ص ٢٤١ ترجمة معاذ بن جبل

(١) النحل آية ١٢١

(٢) الاسراء آية ٣

(٣) التغابن آية ١٧

(٤) البقرة آية ١٧٢

(٥) البقرة آية ١٥٢

(٦) النحل آية ١٢١

(٧) الاسراء آية ٣

(٨) النحل آية ٧٨

وفي الترمذى فى بعض دعائه المشهور : (رب اجعلنى لك شكارا لك ذكارا لك رهابا لك مطواعا لك محبنا اليك أواها منيا)^(١) . وقال هذا حديث حسن صحيح .

والشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وألا يستعملها فيما يكره ، هذه الخمسة هى أساس الشكر وبنائوه عليها ، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر ، وكل من تكلم فى الشكر فكلامه اليها يرجع وعليها يدور .

فقل حده : إنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وقيل : الثناء على المحسن بذكر احسانه ، وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره ، والثناء عليه ، وقيل : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وما ألطف ما قال حمدون القصار : شكر النعمة : ان ترى نفسك طفيليا ، وقال أبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر ، وقيل : الشكر إضافة النعم الى موليتها . وقال الجنيد : الشكر : الا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وهذا معنى قول حمدون : أن ترى نفسك فيها طفيليا ، وقال رويم : الشكر : استفراغ الطاقة يفنى فى الخدمة وقال الشبلى : الشكر : رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويحتمل كلامه أمرين : أحدهما ان يغنى برؤية المنعم عن رؤية النعمة ، الثانى ألا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها وهذا أكمل ، والأول أقوى عندهم والكمال ان يشهد النعمة والمنعم ، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلما كان أتم ، كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ، ويعترف بها ، ويثنى عليه بها ، ويحبه عليها ، لا أن يفنى عنها ، ويغيب عن شهودها ، وقيل : الشكر قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة ، وشكر العامة على المطعم والملبس ، وقوة الأبدان ، وشكر الخاصة على التوحيد والايمان وقوة القلوب ، وقال داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك ، وشكرى نعمة على من عندك تستوجب بها شكرا ؟ فقال : الآن شكرتنى يا داود .

وفى أثر اسرائيل قال موسى : يارب خلقت آدم بيدك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعلت ، فكيف أطاق شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم ان ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرا لى .

وقيل : التلذذ بثنائه على مالم يستوجب من عطائه وقال الجنيد : وقد سأله سرى عن الشكر وهو صبي بعد : الشكر ألا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه ، قال من أين لك هذا ؟ قال : من مجالستك . وقيل : من قصرت يده عن المكافأة ، فليطل لسانه بالشكر ، والشكر مع المزيد أبدا لقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾^(٢) . فمتى لم تر حالك فى مزيد ، فاستقبل الشكر ، وفى أثر الهى يقول الله : أهل ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيادتى وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، ان تابوا فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فأنا طيبهم أبتليتهم بالمصائب لأطهرهم عن المعائب .

(١) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٢١٤ برقم ٣٦٢١

(٢) ابراهيم آية ٧

وقيل : من كتم النعمة ، فقد كفرها ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها .
قال أبو تمام :

ومن الرزية ان شكرى صامت عما فعلت وان برك ناطق
أرى الصنيعة منك ثم أسرها انى اذا لندى الكريم لسارق

وتكلم الناس فى الفرق بين الحمد والشكر ، وأيهما أفضل وفى الحديث : (الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره) والفرق بينهما ان الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته فيه ،

والحمد أعم من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب ومعنى هذا ان الشكر ، يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعته وبصره وعلمه وهو المحمود بها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الاحسان والنعم ، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان .

إنكار الكافرين البعث

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ ، ان يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره . من أهل الكفر والعناد ، فأحداهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ (١) .
والثانية فى سورة التغابن قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ (٢) والثالثة هذه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ قال مجاهد وقتادة : لا يعزب عنه : لا يغيب عنه ، أى الجميع مندرج تحت علمه ، فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام وان تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت ، وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فانه بكل شيء عليم ، ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة .

بقوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى سعوا فى الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل ، اذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار ، بالذى كانوا قد علموه من كتب الله تعالى فى الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضا ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ (٣) . يقال أيضا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (٤) . ﴿ لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾ (٥) .

﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

العزيز هو المنيع الجنب ، الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شىء وغلبه ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله جل وعلا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنا لكم لخلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد . أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إنا ننسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إنا فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

وهذا انكار بعد إنكار للبعث بعد الموت فقد قالوا قبل ذلك : ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ فقال لهم المولى ملقنا رسوله الاجابة : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ وهنا قال بعضهم لبعض فى سخرية وتهكم واستهزاء : ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ يقصدون به محمدا ﷺ إمام الانبياء وخاتم الرسل : ﴿ ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق ﴾ وتفرقت أعضاؤكم تحت الثرى كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا إذا ضللنا فى الأرض إنا لفي خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون . ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآيتنا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملا أن جهنم من الجنة

(١) الحشر آية ٢٠

(٢) ص آية ٢٨

(٣) الأعراف آية ٤٣

(٤) يس آية ٥٢

(٥) الروم آية ٥٦

والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴿١﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ ويقول الانسان إذا مات لمات لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ (٢) . وهنا يقولون : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ ثم يكيلون التهم جزافا ، فيقولون على أصدق الناس وأعقلهم ﴿ أفترى على الله كذبا ﴾ وهم الذين من قبل سموه الصادق الأمين ﴿ أم به جنة ﴾ أى أصابه جنون ، وهم الذين يعلمون أنه أعقل العقلاء ، وأعظم خلق الله على الإطلاق ، فلم يعرف الكذب الى قلبه سبيلا ، كما لم يعرف الجنون الى عقله طريقا ، ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ (٣) .

ياسيد العقلاء ياخير الورى	يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا	وطلعت في الأكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الإله ولا برى	بشرا يرى كمحمد بين الورى

قال ابن عباس : والله ما خلق الله ولا برا ولا ذرا نسمة أفضل من رسول الله ﷺ ، وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لعمر ك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ (٤) .

بلغ العلا بكماله	كشف الدجى بجماله
عظمت جميع خصاله	صلوا عليه وآله

قوله تعالى : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ لقد أنكروا البعث بعد الموت ، وجهلوا ان الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، فعاشوا في أسباب العذاب . وضلوا بذلك ضلالا بعيدا ، ثم يأتي التحذير والوعيد والتهديد لهؤلاء كالصواعق والقواصف والرعود ، التي تنخلع لها الجبال الشم والرواسي الشاخحات .

يقول تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أى أعموا وأصبحوا لا يرون أن أرض الله وسماؤه ، محيطة بهم ، أينما كانوا وحيثما وجدوا . من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيماهم وعن شمائلهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (٥) . ولا أحد يملك هذا السلطان إلا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

(١) السجدة الآيات ١٠ - ١٤

(٢) مريم الآيتان ٦٦ ، ٦٧

(٣) القلم الآيات ١ - ٦

(٤) الحجر آية ٧٢

(٥) الرحمن آية ٣٣

قال تعالى : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض ﴾^(١) . وقال الله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾^(٢) . قال تعالى : ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾^(٣) . وكما أن مشيئتنا صالحة لخسف الأرض ، فإنها صالحة لإسقاط قطع من السماء تمحقهم محقا . ﴿ أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾^(٤) . ثم يقول تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ فالمنيب هو التائب الراجع إلى ربه وهو الذي يعتبر بالآيات ، ويتعظ بها ، ويخاف مقام ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، وهكذا أنكر الكفار البعث بعد الموت ، وكان القرآن لهم بالمرصاد ، كلما ساقوا حجة دحضها ، وكلما أثاروا شبهة سحقها ، وكلما قدموا دليلا هدمه ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وإن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾^(٥) .

﴿ البعث حق ﴾

ما هو البعث :

﴿ ويقول الإنسان إذا مات لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحضرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جنيا ﴾^(٦) .
البعث إحدى قضيتين من قضايا الإسلام ، دارت حولها العقيدة الراسخة ، التي أوجب الإسلام على أتباعه اعتقادها . .

فقضية الألوهية وقضية البعث ، هما القضيتان اللتان دارت حولهما رحي الإسلام .

فما هو البعث :

اتفقت كلمة علماء العقيدة على أن البعث ، هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة . . قال سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾^(٧) .

وقال الصادق الأمين عليه السلام وهو يعلن هذه المبادئ بعدما أمره الله بالجهار بالدعوة في قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾^(٨) . نادى على قبائل العرب - بعدما صعد الصفا وقال

(١) سبا آية ٩

(٢) سورة النحل الآيات : ٤٥ - ٤٧

(٣) سورة الأعراف آية : ٩٩

(٤) سورة الملك الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧

(٦) سورة مريم الآيات : ٦٦ - ٦٨

(٧) الحج الآيتان ٦ ، ٧

(٨) الحجر آية ٩٤

لهم : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، رأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا)^(١) .

صدق يا سيدى يا رسول الله ! فقد أعطاك الله جوامع الكلم ، واختصر لك الكلام اختصارا : ذكرت قضايا العقيدة بأسلوب بلاغى واضح ، فقد شبهت الموت بالنوم ، ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(٢) .

وشبهت البعث باليقظة : ﴿ ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا أولينا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾^(٣) . ولخصت الحكمة من النشأة الآخرة ، فقلت وقولك الحق : (ولتحاسبن بما تعملون) .

إذن : فليست الدنيا دار جزاء ، وإنما هى دار امتحان وبلاء . . قد ترى فيها المؤمن مضيقا عليه ، بينما ترى الفاجر يرتع ويلعب فى جناتها ويعربد على ظهرها .

إذن : فالحقيقة الكبرى ، هى الدار الباقية ، قال جل شأنه : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون ﴾^(٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نمى لهم خير لأنفسهم ، إنما نمى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين ﴾^(٥) .

ولقد قال رسول الله (ﷺ) : (إذا رأيت الله ينعم على العبد وهو يعصيه فاعلم أنه مستدرج) ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ﴾^(٦) .

ولخصت الحقيقة الرابعة فبينت وجه العدالة الإلهية حيث قلت - وقولك الصدق : (ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا) .

أجل ! ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾^(٧) . وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ﴾^(٨) . وقال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾^(٩) . وقال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾^(١٠) .

(١) الاعراف الآيتان : ١٨٢ - ١٨٣

(٢) النساء آية : ٤٠

(٣) فصلت آية : ٤٦

(٤) الانبياء آية : ٤٧

(٥) الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨

(١) أخرجه ابن عساكر ٣٩٩/٦ مسانيد ٦٠٨/٢ الجامع الكبير .

(٢) الأنعام آية ٦٠

(٣) يس الآيات : ٥١ - ٥٣

(٤) الأنبياء آية ٣٥

(٥) آل عمران آية : ١٧٨

تشاد المباني والقبور دوارس ولا يمنع الأقدار باب وحارس
ومهما يكن ، فالله باق ودائم ويجنى الفتى - من بعد - ما كان يفرس

يا لله للمسلمين ! ويا لله للناس أجمعين ! ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾^(١) .

تملك الناس الهوى والغرور وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تزال الحجب بانت لهم زخارف الدنيا وعقبى الأمور

وصدقت ياسيدى يارسول الله حين بينت أن فى الآخرة دارا للمتقين وأخرى للفاستقين ،
فقلت : (وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا) .

سبحانك رب ! يا من قلت : ﴿ أفمن كان مؤمنا ، كمن كان فاسقا ؟ لا يستون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار : كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾^(٢) .
ويا من قلت : ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! ﴾^(٣) .

وقررت هذا الجزاء العادل :

﴿ وأزلت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين ﴾^(٤) .

القبر باب وكل الناس داخله ياليت شعرى ، بعد الموت : ما الدار
دار نعيم إن عملت بما يرضى الإله وإن خلفت فالنار
هما محلان ، ما للمرء غيرهما فانظر لنفسك : أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفوا هفوة ، فالرب غفار

(١) الأنبياء الآيات : ١ - ٣

(٢) السجدة الآيات : ١٨ - ٢٠

(٣) القلم الآيتان : ٣٥ - ٣٦

(٤) ق الآيتان : ٣١ - ٣٢

تباركت ربنا وتعاليت !! يا من قلت وقولك الحق :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ، دعواهم فيها : سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

أخا الإسلام :

إن الله عبادة فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها ، فلما علموا	أنها ليست لحى سkena
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ (٢) .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة	واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل	يارب إن العيش عيش الآخرة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ﴾ (٣) .

إلهي : لست للفردوس أهلا	ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لي توبة واغفر ذنوبي	فإنك غافر الذنب العظيم

فما هو البعث :

هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة .

(١) يونس الآيات : ٧ - ١٠

(٢) الكهف آية ٣٠

(٣) الصف الآيات : ١٠ - ١٢

البعث حق

﴿ قل لمن ما في السموات والأرض ؟ قل لله : كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾^(١) .

أمر الله رسوله (ﷺ) أن يقسم به جل شأنه في ثلاثة مواضع من كتابه الكريم ، وهذه المواضع تدور حول قضية واحدة ؛ هي قضية البعث :

فقد جاء في سورة يونس : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين ﴾^(٢) .

وجاء في سورة سبأ : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بلى ، وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾^(٣) .

وجاء في سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى ، وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ﴾^(٤) .

ولكون « البعث » قضية تناولتها عقول الماديين بالانكار ، فقد تناولها الكتاب العزيز من جميع جوانبها تحليلاً وتمحيصاً ، حتى سمي اليوم الذى سنبعث فيه أسماء تدل على الثبوت والوقوع . قال جل شأنه في ذلك :

﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾^(٥) .

وقال أيضاً : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . . خافضة رافعة ﴾^(٦) .

ولكونه محقق الوقوع : عبر القرآن عنه بصيغة الواقع فعلاً ، فقال سبحانه :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾^(٧) .

وعبر عنه بالقرب القريب فقال : ﴿ أزفت الأزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ﴾^(٨) .

وقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾^(٩) .

وقد تعددت أسماء هذا اليوم ، ونظراً إلى ضخامة شأنه ، وعلو قدره سماه الله تعالى بالساعة ،

فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون . ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ﴾^(١٠) .

وسماه بيوم البعث فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم

البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾^(١١) .

(١) الأنعام آية : ١٢

(٢) يونس آية ٥٣

(٣) سبأ آية ٣

(٤) التغابن آية ٧

(٥) الحاقة الآيتان ١ ، ٢

(٦) القمر الآيتان : ١ ، ٢

(٧) الروم الآية : ٥٥

(٨) الواقعة آية ١ ، ٢

(٩) النحل آية ١

(١٠) النجم الآيتان ٥٧ ، ٥٨

(١١) الروم آية : ٥٦

وسماه بيوم الحسرة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾^(١).

وسماه باليوم الموعود فقال : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود ﴾^(٢).
وسماه بيوم الأزفة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الجناحر كاظمين ﴾^(٣).
وسماه بيوم التلاق فقال : ﴿ لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون . لا يخفى على الله منهم شيء ﴾^(٤).

وسماه بيوم التناد ، كما جاء في القرآن الكريم ، حيث يقول جل شأنه :
﴿ وياقوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾^(٥).
وسماه بالقارعة فقال تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة ﴾^(٦).
وسماه بالطامة الكبرى فقال : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾^(٧).

وسماه بالصاخة فقال : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾^(٨).

وسماه بيوم الدين فقال : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾^(٩).
وسماه بيوم القيامة فقال : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾^(١٠).

وسماه باليوم الآخر فقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾^(١١).
وفخم من شأنه بالصورة التي تليق به ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ يوم يأت لاتكلم نفس إلا بأذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾^(١٢).
وأورده في كتابه العزيز بصيغة التنكير الذي يفيد التهويل والتعظيم ، فقال : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾^(١٣).
وقال : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾^(١٤).

وقال : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ﴾^(١٥).

(٨) عبس الآيات : ٣٣ / ٣٧
(٩) الانفطار الآيتان : ١٧ ، ١٨
(١٠) القيامة آية : ١
(١١) البقرة آية : ١٧٧
(١٢) هود آية : ١٠٥
(١٣) البقرة : آية ٢٨١
(١٤) آل عمران آية ٢٥
(١٥) هود آية ١٠٣

(١) مريم آية : ٣٩
(٢) البروج الآيتان : ١ ، ٢
(٣) غافر الآية : ١٨
(٤) غافر الآيتان ١٥ ، ١٦
(٥) غافر الآية : ٣٢
(٦) القارعة الآيات : ١ - ٣
(٧) النازعات الآيتان : ٣٤ ، ٣٥

وقال : ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾^(١) .
 وقال : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾^(٢) .
 وقال : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾^(٣) .
 وجعل لهذا اليوم مقدمات تنخلع لها القلوب ، وتنفطر منها الأفئدة ، فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾^(٤) .
 وفي هذه المقدمات للبعث ، تختل سنن الحياة ونواميسها ، كما قال سبحانه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون . لا تخفى منكم خافية ﴾^(٥) .
 وقال جل شأنه :

﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار فجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ما أحضرت ﴾^(٦) .
 وقال عز من قائل : ﴿ فإذا برق البصر . وخنس القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا ، لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾^(٧) .
 وقال عز من قائل : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال . وكانت الجبال كثيبا مهيبا ﴾^(٨) .
 وقال تبارك اسمه : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾^(٩) .
 البعث حقيقة واقعة

أخى القارئ الكريم : إن قضية البعث ثارت حولها اعتراضات وأفكار من قديم الزمن ، ولذلك اهتمت العقيدة الإسلامية بالتأكيد عليها ، والتركيز على معانيها وأدلتها .

(١) المزل آية ١٧

(٢) الانسان آية ١٠

(٣) النور آية ٣٧

(٤) الحج الآيتان : ١ ، ٢

(٥) الحاقة الآيات : ١٣ - ١٨

(٦) التكويز الآيات : ١ - ١٤

(٧) القيامة الآيات : ٧ - ١٢

(٨) المزل آية : ١٤

(٩) الانفطار الآيات : ١ - ٥

ونحن في هذا الباب سنعرض للأدلة عرضاً عقلياً ، على أن البعث حق نخاطب فيه العقل الرشيد ، بالمنطق السديد ، دون ماتعسف أو تعصب إلا للحق ﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾^(١) ، ﴿ الحق أحق أن يتبع ﴾^(٢) ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾^(٣) ولكي نثبت أن البعث حق ، فلا بد لذلك من مقدمات ثلاث .

المقدمة الأولى : قضية الألوهية .

المقدمة الثانية : القرآن الكريم حق .

المقدمة الثالثة : النبي (ﷺ) حق .

المقدمة الأولى :

قضية الألوهية

لقد أثبتت الحقائق العلمية أن هذا الكون وما يحتويه من أجزاء المخلوقات من أول الذرة إلى المجرة ، ومن أول الخلية إلى الإنسان ، لا بد أن يكون له مبدع خالق ومدبر حكيم ، وأن كلمة العلماء القدامى والمحدثين ، انعقدت على أن هذه المخلوقات لا يمكن بحال ، أن تكون وليدة الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء . ومن قال بذلك فقد ألغى فكره ، وعطل عقله .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماءً مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾^(٤) .

﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فأن تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(٥) .

وبعد بيان هذه الأدلة التي تخاطب العقل : تأق النتيجة مسلماً بها لا تحتاج إلى نقاش أو جدال

(١) - الأنعام آية : ١٠٤

(٢) - يونس آية : ٣٥

(٣) - يونس آية : ٣٢

(٤) - ق الآيات : ٦ - ١١

(٥) - الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩

فيقول جل شأنه : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾^(١) .
 إذن : فكل الكائنات بما حوته من إبداع وإحكام وإتقان ونظام تنطق بلسان الحق وتشهد بمنطق الصدق : أن له خالقا لا تدركه الأبصار ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .
 المقدمة الثانية : -

القرآن الكريم حق

القرآن الكريم : هو ذلك الكتاب العربى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي ، المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتحدى بلفظه المتعبد بتلاوته .
 ولكى نوضح أن القرآن الكريم حق ، يجب علينا أن نعلم أنه منقول إلينا بطريق التواتر ، وهو عبارة عن نقل جماعة عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب ، وهو طريق يفيد قطعية الثبوت ، كذلك يجب أن نعلم أن القرآن ليس كلاما عاديا ، بل هو كلام الله جل جلاله ، الذى أعجز الخلق ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، حيث يقول سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾^(٢) .
 بل تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث قال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾^(٣) ؟
 بل لقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فقال سبحانه ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾^(٤) .
 ولهذا نؤمن بهذا القرآن الكريم ونقول إنه كلام رب العالمين :
 إن القرآن أعجز العرب جميعا ببلاغته وفصاحته وعلو طبقته ، وهم أهل البلاغة وأساطين الفصاحة ، ولذلك يلمح قارئه أنه - أى القرآن الكريم - يصدر كثيرا من سورته بالحروف العربية المقطعة :

فأحيانا بحرف واحد مثل : (ض ، ن ، ق)
 وأحيانا بحرفين ، مثل : (خم ، وطس)
 وأحيانا بثلاثة ، مثل : (الم ، طسم)

(١) الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) الاسراء آية : ٨٨

(٣) هود الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٤) البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

وأحيانا بأربعة مثل : (المص ، المر)
 وأحيانا بخمسة ، مثل (كهيعص ، حم غيسق)
 وبعد ذكر هذه الحروف يرد ذكر الكتاب ، مثل : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾^(١) .
 ومثل : ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾^(٢)

ومثل : ﴿ المر . تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾^(٣) .
 ومثل : ﴿ ص . والقرآن ذى الذكر ﴾^(٤)
 ومثل : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾^(٥) .

إن في ذكر هذه الحروف العربية المقطعة ، مقترنا بذكر القرآن الكريم والكتاب الحكيم - في الأكثرية الساحقة من السور المفتحة بتلك الحروف - إشارة قوية إلى أن القرآن نزل بتلك الحروف العربية .

فإن كنتم يأرباب الفصاحة ، ويأساتذة البلاغة : في ريب أو شك أو التباس في أنه من عند الله ، فاتوا بكتاب مثله إن كنتم صادقين فأنتم عرب ولسانكم عربي .
 وقد ثبت تاريخيا - بطريق موثوق به - أنهم عجزوا كل العجز ، ولم يقولوا في هذا المجال شيئا يذكر ، وبذلك ثبت للقرآن أنه حق نزل به جبريل عليه السلام من قبل الحق ، على النبي الحق . صلوات الله وسلامه عليه .

لقد بهرت هذه البلاغة القرآنية عمر بن الخطاب رضى الله عنه جبار الجاهلية ، فانقلب فجأة بعد سماع صدر من سورة « طه » فتمثلت له الآيات كأنها ملائكة حملته على أجنحة النور إلى مافوق قبة الفلك ، فأصبح بعد ماكان جبار الجاهلية : عملاق الاسلام .
 قد كنت أعدى أعاديتها فصرت لها بفضل ربك حصنا من أعاديتها

القرآن معجز :

اقرأ ياأخى بقلب مخلص هذه الآيات : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا من خلق الأرض والسماوات العلا . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾^(٦)

(١) البقرة الآيتان ١ ، ٢

(٢) الأعراف الآيتان ١ ، ٢

(٣) الرعد آية ١

(٤) ص آية ١

(٥) ق آية ١

(٦) طه الآيات : ١ - ٨

ثم أعد قراءتها ، واجعل عقلك يعيش فيها ، ويندمج في أضوائها ، فإن فيها أسراراً لا يلحق بها ولا يشق لها غبار .

إنه من الملاحظ أن آيات التحدى في القرآن نزلت في مكة ، وقد ظل النبي ﷺ بها ثلاثة عشر عاماً ، فما استطاع أحدهم أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ، بل كل ما قالوه : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (١) .

بل كانوا يأتون بما يندى له جبين الحياء خجلاً :

كان النضر بن حارث يأتي بالأقاصيص والخرافات ، ليجعل منها مجالاً ، يصرف به الناس عن سماع القرآن . . قال سبحانه : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ (٢) .

بل لقد انحدروا إلى الدرك الأسفل ، فأتوا بأفعال صبيانية ، ليكون ذلك منهم حاجزاً وحجاباً عن وصول القرآن إلى الأسماع .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٣)

ويلغ الاستهتار ببعضهم أنه ظن أن القرآن صور متحركة ، يمكن تبديلها وتغييرها كأنه أمام خشبة المسرح : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ (٤) .

بلغ لقد بلغ الحمق ببعضهم ، أنهم كادوا يعتدون على الذين يتلون القرآن ، قال سبحانه : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ (٥) .

حصل هذا في الوقت الذي كان البعض يذهب سرا ، ليستمع إلى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ في الليل .

كان أبو سفيان بن حرب - قبل أن يسلم - يذهب متخفياً ، ويجلس بجانب بيت الرسول ﷺ ، ويستمع إلى القرآن الكريم منه ، وهو يرتله ، وإذا به يجد أبا جهل قادماً ، فيقول له : يا أبا حنظلة : ما الذي جاء بك إلى هنا في هذا الوقت ؟ فيقول له : يا أبا الحكم جئت لأستمع إلى القرآن من محمد ، فما الذي جاء بك أنت ؟ فيقول أبو جهل : نفس الذي جاء بك ، وإذا برأس من رؤوس الكفر يأتي - هو الأخنس بن شريق - فيسألانه :

(١) الأنفال الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٢) لقمان الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) فصلت آية : ٢٦

(٤) يونس آية : ١٥

(٥) الحج آية : ٧٢

ما الذى جاء بك ؟

فيقول نفس الذى جاء بكما .. ويعد أن يستمعوا ويهموا بالانصراف ، يعاهد بعضهم ألا يأتي أحد منهم ، خشية أن يتمكن القرآن من قلوبهم فيخضعوا لمحمد ويسيروا وراء لوائه ! ويظن كل منهم أنه لن يأتي أحد غيره ، فيتسلل أبو سفيان خفية ، ويأتي إلى القرآن مستمعا ، ويتسلل أبو جهل كذلك ، ويأتي الأخنس أيضا ، وكل منهم يظن أن أحدا من رفقائه لن يراه ، ثم يعيدون العهد . كل ذلك وحلاوة القرآن تجذبهم .

لو كان ذلك من كلام أحد من العرب ، فإن هؤلاء عرب يستطيعون أن يقولوا مثله ، ولكنه من كلام خالق الكون رب العالمين .

ويشهد الوليد بن المغيرة لهذا القرآن ، شهادة خالدة بعد أن استمع إليه ، وأدار أسلوبه في نفسه ، فوجده يتقاطر نورا ورحمة غضا نديا ، لا يذبل عوده ، ولا يجف ورقه .. تسرى فيه روح الحياة ، كما يسرى الماء في العود الأخضر فيقول الوليد :

(لقد سمعت من محمد كلاما ماسمعت مثله فقط ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام البشر ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه) .
لقد اختار الله تعالى البلاغة وجعلها من معجزات القرآن لأن المعجزة أمر خارق للعادة ، يقصد به تحدى القوم ، وإنما يكون التحدى بصورة أقوى ، إذا جاء من جنس مابرع فيه القوم .
فقد كانت معجزة موسى عليه السلام : إبطالا للسحر ، في عصر برع فيه السحرة .
ومعجزة عيسى عليه السلام : تحدى الطب البشرى ، في عصر نبغ فيه الأطباء .
وجاء القرآن معجزة بلاغية ، في عصر برع فيه البلغاء والفصحاء والأدباء ، فضلا عن أنه اشتمل على جوانب أخرى من الإعجاز ، يتحدى بها العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
تنبؤات القرآن العظيم : -

ومن الأدلة القاطعة على أن القرآن حق ؛ أنه اشتمل على تنبؤات في المستقبل تحققت وصدقت ، كما أخبر عنها ؟ ذلك : لأنه كلام علام الغيوب .
نذكر منها قوله تعالى :

﴿ الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون . في بضع سنين . الله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ (١)

قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ :

(أما إنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا ، كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم ، كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : (ألا جعلتها إلى مادون العشر) قال سعيد بن جبير : البضع : مادون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد ذلك .

وهو الذي قاله سعيد في تفسير قوله تعالى : ﴿ في بضع سنين ﴾ ولقد حدث ماتنبا به القرآن الكريم ، وانتصرت الروم على الفرس ، كما أخبر بذلك علام الغيوب .

كذلك من تنبؤات القرآن العظيم أنه أخبر عن أشخاص ؛ بأنهم سيدخلون النار ويموتون على الكفر .

من هؤلاء : الوليد بن المغيرة ، الذي منعه كبره ، وحجبه ظلمه عن الدخول في الاسلام ، فقد قال الله تبارك وتعالى في شأنه :

﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبينين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾ (١) .

وقال جل شأنه في حقه أيضا : ﴿ سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ؟ . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾ (٢) .

ولقد سمع الوليد هذه الآيات فعلا ، وثبت ما أخبر به القرآن الكريم ، ومات الوليد على غير الاسلام .

ومن هؤلاء : أبو لهب بن عبد المطلب - عم الرسول - ﷺ - فقد أخبر تبارك وتعالى عنه بقوله : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد ﴾ (٣) .

وقد سمع أيضا أبو لهب وامراته هذه الآيات وماتا على الكفر ، وصدقت فيهما أخبار القرآن الكريم .

ومن هؤلاء أيضا : النضر بن الحارث - الذي سبق الكلام عنه في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ (٤) .

وقد سمع النضر هذه الآيات ومات على الكفر : ولو أن أحدا من هؤلاء الذين ذكرناهم ، مات على الاسلام ما صدقت النبوة ، ولكنه إخبار الله الذي إذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وهو أسرع الحاسبين .

(١) المدثر الآيات : ١١ - ١٧

(٢) المدثر الآيات : ٢٦ - ٣٠

(٣) سورة المسد كلها

(٤) لقمان آية : ٦

ومن جوانب النبوة في القرآن الكريم ، أنه أخبر عن هزيمة المشركين في يوم بدر قبل وقوع الغزوة .. قال سبحانه وتعالى : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾^(١) .

كما أخبر عن أشخاص ، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فقتلوا يوم بدر ، وفيهم يقول الله سبحانه : ﴿ إنا كفيناك المستهزين ﴾^(٢)

وأخبر أنه - جل شأنه - سيحفظ هذا الكتاب الكريم ، وتحقق ذلك ، فقد مرت بالاسلام إحسن طاحنة ، ومحن قاسية ، فلم تستطع يد أئمة أن تغير أو تبدل في كتاب الله ، وظل هذا الكتاب الكريم في حفظ ورعاية وصيانة : ﴿ إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٣) .

كذلك من جوانب إعجاز القرآن - غير البلاغة والتنبؤات - ما اشتمل عليه من نظم صحيحة وصالحة لكل زمان ومكان ، لو فهمها الخلق وطبقوها تطبيقاً سليماً ، لمكن الله لهم في الأرض وبدل خوفهم أمناً .

ومن هذه النظم السياسية التي جمع الله مبادئها في آيات بينات : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾^(٤) وقوله جل شأنه : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾^(٥) ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾^(٦) .

وغير ذلك من القوانين والمعاهدات الدولية ، التي اشتملت عليها سور كثيرة من القرآن الكريم : كسورق الأنفال ، والتوبة .

كما اشتمل على نظم إجتماعية ، أفاضت في ذكرها سور النساء والنور والأحزاب ، كما اشتمل على النظم والقوانين المدأينة ، كما في آية المدأينة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تدايتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾^(٧) .

كما وضع نظاماً للمال والاقتصاد وتدور عليه دواليب الحياة ، وقد أفاضت في هذا الموضوع سورتا البقرة والنساء .

كما اشتمل على نظم الجهاد والنواحي العسكرية ، كما في السور : آل عمران والتوبة والأحزاب .. إلى غير ذلك من جميع ما يحتاج إليه

العالم في شتى النظم .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾^(٨) .

(١) القمر الأيتان : ٤٤ ، ٤٥

(٢) الحجر آية : ٩٥

(٣) الحجر آية : ٩

(٤) النحل آية : ٩٠

(٥) آل عمران - : ١٥٩

(٦) الشورى : ٣٨

(٧) البقرة : ٢٨٢

(٨) النحل آية : ٨٩

القرآن الكريم والعلم الحديث :

وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر ، نقطف من كل بستان زهرة وننشق من كل حديقة وردة ..
ذلك الجانب هو مااشتمل عليه القرآن العظيم من الحقائق العلمية .

(وسوف نورد نماذج لحقائق علمية مختلفة ، سبق القرآن بها العلم)

الطب الحديث ، وتحريم الخمر فى القرآن :

يقول الطب عن الخمر : إن شربها ينتج عنه تليف فى المعدة ، والكبد ، والأعصاب ، والألياف
التي تتكون فى الأنسجة ، تخنق الذرات النافعة فى المعدة والكبد والأعصاب ، فتضعف وظائفها
الحوية ، وهذه الحالة شفاؤها صعب ، ويمتد ضررها إلى الذرية البريئة .
صدقت يارب العزة ، إذ قلت عن الخمر : إنها ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم
تفلحون ﴾ (١) .

الصحة الغذائية فى القرآن :

وهذه حقيقة علمية أخرى ذكرها العلم مخبرا عن وظائف الرضاعة وأهميتها ، يقول العلم فى هذا
الصدد : إن الله لم يخلق الثديين للأنثى عبثا ، بل خلقهما لترضع منها أطفالها ، فيجب عليها إذن :
إرضاع طفلها المدة الكافية ، فإذا رفض الطفل أخذ ثديها ، أو أحست هى بقلة لبنها ، فعليها أن
تستشير الطبيب ، ليعرف سبب هاتين الحالتين ، فتعالجه ليرجع الطفل إلى غذائه الطبيعى .
ويقول العلم : إن الأم التي ترضع طفلها يتحسن جسمها ، إذ أن المبيضين يفرزان أثناء الرضاعة
مادة تقوى الجسم وتجمل شكله .

المقارنة بين لبن الأم ولبن الحيوان :

تحاول كثيرات من السيدات ، أن يرضعن أطفالهن بألبان البقر وغيرها ، ولكن الأفضل
والأصح : هو لبن الأم ، ذلك لأن لبن الحيوان ، قد يكون ملوثا بميكروب الدرن - مثلا - أو تكون
الأيدى التي حلبته غير نظيفة ، أو يكون الاناء كذلك ، أو يكون قد خلط بعناصر غريبة ، بالاضافة إلى
أن التحليلات ، قد أثبت أن اللبن تتكاثر فيه الميكروبات بسرعة ، فأين هذا من لبن ثدى الأم ، الذى
يدخل معدة الطفل معقما نظيفا . ، سبحانه ربى يامن قلت : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين
كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (٢) .

المقارنة بين لبن الأم والألبان الجافة :

أما الرضاعة بطريق الألبان الجافة ، فقد اجتهدت بعض المصانع فى تركيب ألبان كلبن الأم ،
ولكن سرعان ما عرف أن تعقيم اللبن ، يفقده ما فيه من الفيتامينات ، كما اتضح أن فى لبن الأم ، مواد
تقى الطفل من أمراض الجهاز الهضمى من قىء وإسهال ، كما تقيه من بعض الأمراض الأخرى ،
ولاشئ من هذه الخواص فى اللبن الصناعى .

فمن الذى أثبت لنا هذه الحقائق فى الصحة الغذائية ، منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ؛

(١) المائدة آية : ٩٠

(٢) البقرة آية : ٢٣٣

إنه القرآن الكريم الذى يقول : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (١)

ولماذا التحديد بحولين ؟

إنما حددت مدة الرضاعة بحولين لا أكثر ، لأن الأبحاث الطبية ، تفيد أن الطفل إذا أرضع أكثر من حولين تقل قواه العقلية ، ويتعرض للاصابة بالأنيميا .
فسبحان من يعلم مصالح عباده ويرشدهم إليها !
إعجاز علمى آخر :

قال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ (٢) .

ماذا يقول العلم فى قوله جل شأنه : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ ثم التعليل لذلك بقوله : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ ؟

إن فى ذلك إعجازا علميا . . ذلك لأن الآية الكريمة حددت الشعور بألم الاحراق فى الجلد السطحى للجسم ، فلو احترق الجلد ، ووصل الكى إلى اللحم ، لما كان هناك شعور بالألم ، لأن الأعصاب التى تشعر بالكى : موجودة فى الجلد دون سواه !

إذن : فمن الذى أثبت هذه الحقيقة العلمية ، التى لم يكتشفها الطب إلا منذ قرنين فقط ؛ ومن الذى أخبر أن مراكز الاحساس ، هى فى الجلد دون غيره ؛ إنه كلام العليم الخبير !!
القرآن والطبيعة الجوية :

قال سبحانه : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ (٣) .

نظرة فى هذا النص الكريم تفيد أن إنزال الماء من السماء مبنى ومترب على إرسال الرياح لواقح : فما السر فى هذا ؟ وماذا يقول العلم وتنطق الحقيقة به فى هذا الصدد ؛ إن العلم يثبت أن الرياح تقوم بتلقيح السحب بنوى التكاثف أو بمعنى آخر : هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر بسبب إرسالها ، لتتجمع فى صعيد واحد ، إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر .
إن الانسان لم يتوصل إلى هذه الحقيقة ، إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة ، التى يقيس بها عناصر الجو : مثل الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة وسرعة الرياح واتجاهها ، وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة .

يقول العلم بعد ذلك : إن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم « نويات التكاثف » وأهم أنواع هذه النويات - « أو النوى » - هى مساحيق ملح الطعام وكلوريد الكالسيوم ، التى تتطاير من سطح الأرض والبحر من تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أكسيد الكبريت الناتج عن عمليات الاحتراق .

(١) البقرة آية : ٢٣٣

(٢) النساء آية : ٥٦

(٣) سورة الحجر آية : ٢٢

ووظيفة هذه النوى ، بجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها ، لتكون نقطا صغيرة من الماء ، أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذي يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها ، فمن الذى أثبت - منذ أربعة عشر قرنا - هذه الحقيقة العلمية فى الطبيعة الجوية ، وهى أن الرياح تقوم بتلقيح السحب ، فيترتب على ذلك إنزال الماء ؟
إنه كتاب الله - عز وجل - أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض !
حقيقة تناقص الضغط الجوى والأكسجين مع الارتفاع :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يرد أن يضله ، يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ (١).

إن العلم يقف عند هذه الآية موقف الاكبار والاجلال والإعظام ، مقرا بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر ، إنما هو كلام خالق القوى والقدر .

لماذا يضيق الصدر عندما يصعد الانسان فى طبقات الجو ؟

إن وراء ذلك التعبير سرا علميا وحقيقة ثابتة .

فماذا يقول العلم والعلماء ؟

يقول العلم : إن الصدر عندما يرتفع الانسان فى طبقات الجو يحس بضيق ناشئ عن نقص الضغط الجوى وكميات الأكسجين التى تستقبلها الرئتان ، وهذه الحقيقة ، ليس من السهل تقريرها عمليا ، إلا إذا صعد الانسان فعلا فى الجو .

ثم يقول العلم : إن من عناية الله بسكان هذا الكوكب الأرضى أن جعل له غلافا هوائيا ، يقع تحت طائل قانون الجاذبية فى نفس الوقت ، الذى يخضع فيه لقانون الانتشار ، فهو يتمدد ، ولكن بدرجة لاتسمح له بالإفلات من قبضة الأرض ، والتلاشى فى خضم الفضاء الفسيح ، إلا بعد مئات الأميال من سطح الأرض .

ثم يستطرد العلم قائلا : كلما صعد الانسان قدما فى السماء ؛ صار الهواء قليل الضغط والكثافة .. والعكس صحيح .

وعلة ذلك أنه يستجيب للضغط الواقع عليه ، وبطبيعة الحال : تضغط كل طبقة على كل ماتحتها وعند سطح الأرض تبلغ مقادير هذا الضغط وزن كيلو جرام واحد على الستيمتر المربع ؛ ومن ثم : فإنه قد ثبت أن الانسان ، إذا ارتفع نحو ستة كيلو مترات : فإن الضغط الجوى ، يعادل نحو نصف قيمته عند سطح الأرض ، بمعنى أن نصف كتلة الغلاف الجوى ، إنما تنحصر بين سطح الأرض وهذا الارتفاع ، ولقد بنى الله أجسامنا ، بحيث تتحمل على سطح الأرض هذا الضغط ، الناجم عن تراكم طبقات الهواء إلى قمة الغلاف الجوى ، وتكفى كميات الأكسجين العالقة فيه لتنقية الدم وبقائنا على قيد الحياة !

وعلى هذا فيستفاد من هذا التقرير العلمى ، أن الانسان كلما ارتفع إلى أعلى تناقص الضغط الجوى والأكسجين ، فيشعر بضيق فى الصدر .

وذلك ماقرته تلك الآية الكريمة : ﴿ يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾^(١) .
سبحانك ربى : أنت العليم الحكيم ، وأنت على كل شيء قدير !

القرآن حق :

فالقرآن الكريم فى بلاغته وأسلوبه معجز ، وفى نبوءاته معجز ، وفى حقائقه التى أكدها العلم فى أبحاثه معجز : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان عفورا رحيم ﴾^(١) .
المقدمة الثالثة :

(النبى ﷺ حق)

كما ثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، وكما ثبت كذلك أن القرآن حق ، وحيث كان ذلك كذلك ، فإن النبى ﷺ الذى أوحى الله إليه هذا القرآن : حق .

لأنه ثبت بطريق التواتر القطعى ، أن النبى محمدا ﷺ كان أميا ، لم يذهب إلى أستاذ ، ولم يتلق العلم على يدى فيلسوف ؛ كما أنه لم يجلس أمام معلم ، إنما تلقى علمه بطريق الوحي من رافع السماء بلا عمد .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾^(٢) ، ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾^(٣) ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجدد بآياتنا إلا الظالمون ﴾^(٤) .
فمن الذى علم محمدا ﷺ هذه النواحي المعجزة فى القرآن العظيم ، وهو الأمى الذى لم يتلق علمه على يدى بشر ؟

من الذى علمه أخبار الأنبياء السابقين وأممهم السالفة ؟
إنه الحق جل جلاله ، الذى ختم له قصص الأنبياء بآيات تفيد أن المصدر الوحيد ، هو الله وحده .

فبعد أن حدثه عن قصة نبى الله نوح عليه السلام ، قال فى نهايتها :
﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك : ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾^(٥)

وبعد ذكر قصة كليم الله موسى عليه السلام يقول له : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾^(٦) . ويقول له أيضا : ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾^(٧) ويقول : له كذلك : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾^(٨) .

(٥) هود آية : ٤٩

(٦) القصص آية : ٤٤

(٧) القصص آية : ٤٥

(٨) القصص آية : ٤٦

(١) الفرقان آية : ٦

(٢) النمل آية : ٦

(٣) الشورى آية : ٣

(٤) العنكبوت الأيتان : ٤٨ ، ٤٩

وبعد قصة الصديق يوسف عليه السلام يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (١).

وبعد قصة آل عمران يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٢).

وبعد قصص الأنبياء يقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ (٣)، ويقول : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (٤).

كل هذا وغيره يدل دلالة قاطعة على أن هذا النبي الأُمِّي إنما أرسله الله بأهـدى ودين الحق ، بعد ما أقسم بالنجم على تزكيته في شتى نواحي شخصه :

زكى عقله : فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٥).

وزكى لسانه ، فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٦).

وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٧).

وزكى أستاذه وجليسه ؛ فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٨).

وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (٩).

وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (١٠).

وزكاه كله ، فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١١).

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ورزقنا الله شفاعتك وشرف المرافقة ..

يوم مجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .

في أى الجامعات تخرج هذا النبي الأُمِّي ؛ وعلى أى الأساتذة تلقى علومه ، إنه تخرج في جامعة الأنبياء ، التى يقول فيها الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١٢).

وتلقى علومه من علام الغيوب الذى يقول .

﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ (١٣).

وكان موضوع رسالته : القرآن .

وهو أعظم كتاب ، نزل به أعظم ملك ، على أعظم نبي في خير ليلة في أفضل شهر في أكرم

بلد !

قال تعالى في حق القرآن العظيم : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (١٤).

- (٨) النجم آية : ٥
(٩) النجم آية : ١١
(١٠) النجم آية : ١٧
(١١) القلم آية : ٤
(١٢) الأنبياء آية : ٢٥
(١٣) النساء آية : ١١٣
(١٤) الزخرف آية : ٤

- (١) يوسف آية : ١٠٢
(٢) آل عمران : ٤٤
(٣) طه آية : ٩٩
(٤) هود آية : ١٢٠
(٥) النجم آية : ٢
(٦) النجم آية : ٣
(٧) النجم آية : ٤

وفي حق الملك : ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾ (١)
 وفي حق النبي ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٢) .
 وفي حق الليلة : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ (٣) .
 وقال فى حق الشهر الذى نزل فيه القرآن الكريم ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ (٤) .
 وقال فى حق البلد الذى بدأ فيه نزول القرآن : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن ﴾ (٥) .
 من علم محمدا هذه الحقائق الغيبية ؟
 إنه ﴿ عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ﴾ (٦) .
 ومن الذى علمه تلك الحقائق العلمية ، علم الأجنة وحقائق الأرحام ؛
 ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٧) !!
 هل ذهب محمد ﷺ إلى المعامل ، وهل استعمل أنابيب الاختبار ، واستخدم التجربة ، واستعمل الآلات الدقيقة ، التى يستخدمها العلماء فى العصر الحديث .
 بل من الذى علم محمدا ﷺ علوم البحر ؛
 ذكروا أن المستر « براون » - أحد رجال البحرية البريطانية - درس القرآن ، فوقف عند قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاها موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ (٨) .
 قرأ المستر (براون) هذه الآية الكريمة ، وأعمل فكرة فيها ، فوجدها قد اشتملت على حقائق ثابتة فى علوم البحار ، فسأل أحد علماء الهند المسلمين وقال له :
 « أركب محمد نبيكم البحر ؛ »
 قال العالم : لا
 قال : (فمن الذى أخبره بعلوم البحر ؛ أشهد بأن هذا الكلام ليس كلام محمد ، إنما هو وحي من رب محمد) .

(٥) النمل الآيتان : ٩١ ، ٩٢
 (٦) الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
 (٧) المؤمنون الآيات : ١٢ ، ١٤
 (٨) النور آية : ٤٠

(١) التكويد آية : ٢٠
 (٢) الأنبياء آية : ١٠٧
 (٣) القدر الآيات : ١ - ٣
 (٤) البقرة آية : ١٨٥

وعندئذ نطق « براون » بالشهادتين ودخل الاسلام ، بسبب بحثه وإعمال فكره .
هذا هو الحق ينطق بلسان الصراحة والقوة ، عندما يتجرد العقل من الضلالة العمياء والجهالة
الجهلاء .

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه :
إن العقل البشرى فى ميسر الحاجة إلى رسالات السماء ، ولا يمكن أن يسلك طريق الحياة
معتمدا على ذاته .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ العلامة رشيد رضا :
(إن حكمة الحكماء وعلومهم : آراء بشرية ناقصة ، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب ، إلا أنه
موجود مجهول ، وهى عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس ، وما كل من
يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته ؛ إذ لاسلطان لها على
وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الايمان وإسلام الاذعان والتعبد ، لأن النوع البشرى يأبى طبعه
وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى بشريته ، واتفاقه فى علمه وحكمته ، وإنما يدين
لمن يعتقد أن له سلطانا غيبيا عليه ، بما يملكه من القدرة على النفع والضرر بذاته ، دون الأسباب
الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه ؛
ثم يستطرد الأستاذ العلامة فيقول :

وأضرب لهذا مثلا : إنه كان للفيلسوف الرئيس « ابن سينا » خادم متعلم ، فعجب بعلومه
وفلسفته ، وكان يعجب منه : كيف يدين بجملة محمد ﷺ ويتبعه ، وهو فى رأيه أعلم منه وأرقى ؟ .
وكان يكاشفه بذلك ، فيعرض عنه « ابن سينا » أو يوبخه ؛ فاتفق أن كانا فى مدينة « أصفهان »
فى ليلة شديدة البرد ، كثيرة الثلج ، فأيقظ الرئيس « ابن سينا » خادمه فى وقت السحر ، وطلب منه ماء
ليتوضأ به ؛ فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل ، ثم أيقظه الرئيس فى وقت أذان الصبح ، وطلب منه
الماء ، فاعتذر بشدة البرد حتى إذا قال المؤذن :

أشهد أن محمدا رسول الله ، قال الرئيس لخادمه : (اسمع ماذا يقول المؤذن ؟ قال : إنه يقول :
أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ ، قال الرئيس : الآن قد آن لى أن ابين لك ضلالك القديم ، إنك
خادمى ، لا هم لك غير خدمتى ، وإنك أشد الناس إعجابا بى وإجلالا وتعظيما لى ، حتى إنك تفضلنى
على رسول الله ﷺ ، وتنكر على أن أومن به وأتبعه ، وإنك على هذا كله تخالف أمرى فى أهون خدمة
أطلبها منك فى داخل الدار ، معذرا بشدة البرد ، وإن هذا المؤذن الفارسى يخرج من بيته قبل الفجر ،
ويصعد هذه المنارة ، وهى أشد مكان فى البلد بردا ، حتى إذا لاح له الفجر ، أشاد فى أذانه بذكر محمد
العربى ، بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته ، إيمانا وإذعانا وتعبدنا واحتسابا) ؟
فتأمل هذا وتدبره فى نفسك ، يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس ، وسلطان العلم
والفلسفة . « انتهى كلامه » .

من الذى أرشد رسول الله ﷺ ، إلى هذه النظم القويمة وتلك المناهج السليمة : سياسيا ،
اجتماعيا ، واقتصاديا ، وأخلاقيا ، وعسكريا ، وعقائديا ؛

إنه الله الذي أقسم له قائلا : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم ﴾^(١) .

* البعث حق *

بعد هذا الذي أسلفنا وثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، والقرآن حق ، والنبى ﷺ حق ، نقول إن كل ما جاءنا من الله وبلغه عنه رسوله ﷺ : فهو حق .
﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾^(٢) ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾^(٣) .
ومن القضايا التى سجلها القرآن الكريم فى عديد من المواضع : أن هناك حياة مديدة وخالدة ، وأبدية ، ولا نهائية ، بعد مرحلة الدنيا وانتهائها ، إنها الحياة الآخرة !
لذلك أقسم الله فى عديد من آياته على أن البعث واقع وحق . . . أقسم بالرياح الذاريات ، والسحب المثقلات ، والسفن الجاريات ، والملائكة المقسمات ، فقال ﴿ والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إن ما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾^(٤) .
إذن : فجواب القسم هنا : هو صدق الوعد ووقع الجزاء ، حتى أن الله تعالى سمي البعث : بالنبأ العظيم ، وألقى باللائمة على الذين يختلفون فى شأنه : كيف يقع منهم ذلك ، وآيات الله البيّنات ناطقة بقدرته على ما هو أعظم منه شأننا وأبعد شأوا ؟
﴿ هم يتساءلون ؟ . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون ؟ . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ﴾^(٥) .

ثم يعدد آيات قدرته فيقول : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنانا ألقافا ؟ !
إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾^(٦) .
ولما ثبت تقرير هذه المسألة - مسألة البعث - فى القرآن العظيم وأصبح العلم بها ضروريا ، نجد أن مولانا تبارك وتعالى : يقسم فى بعض المواضع ، على أن هذا الأمر حق ، ولا يذكر جواب القسم ، لأن السياق والسباق واللاحق يدل عليه :
يقول سبحانه : ﴿ ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد ﴾^(٧) .
فالله سبحانه قد أقسم بالقرآن المجيد ، ولكن أين جواب القسم ؛ إنه من الظهور والوضوح

(٥) النبأ الآيات : ١ - ٥
(٦) النبأ الآيات : ٦ - ١٨
(٧) ق الآيات : ١ - ٣

(١) يس الآيات : ١ - ٤
(٢) الأحزاب الآيات : ٤٥ ، ٤٦
(٣) المائدة الآية : ٦٧
(٤) الذاريات الآيات : ١ - ٦

بحيث لا يحتاج المخاطب إلى ذكره ، لأن السياق يدل عليه : ﴿ أفعمينا بالخلق الأول ﴾^(١) ؟ إذن : فليعلم أن جواب القسم تقديره « ليعثن » .

وإذن : فليكن التقدير هكذا : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ليعثن
وفي موضوع آخر يقسم الله تبارك وتعالى قائلا : ﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا ﴾^(٢) .
على أي شيء يقسم الله بهذه الجماعات من الملائكة : التي تنزع الأرواح وتخرجها ، وتسبح بها ، وتسبق إلى تنفيذ أمر ربها ؟

إن جواب القسم معلوم الثبوت من قوله تعالى :
﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردون في الحفرة ؟ . أئذا كنا عظاما نخرة ۝ ١٩ ﴾^(٣) .

وإذن : فليكن جواب القسم تقديره : « لتبعثن »
كل هذا دليل على أن البعث حق لا مرية فيه ولا جدال بعد ما ثبت من القضايا التي قررناها وبينناها
أن الله حق والقرآن حق والنبى ﷺ حق .
وإذن : فما حقيقة البعث ؟

البعث بالروح والجسد :
﴿ وعرضوا على ربك صفا : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾^(٤) .

أقوالهم في البعث

ثار جدال حول هذه القضية :
فذهب بعضهم مذهبا باطلا وهم بعض الفلاسفة القدامى ، فقالوا :
إن البعث روحاني فقط ، وغفلوا عن أن قضية البعث ، لا يكون العقل فيها هو المرجع في ثبوت حقيقتها وكيفية شكلها وجوهرها وموضوعها ، وإنما المرجع في ذلك كله إلى الله وحده لا شريك له .
وقد تضافرت آيات الكتاب الكريم ، على أن البعث الانساني : إنما هو بالروح والجسد . قال سبحانه وتعالى - في حق المشركين : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾^(٥)

(١) ق الآية : ١٥

(٢) النازعات الآيات : ١ - ٥

(٣) النازعات الآيات : ٦ - ١١

(٤) الكهف آية : ٤٨

(٥) القمر الآيات : ٦ - ٨

وقال في حق البشرية جمعاء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ : إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾^(١)

وقال أيضا : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾^(٢) وقال سبحانه : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾^(٥) .

وقال سبحانه : ﴿ فإذا برق البصر . وخنسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ ﴾^(٦) . وقال أيضا : ﴿ وحيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾^(٧) .

ففى التعبير بلفظ « الإنسان » فى الآية الكريمة ، دليل صريح على أن البعث روحانى وجسمانى ، قال سبحانه : ﴿ ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾^(٨) .

يقول العلامة الأستاذ رشيد رضا فى هذا الصدد :

« البعث الإنسانى : جسمانى روحانى » كما جاء فى القرآن : مخالفا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء . . إن الإنسان فى الحياة الأخرى ، يكون إنسانا كما كان فى الدنيا . . . إلا أن أصحاب الأنفس الزكية ، والأرواح العالية ، يكونون أكمل أرواحا وأجسادا مما كانوا عليه ، وذلك بتزكية أنفسهم فى الدنيا ؛ وأصحاب الأنفس الخبيثة ، والأرواح السافلة ، يكونون أنقص وأخبث مما كانوا ، وذلك بتدسية أنفسهم فى الدنيا .

ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين ، أن الأديان القديمة ، كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد ، إلا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم ، فيبعثون بها عينا ، ولكن بين القرآن أن كل من على الأرض فان ، وأنها تكون بقيام هباء منبثا . وقال علماء العقائد من أهل السنة : إن بعث الأجساد يكون بعد العدم التام .

(١) الحج الآيتان : ١ - ٢

(٢) الأعراف آية : ٣٠

(٣) الأنبياء آية : ١٠٤

(٤) الحج الآيتان : ٦ ، ٧

(٥) الأنعام آية : ٩٤

(٦) القيامة الآيات : ٧ - ١٠

(٧) الفجر الآية : ٢٣

(٨) يس الآيتان : ٥١ ، ٥٢

قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ (١) .

ولو كان البعث للأرواح وحدها ، لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق ، المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجسمانية ، ويتحقق حكم الله وأسرار صنعه فيها معا ؛ : من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى ، والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد ، إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية ، مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصا في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها ، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها . وأصل هذا الافراط - أو التفريط - غلو الهند في احتقار الجسد ، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضيات الشاقة ، وتبعهم فيه نساك النصارى ، كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث .

على أنهم نقلوا أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح ، وقال لهم : إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت ربى) (متى ٢٦ - ٢٩) .

وجرى اليهود على عكس ذلك .

وجاء الاسلام بالاعتدال ، فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا في إنسانيته ، مرجحا لروحانيته على حيوانيته ، متزودا من دنياه لآخريته .

ويؤخذ مما ورد في الآيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ، أن القوى الروحية ، تكون هي الغالبة والمتصرفة في الأجساد ، فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة ، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة والتخاطب بالكلام ، بين أهل الجنة وأهل النار ، وإن ترقى البشر في علم الكيمياء ، وخواص الكهرباء والصناعات في عصرنا ، قد قرب كل هذا من حس الانسان ، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدونها من تخيلات سيدنا محمد ﷺ كما في قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) .

وما نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوروبا بالمسرة ، ونسمع خطبهم بالمذيع ، ونراهم ويروننا بآلة التليفزيون أ . هـ وهكذا ينتهى بنا المطاف من هذا البحث ، إلى أن عقيدة المسلم الصحيحة في قضية البعث ، أن الانسان سيبعث بروحه وجسده يوم القيامة .

قال سبحانه وتعالى في أهل الجنة : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ (٣) .

(١) الواقعة الآيات : ٦٠ - ٦٢

(٢) الأعراف آية : ٤٤

(٣) مريم آية : ٨٥

وقال في أهل النار : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾^(١) .
 وقال في أهل الجنة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾^(٢) .
 وقال في أهل النار : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾^(٣) .
 فعليك يا أخا الاسلام أن تركز هذا المعنى في قلبك ، وتعلم أنك ستخرج يوم القيامة من القبر بروحك وجسدك ، فاعتقد هذا لتلقى الله بعقيدة سليمة صحيحة ، تؤيد مانطق به القرآن الكريم ، المنزل على نبيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه .

الجزء الأخرى

حسى ومعنوى

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فاما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حيم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾^(٤) .

هذا المشهد القرآنى العظيم الرائع ، يبين لنا حقيقة القضية ، التى ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية البعث : ألا وهى قضية الجزاء فى الآخرة ، والتى ينطق بها الكتاب الكريم حيث يقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾^(٥) .

ثم أن الجزاء فى الآخرة ، مظهر من مظاهر العدالة الالهية ، فقد شاءت حكمة الله العليا ، أن يلهم النفس فجورها وتقواها ، بعد ما بين لنا طريق تزكيتها وتدسيستها ، وشاء جل شأنه ان يهذى الانسان السبيل :

إما شاكرا وإما كفورا ، بعد ما جعله سميعا بصيرا ، كما أراد سبحانه أن يهديه النجدين ، بعدما جعل له عينين ولسانا وشفقتين .

ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة فى جلاء ووضوح فقال :

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٨ - ٣٧

(٢) سورة الزلزلة كاملة

(٣) مريم آية : ٨٦

(٤) القيامة الأيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٥) القيامة الأيتان : ٢٤ ، ٢٥

﴿ إن سعيكم لشتى . فآما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾^(١) .

إذن : فالطريق واضحة المعالم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾^(٢) .

فالجزاء : عدالة إلهية : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾^(٣) .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾^(٤) .

والقضية التي نعرض لها في هذا البحث : تدور حول حقيقة الجزاء والعقيدة ، التي يجب أن يعتقدها المسلم هي : أن الجزاء في الآخرة حسى ومعنوى .

وفي هذه القضية تعثرت أقلام وزلت أقدام وانفلت خيال بعض الكلبيين ، الذين اتبعوا في بحثهم هواهم ، ولم يتبعوا هدى الله . فقد ذكروا أن الجزاء الأخرى معنوى فقط ، لا دخل له بالأمور الحسية ، وكانوا في ذلك بعيدين كل البعد عن المصادر الأساسية ، التي تستقى منها المعلومات اليقينية ألا وهي : (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) وظنوا أن قولهم بمعنوية الجزاء ، يعطيهم سموا في التفكير ، أ ورقة في الطبع ، وغفلوا عن أن الجانب الحسى في الجزاء ، له أثره ، وله قيمته ومكانته في الآخرة ؛ ثوابا كان أو عقابا ، وأن القضية ليست موضع إجتهد ، أو قول بالرأى بعد مادل على ذلك صدق الأدلة القرآنية كما ظنوا أن القول بمعنوية الجزاء ، أمر يدعو إلى الرأفة بالذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وغفلوا عن أن الذى قرر هذا الجزاء : هو الله ، أرحم الراحمين ، الذى ييسط يده بالليل ، ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل والذى يقول في الحديث القدسى الجليل : ﴿ أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرنى : فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملائحته ذكرته فى ملائحته منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيتته هرولة ﴾^(٥)

لما قال إبليس لرب العزة : لأغوينهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، قال الله له : « لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى » إذن : فأى داع يدعو إلى أن نقول بأن الجزاء معنوى فقط ، بعدما تبين لنا فى البحث السابق ، أن البعث روحانى وجسمانى ؛ فإذا كان الروح والجسد متعاونين فى الدنيا على الخير والشر ، فإن منطق العدالة ، يقضى أن يكون الجزاء مطابقا لحالهما ، فهما مرتبطان متعاونان ، فلم يقتصر الجزاء على جانب واحد ، وهو جانب المعنويات ، بعدما تضافرت الأدلة على ثبوت الجانبين فى الجزاء : ثوابا كان أو عقابا ؟ .

(١) الليل الآيات : ٤ - ١٠

(٢) القلم آية : ٣٥

(٣) ص الآيات : ٢٧ - ٢٨

(٤) فصلت آية : ٤٦

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ح ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ من رواية لأبى هريرة (انظر الصفحة التالية)

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، ج ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ من رواية لأبى هريرة .

وفي المشهد القرآني الذي صدرنا به هذا البحث يلتقي الجزء المعنوي بالجزء الحسي ، بالنسبة لأهل الجنة وأهل النار :

فالجزء المعنوي لأهل الجنة يتمثل في قوله تعالى : ﴿ فبهو في عيشة راضية ﴾ ^(١) .
والجزء الحسي : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ ^(٢) .
كما يتمثل الجزء المعنوي لأهل النار في قول كل منهم ﴿ ياليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حساييه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ ^(٣) .
ندامة وخزي وذل وانكسار !

كما يتمثل الجزء الحسي في العقوبة في قوله جل شأنه : ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ ^(٤) .

وهل هناك أوقع على النفس بالنسبة لأهل النار - من الجهة المعنوية - من قوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ ^(٥) ومن الجهة الحسية في قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ ^(٦) .
والغسلين : هو ما يسيل من أجساد أهل النار !

ثم ماذا يقول القائلون بمعنوية الجزء في قوله جل شأنه :
﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ ^(٧) .
أليست الجنات حسية والأنهار حسية والثمرات حسية والازواج حسية .
وماذا يقولون في قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ ^(٨) .

أليست النار حسية ؟

أليس نضج الجلود حسيا ؟

أليس ذوق العذاب حسيا ؟

إن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل ، وإن اتبع الهدى أقوم سبيلا من غواية الهوى .
إننا كثيرا مانلمح آيات في القرآن الكريم ، تجمع بين الجزاءين الحسي والمعنوي في أسلوب رفيع وبلاغة معجزة .

(١) الحاقة آية : ٢١

(٢) الحاقة آية : ٢٤

(٣) الحاقة الآيات : ٢٨

(٤) الحاقة الآية : ٣٠ - ٣٢

(٥) الحاقة الآية : ٣٥

(٦) الحاقة الآية : ٣٦

(٧) البقرة الآية : ٢٥

(٨) النساء آية : ٥٦

منها قوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

ولأننا نلمح الجزء الحسى واضحا في الجنات والأنهار والمساكن ، ونلمح الجزء المعنوى جليا في الخلود ورضوان الله ، ونلمح الخاتمة السعيدة متمثلة في الفوز العظيم .

كما تمثل الجزء بالنسبة لجانب العقوبة حسيا ومعنويا في قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعبدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٢) .

إنك ايها القارئ الكريم تلمح بوضوح الجزء المعنوى متمثلا في قوله جل شأنه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعبدوا فيها ﴾

فلفظ (كلما) يفيد التكرار ولفظ : الغم يملأ جنبات النفس أسى ولوعة ، تكاد الكبد تنفطر منها ، والقلوب تنخلع من هولها .

وتلمح العذاب الحسى في هذه الآية الكريمة متمثلا في قوله جل شأنه : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾

وتعال معى لترى الجزء الآخرى متمثلا في سورة الرحمن ، التى إذا قرأها المؤمن بتدبر وإعمال فكر ، ومر بآيات العذاب فيها : شغربان زفير جهنم بين أذنيه ، فإذا مر بآية تبشر بالجنة : بكى شوقا إليها .

أقرأ معى هذه الآيات في جزاء المجرمين ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (٣) .

أرأيت وسمعت الى هذه الأهوال الجسام ؟

المجرمون لهم علامات تميزهم : فهم سود الوجوه زرق العيون تأخذهم الزبانية أخذا عنيفا من نواصيهم

ومقدم رؤوسهم ومن أقدامهم ليطوفوا بين جهنم وبين ماء حميم بلغت درجة غليانه النهاية القصوى يصهر به مافى بطونهم والجلود ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بشس الشراب وساءت مرتققا ﴾ (٤) .

صدقك يا رسول الله يامن قلت وقولك الحق :

(اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ﴾ (٥) .

(١) التوبة آية : ٧٢

(٢) الحج آية : ٢٣

(٣) الرحمن الآيات : ٤١ - ٤٤

(٤) الكهف آية : ٢٩

(٥) كنز العمال ج ١ ص ٦٠٩ برقم ٢٧٩٤ وحلية ج ٣ ص ١٠٣

ويا من قلت وقولك الصدق : ﴿حركوا به القلوب وقفوا عند عجائبه﴾
 يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى سمع قارئاً يقرأ من سورة الطور :
 ﴿والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور﴾ حتى إذا
 بلغ قوله تعالى : ﴿إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع﴾^(١) خر عملاق الاسلام مغشياً عليه ،
 لسماعه تلك الآية ، حتى لقد ذكروا أنه ظل مريضاً شهراً كاملاً ! تعال معى يا أخا الاسلام ، لنطوف
 برياض الجنة ، وننعم بوارف ظلها ، ونمتع النفس بروحها وريحانها .

قال سبحانه : ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان فبأى آلاء
 ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء
 ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهن
 قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى
 الآء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾^(٢) .

هنيئاً لكم يا من فزتم بهذه الدرجة العليا من درجات الجنان ، يقول ترجمان القرآن عبد الله بن
 عباس رضى الله عنهما :

«الجنتان : بستانان فى عرض الجنة» وكان الله حكمة أن يعطى المؤمن جنتين .
 فقد قال بعض المفسرين : (إن فاكهة الدنيا قد يموت بعض الناس دون أن يأكلها ، فيخلقها له
 الله يوم القيامة فى جنة وفاكهة الآخرة : فى جنة)
 والأفنان : هى الأغصان .

وإذا كانت بطائن الفرش من إستبرق ، وهو ماغلظ من الحرير ، فكيف تكون حال الظهارة .
 والمراد بجنى الجنتين : ثمارها وقطوفها الدانية القريبة ، التى تنالها الأيدي دون عناء أو نصب .

وأما قاصرات الطرف : فالمراد بهن نساء الجنة .
 والمراد أنهن حابسات العيون على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، وهؤلاء الأزواج المطهرة ، لم
 يفيض بكارتهن إنس ولا جان ، وقد شبههن بالياقوت والمرجان : جمالا وصفاء ، هل جزاء الاحسان إلا
 الاحسان .

هذا منطق العدالة الالهية المطلقة .

اللهم إنا نسألك الفردوس يارب العالمين .

وتلك درجة عالية من درجات الجنة .

فتعال معى إلى درجة أخرى ينالها أقوام طبقاً لأعمالهم :

قال سبحانه : ﴿ومن دونها جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما

(١) الطور الآيات : ١ - ٨

(٢) الرحمن الآيات : ٤٥ - ٦٠

تكذبان . فيها عيانان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيها فاكهة ونخل ورمان فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات في الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام^(١) .
هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة ، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾

ولعل القارئ إذا استعرض أوصاف الجنتين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ واستعرض الجنتين المذكورتين في قوله جل شأنه : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ لعله بعد هذا الاستعراض ، يجد أن كلا منهما اشتمل على الفاكهة والثمار ، والاتكاء على الأرائك ، والخور العين ، التي لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان .

ولعله بعد ذلك يسأل فيقول : فأين التفاضل إذن ، وقد اشتمل كل منهما على ما اشتمل عليه الآخر ؟

والجواب على ذلك ، يظهر جليا في ذلك الحديث الذي رواه البخاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (جنتان من فضة : أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب : أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)^(٢) . أخرجه الجماعة وورد في الحديث أيضا في قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .
(المراد بالورق : الفضة)

وهذه الآيات عامة في الجن والانس ، إذ مبني الجزاء على العمل وعلى العمل وحده . وإذن فالتفاضل ، إنما هو في المادة التي اشتملت عليها كل من هذه الجنان ، كذلك في علو درجاتها ، وفي قرب أصحابها من الله تعالى قال سبحانه : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾^(٣) فقد ظهر التفاضل في معادنها ومواد صنعها ، كما ورد في الحديث الشريف .
أما معنى قوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ فإنها شديدتا الخضرة من كثرة الري ، حتى كأنهما تبدوان في لون أسود .

أما العيانان النضاختان ، فإنها فوارتان ، تخرجان الماء بصورة بديعة ، ومنظر جميل . ولعلك إذا قارنت الجنتين السابقتين بهاتين الجنتين : تجد أن الله وصف الأوليين بقوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾

(١) الرحمن الآيات : ٦١ - ٧٨

(٢) أخرجه البخاري : ج ٦ ص ١٨١ / أحمد ج ٤ ص ٤١١

(٣) الأنعام آية : ١٣٢

ووصف هاتين بقوله : ﴿ مدهامتان ﴾ والأول أعلى درجة ووصف الأولين بقوله : ﴿ فيها عینان تجريان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيها عینان نضاختان ﴾ والجري أوقع في النفس وأروع في صوره .
ووصف الأولين بقوله تعالى : ﴿ فيها من كل فاكهة زوجان ﴾
ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيها فاكهة ونخل ورمان ﴾

وأنت خير بالفرق بين لفظ (كل) وبين الآية الثانية ، وقد وفد وفد من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد : أفي الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها فاكهة ونخل ورمان قالوا : أفياكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : نعم وأضعاف ذلك قالوا : أفيقضون الحوائج ؟ قال : لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله ما في بطونهم من أذى ^(١) .

فسبحانك رب أعددت لأهل الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .
والمراد بقوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ : الحور العين ، والحور : جمع حوراء ، وهي التي صفا بياض عينيها وسوادهما ، والعين : جمع عيناء ، وهي واسعة العينين ، وقد وصف الله الحور في الآيات الأولى بقوله تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ ووصفهن هنا بأنهن ﴿ مقصورات في الخيام ﴾ والقاصرة : أفضل من المقصورة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ الوسائد وهي جمع وسادة وهذا مارآه الحسن البصري رضي الله عنه .

والمراد بالعبقري الحسان : هي البسط التي بلغت من الحسن والجمال مبلغ الغرابة والعجب ، وهذا رأى الحسن أيضا

ويحسن أن يكون العبقري من كل شيء : أعجبه وأغربه وذلك وصف ينطبق على كل مافي الجنة .

وقد وصف الله أصحاب الدرجات الأولى بقوله : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ وليس ثمة أدنى ريب أن الأرائك ، التي يضطجعون عليها ، تكون أروع وأوقع في النفس ، إذا كانت بطائنها من حرير خالص .

وقد ختم الله تعالى هذه السورة بقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ : فقد عظمت بركته ، وعمت رحمته ، وبلغت حكمته ، وهو الحقيق بالاكرام ، والعظمة والجلال .

وقد تخللت الآيات الكريمة ، آية مخاطب الثقيلين من الجن والانس ، وهي قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

والاستفهام هنا يفيد الانكار ، الذي يؤدي معنى النفي : أي ليس هناك آية ولا نعمة من آلاء الله

ونعمه ، يكذب بها ، فقد ظهرت واضحة جلية : فبأى آية وبأى نعمة تكذبان يامعشر الجن والانس ؟ !

وتكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في تلك السورة ، التي اشتملت على ثمان وسبعين آية يدل على طبائع النفس البشرية ، التي انطوت على نسيان الجميل وجحود النعمة : ﴿ إن الانسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد ﴾^(١) فيا أخا الاسلام :

بادر بفعل الباقيات الصالحات ، لتكون من المقربين ، أو أصحاب اليمين ، الذين إذا دخلوا الجنة ، نادى مناد من قبل الله تعالى ، فقال يا أهل الجنة : ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبدا ولكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴾^(٢) . . . ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾^(٣) .

فالموت لاشك يفينا ويفنيها	لاتركنن إلى الدنيا وما فيها
والجار أحمد والرحمن ناشيها	واعمل لدار غدا رضوان خازنها
والزعفران حشيش نابت فيها	قصورها ذهب والمسك طيبتها

ونخلص من هذا البحث وسابقه إلى أن عقيدة المسلم في البعث : أنه روحاني وجسماني ، وعقيدته في الجزاء أنه حسي ومعنوي ، بهذا نطق صريح الكتاب وصحيح السنة .

من مشاهد القيامة

اعلم يا أخا الاسلام أن الله أعد الجنة لكل طائع ، ولو كان عبدا حبشيا ، وأعد النار لكل عاص ، ولو كان حرا قرشيا .

﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوم ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إن جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾^(٤)

(١) العاديات الأيتين : ٦ - ٧

(٢) أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٥١ برقم ٣٢٩٧ / أحد ج ٣ ص ٩٥ ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ برقم ٢٨٣٧ / ٢٢

(٤) المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

(٣) الأعراف آية : ٤٣

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، تشيب له نواصي الأطفال ، وترتعد له العصبية أولو القوة ، وتختر من هوله الجبال هذا ، إنهم كانوا يتخذون من الناصحين محل سخرية واستهزاء ، يضحكون منهم ويسخرون بهم ، حتى إذا مازهبت السكره وحلت الفكرة ، وذوى غصن الشباب ، وانفض السوق قالوا :

﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

ولكن علام الغيوب لا تنظلي عليه الحيلة ، ولا يخدع بهذه الأضاليل ، فقد قال لهم : ﴿ إخشأوا فيها ولا تكلمون ﴾

وهل رد إبليس من حظيرة القدس والرحمة ، إلا بسبب الاعجاب بنفسه والاستكبار على غيره ؟ .

وإذا كان سر الكبرياء قسامة الوجه ، وفراهة الجسم ، وشدة الأسر ، فأرسلها نظرة خاطفة إلى ما احتواه الجوف .

تعرف أن الانسان يكذب الناس بجمال عنوانه ، ويخدعهم عن خبيث أوصاره وأدراجه .

ثم خبرني : هل لهذا الحسن بقاء ، وفي كل يوم تتعاور سطورره بالمحو والفناء ؟

وما خطب قوتك التي اتعبت بها ألسنة الفخار ؟

أن وعكة من حمى : كفيلة ، ان تعفى على هذا السراب ، وتطوى صفحات ذلك الكتاب .

فلا قوة ولا جمال ولا شباب !

وهل أنا وأنت وهو ، إلا حفنات تراب تمشي فوق التراب !

تعال معي يا أخى ، لتسمع هذه الدرر الغوالي ، وتعي بقلبك هذه التوجيهات السامية ، التي وجهها سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه إلى الأمة في لحظات حياته الأخيرة ، حيث دنا من الرفيق الأعلى :

رووا انه لما اشتد المرض على رسول الله ﷺ جزع المسلمون وأحاطوا بالمسجد ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ متوكئا على العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما وكان عليه الصلاة والسلام معصوب الرأس فجلس في أسفل درجات المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (أيها الناس : بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبلي ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا أنى لاحق بربي وإنكم لاحقون بي .

فأوصيكم بالمهاجرين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد .

وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوأوا في الدار والايمان من قبلكم ألم يشاطروكم الثمار ؟

ألم يوسعوا لكم في الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من أحسنهما وليعف عن سيئتهما ألا وإنى سابق لكم وأنتم لاحقون بي ،

وإن موعدنا الخوض إلا فمن أحب أن يردّه على غدا فليتكف لسانه إلا فيما ينبغي)

سيدى ابا القاسم يارسول الله .

وأقمت بعدك للعباد شريعة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

لقد جئتنا يا أيها النور ، تحمل النور من مصدر النور ، لنقرأ فيك كتاب العجائب المنشور ، فأنت
فيما يارسول الله ولن تزال على وجه الزمان ، آية الآيات مادامت الأرض والسموات ، ومستظل فينا
تعاليمك السماوية المصونة المرغية ، التي نفديها بالأرواح والآباء والأمهات .

لقد حق فيك قول الله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ ^(١)
وكنت جديرا ، أن يجعل الله منك الأسوة الحسنة ، عندما خاطب الأمة فقال : ﴿ لقد كان لكم
في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ ^(٢) .
لقد بنيت بقوة الايمان نفوسا ، وأقمت على نور اليقين قلوبا ، عرفت الطريق إلى الله .

مع العمرين

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم .. إن التشبه بالرجال فلاح
وهذه كلمة عن رجلين أحدهما صحابي ، والآخر تابعي ، وكلاهما من النماذج التي يحتذى بها ،
فهما قد حكما المسلمين حكما قام على العدل والحق والزهد والنظافة ، فمن سار على هديهما هدى إلى
صراط مستقيم ، وكان ممن يقول الله فيهم :

﴿ إن المتقين في جنّات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ ^(٣)

إن الرجلين هما عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز
ومما يسرني ويسعد قلبي ، أن أذكر هنا وصية لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه -
يقدمها هدية خالصة إلى المؤمنين ، الذين يريدون وجه الله وجواره في الآخرة .
وقبل أن أكتب هذه الوصية الغالية ، فإننى أذكر نبذة مختصرة عن هذا الخليفة العابد الزاهد ،
خامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه وأرضاه :

- نسبه رضى الله عنه :

بينما كان الفاروق عمر رضى الله عنه ، يجوب شوارع المدينة ليلا - على عادته في عسسه - ينفض

(١) الشورى آية : ٥٢

(٢) الأحزاب آية : ٢١

الليل عن أهل الرية ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، إذا بصوت يخترق حجب الليل ، فيريه الفاروق سمعه ، ليتبين هذا الحوار العجب .

أم تقول لابنتها : دونك يا بنتي هذا اللبن ، فامزجيه بالماء ؛ فتجيب الفتاة أمها : أو ما علمت يا أمي بما كان اليوم من عزمة أمير المؤمنين ؟ فتقول الأم : وما كان من عزمته يا بنية ؟

فتجيبها : أنه أمر مناديه ، فنادى ألا يشاب اللبن بالماء .

فتقول الأم : امزجى يا بنتي اللبن بالماء ، فإنك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر ! فتقول البنت : والله يا أمي ما كنت أطيعه في الملا ، وأعصيه في الخلا ، وإن استطعت أن أستخفى من عمر ، فكيف أستخفى من رب عمر ؟ !!

سمع أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ذلك الحديث كله ، وكان معه رجل يدعى « أسلم » فقال : يا أسلم : اعلم المكان ، واعرف الموضع ، وما إن تنفس الصبح ، حتى ذهب « أسلم » في الوجه الذي ابتعثه إليه « عمر » باحثا متقصيا ، ثم عاد فأخبره أنها فتاة تعيش مع أمها ؛ وكلتاها أيم لا يعمل لها .

فما تردد عمر رضى الله عنه أن اختار هذه الفتاة ، التي أعجب بها ويكلامها ويأمانتها وخلقها لابنه (عاصم) ، فولدت لعاصم بنتا هي :

(ليل بنت عاصم) ، وولدت (ليل بنت عاصم) : (عمر بن عبد العزيز) الخليفة الزاهد .

ولا عجب بعدما اختار الله له هذه الغصون الطاهرة ، أن يتزرع إلى جده ابن الخطاب رضى الله عنه .

فقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه (تخيروا لنطفكم ، فإن العرق دساس) (١) .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أشبه الناس بعمر بن الخطاب حزما ، وعزما ، وعدالة ، وورعا ، ووداعة ، وتواضعا ، وعزوفا عن الدنيا وما فيها من مفاتن ومتاع .

ولقد كان اتفاق كليهما في الاسم من أعاجيب القدر ، فقد شاءت إرادة الله أن يسمى كل منهما

« عمر »

وقد أراد الله أن تأتى الخلافة منقادة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، تجر أذيالها ، وهو عنها راغب وعنها زاهد ، فكان مثالا يحتذى به في النزاهة والعدل والرحمة والزهد . . رضى الله عنه وأرضاه .

وبعد أن قدمنا هذا الموجز المختصر عن نشأة الخليفة الزاهد ، نأتى إلى وصيته الغالية فنقول :

خطب المسلمين عقب توليه الخلافة فقال - بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

(أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل

خلف ، واعملوا لأخرتكم ، فإن من عمل لأخrote كفاه الله أمر دينه ، وإن هذه الأمة لم تختلف في

ربها ، ولا في نبيها ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفت في الدينار والدرهم ، وإنى والله لأعطي أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدي حقا ؛

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس جميعا وقال : (ياأيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له .. أطيعوني ماأطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم) . وهكذا تكون الوصايا النافعة :

تبدأ أولا بتقوى الله ، فإن التقوى هي السلاح الأقوى . هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل !! ثم انظر إلى بعد النظر ، وإشراق القلب ، حيث يؤكد عمر حقيقة من الحقائق الواقعية ، إن هذه الأمة ربها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، لا اختلاف على شيء من هذه القضايا الثابتة ، فإذا وقع اختلاف في صفوفها ، فلن يكون في شيء من العقائد ، إنما سيكون الاختلاف على الدرهم ، والدينار ، والدنيا .

وقد سبق أن حذر المصطفى - ﷺ - من الدنيا حيث قال :

(إن هذه الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها : فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء)^(١) .

وفي حديث آخر : (إن هذا المال خضر وحلو ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع)^(٢) . صدقت ياسيدي يارسول الله :

قالوا أصبت ، وصدقوا ماقالا
أخطأت يا هذا ، وقلت ضللا
تكسو الرجال مهابة وجلالا
وهي السلاح لمن أراد قتالا .

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ
وإذا الفقير أصاب ، قالوا كلهم
إن الدراهم في المجالس كلها
فهى اللسان لمن أراد فصاحة

عبقريته رضى الله عنه :

وقد كان عمر بن عبد العزيز رجلا عبقريا عظيما ، إذ أنه طبق ماقاله تطبيقا عمليا ، فقد عمد في اليوم الأول من خلافته إلى كل مظاهر الملك من مواكب مطهمة ، وسراقات ضخمة ، وفرش فخمة ، فقال لمولاه « مزاحم » :

« يامزاحم : ضم هذا إلى بيت مال المسلمين » .

ودخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك فقال لها : (إن أردت صحبتي ، فردى مامعك من مال وحلى وجواهر إلى بيت مال المسلمين ، فإنه لهم .. فردته جميعه)

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ج ٢ ص ١٣٢٥ برقم ٤٠٠٠

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٦ كتاب الرقاق

وفاطمة هذه : هي بنت أمير المؤمنين ، وأخت أمير المؤمنين ، وزوجة لأمر المؤمنين ، ولكن عمر أراد أن يكون معها ، كما قال بعض الحكماء :

- وقد حدد موقفه من الأغنياء فقال - : (يأكلون وتاكل ، ويلبسون وتلبس ، وعندهم فضل مال ينظرون إليه ، وهم في القيامة محاسبون عليه ونحن منه براء) .

ذكروا أن هشام بن عبد الملك لما تولى الخلافة بعد أمير المؤمنين عمر ، عرض على أخته فاطمة زوجة عمر ، أن يرد عليها ما وضعه عمر في بيت مال المسلمين ، من حليها وجواهرها وثيابها ، وقال لها : (قد مات عمر)

فقالت بلسان اليقين . ومنطق الحق المبين : (والله ما كنت لأرضيه وهو حي ، ثم أغضبه وهو ميت)

وأبت أن يرد عليها شيء من ذلك .

ولقد كان لعمر رضى الله عنه غلام اسمه « درهم » يحتطب له ، فسأله عمر يوما عما يقوله الناس ، فقال (درهم) : (وماذا عسى أن يقولوا ؟ الناس كلهم بخير ، وأنا وأنت بشر) . فقال له عمر : « وكيف ذلك ؟ »

قال : (إني عهدتك قبل الخلافة عطرا ، لباسا ، فاره المركب ، طيب الطعام ، فلما وليت ، رجوت أن أستريح وأتخلص ، فزاد عملي شدة ، وصرت أنت في بلاء) . فقال عمر : (فأنت حر . اذهب عني ودعني وما أنا فيه) .

* فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ۚ ۝١٠ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَرَفِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١ وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ غَدُوهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتْ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ۝١٣ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ أَلَّا رِضْنَا كُلَّ مَنَسَاتِهِ ۚ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٤ ﴾

معاني المفردات

فضلا : أى أمرا عظيما فضلناه به على غيره ، والمراد به النبوة والزبور ، وقيل : ما خصه الله تعالى به على سائر الأنبياء من النعم ، كتسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وحسن الصوت ، وغير ذلك من النعم .

أوبى معه : أى سبى معه ، ورجعى معه التسبيح قال تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾^(١) .

قال القرطبي : فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه ، وأصغت إليه الطير ، فكأنها فعلت ما فعل .

قال ابن قتيبة ! وأصل التأويب فى السير ، وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا ، فكأنه أراد : أو أبى النهار كله بالتسبيح معه إلى الليل . وقيل المعنى : سبرى معه حيث شاء ، من التأويب وهو السير . سابغات : أى دروعا واسعات ، فذكر الصفة ، لأنها تدل على الموصوف والسابغات : الدروع الكوامل التى تغطى لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض .

وقدر فى السرد أى فى النسيج ، والمراد اجعله على قدر الحاجة ، لاتجعل حلق الدرع صغيرة ، فتتفصم الحلقة ، ولا واسعة فلا تقى صاحبها السهم والرمح .

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود صفائح فكانت ثقالا ، فأمر بأن يجمع بين الخفة والحصانة ، ويقال لصانع الدروع سراد وفراد بإبدال السين بالزاي . والسرد : إتباع الشيء بالشيء من جنسه . قال القرطبي : وأصل ذلك فى سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف .

عين القطر : قال الزجاج : القطر الصفر وهو النحاس . أذيب لسليمان وكان قبل سليمان لا يذوب لأحد .

قال المفسرون : أجرى الله لسليمان عين الصفر ، حتى صنع منها ما أراد من غير نار ، كما ألين لداود الحديد بغير نار ، فبقيت تجرى ثلاثة أيام ولياليهن كمجرى الماء ، وإنما يعمل الناس اليوم مما أعطى سليمان .

قال القرطبي : (وتخصيص الاسالة بثلاثة أيام لا يدرى مأخذه ، ولعله وهم من الناقل ، والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون الماء ، دلالة على نبوته .

يزغ : أى يعدل عن أمرنا الذى أمرنا به من طاعة سليمان ، يقال : زاغ أى مال وانصرف . محاريب : أى قصور عظيمة ، ومساكن حصينة - قال القرطبي : المحراب فى اللغة كل موضع مرتفع ، وقيل للذى يصلى فيه محراب ، لأنه يجب أن يرفع ويعظم .

وروى عن أبى عبيدة أنه قال : المحراب أشرف بيوت الدار ، وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾^(٢) .

وقيل المراد بالمحاريب : المساجد ، ونقل عن قتادة أنها المساجد والقصور الشاخصة ، وسمى القصر بالمحراب ، لأنه يحارب من أجله ، وما يرجح هذا رأى ، أن الله تعالى ذكر أنها من عمل الجن ، ولعل عمل القصور الضخمة الشاخصة كان مما يستعصى على الناس فى ذلك الزمن ، لجهلهم بفن

العمارة ؛ فكانت الجن مسخرة لسليمان لتعمل له تلك الأعمال التي يعجز عنها البشر .
 وتمثيل : وهو في اللغة : الصورة ، ومثل الشيء : صورة حتى كأنه ينظر إليه . قال في اللسان :
 ومثل الشيء بالشيء سواء وشبهه به ، وجعله مثله وعلى مثاله ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبها
 بخلق من خلق الله ، وأصله من مثلت الشيء بالشيء : إذا قدرته على قدره ، ومثال الشيء مايمثله
 ويحكيه ، ولم يرد في القرآن هذا الوزن (تفعال) إلا في لفظين :
 (تلقاء ، وتبيان) .

وقال القرطبي : « التمثال : كل ماصور على مثل صورة من حيوان ، أو غير حيوان .
 وجفان : جمع جفنة ، وهي القصعة الكبيرة
 قال أبو عبيدة : كان لعبد الله بن جدعان جفنة يأكل منها القائم والراكب ، وذكر المدائني أنه وقع
 فيها صبي ففرق .

كالجواب : جمع جابيه ، وهي الحوض الكبير يجبي فيه الماء . أي يجمع .
 قال المفسرون : كان الجن يصنعون لسليمان القصاع كحياض الابل يجتمع على القصعة
 الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

راسيات : أي ثوابت ، يقال : رسا الشيء يرسو : إذا ثبت ، والمراد أنها لعظمها لا تنقل ، فهي ثابتة
 في أماكنها ، ومنه قيل للجبال : رواسي قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ (١) .

دابة الأرض : هي حشرة تسمى (الأرضة) تأكل الخشب وتنخره .

منسأته : المنسأة : العصا ، وهي (مفعلة) من نسأت الدابة : إذا سقتها .

قال الزجاج : وإنما سميت منسأة لأنه ينسأها : أي يطرد ويزجر .

خر : سقط على الأرض أي سقط ميتا .

العذاب المهين : المراد به التكاليف والأعمال الشاقة التي كلف سليمان عليه السلام بها الجن .

قال المفسرون : كانت الانس تقول : إن الجن يعلمون الغيب ، الذي يكون في المستقبل ،

فوقف سليمان عليه السلام في محرابه يصلي متوكئا على عصاه ، فمات ومكث على ذلك حولا ، والجن
 تعمل تلك الأعمال الشاقة ، ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان ، فسقط على الأرض
 فعلموا موته . وعلم الانس أن الجن لا تعلم الغيب ، ولو علموا الغيب لما أقاموا هذه المدة الطويلة في
 الأعمال الشاقة .

المناسبة وإجمال المعنى

يخبر المولى تعالى بما أنعم على عبده ورسوله (داود) عليه السلام ، من الفضل المبين ، والجاء
 العظيم ، حيث جمع له بين (النبوة والملك) والجنود ذوى العدد والعدد ، وما منحه إياه من الصوت

الرخيم ، الذى كان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات . وإذا قرأ الزبور تقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات ، تكف عن طيرانها ، ثم تردد معه الزبور مع التسبيح والتمجيد ، معجزة له عليه السلام ، وقد آلاى الله تعالى له الحديد ، حتى كان بين يديه كالعجين ، يصنع منه الدروع السابغة ، التى تقى الانسان شر الحروب ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْصَنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (١) .

وكما أنعم الله على (داود) أنعم على ولده (سليمان) عليهما الصلاة والسلام ، فسخر له الريح ، وسخر الجن ، وعلمه لغة الطير ، وأسأل له عين النحاس ، فكانت عينا جارية تسيل بقدرة الله ، وكانت الريح تقطع به المسافات الشاسعة الواسعة ، فى ساعات معدودات ، تحمله مع جنده ، فتنتقل به من بلد إلى بلد ، وتسير به مسيرة شهرين فى أقل من نهار واحد (غدوها شهر ورواحها شهر) أى تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر آخر ، وكأنها (طائرة نفثة) تحمل ذلك الجيش العرزم ، وتنتقل به فى ساعات محدودات ، تقطع به مسيرة شهرين ، كما سخر له الجن يعمل بين يديه بأمره وإرادته ، مايعجز عنه البشر من القصور الشاخة ، والتماثيل العجيبة ، والقصاع الضخمة ، التى تشبه الأحواض ، والقصور الراسيات ، التى لا تتحرك لكبرها وضخامتها ، وأمره أن يشكر الله على هذه النعم .

ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه نحو سنة ، وهو ميت ، والجن لاتعلم ذلك ، حتى أكلت الأرضة العصا فكسرت ، وسقط على الأرض ، فعلموا حينئذ موته ، ولو كانوا يعلمون الغيب ، مامكثوا هذه المدة الطويلة مسخرين فى الأعمال الشاقة ، التى كلفهم بها سليمان عليه السلام .

ومناسبة قصة (داود) وولده (سليمان) عليهما السلام لما سبق من الآيات الكريمة هى : أن الكفار لما أنكروا البعث والنشور لاستحالته فى نظرهم ، أخبرهم الله عز وجل بوقوع ما هو مستحيل فى العادة ، مما لا يمكنهم إنكاره ، من تأويب الجبال والطير وإلانة الحديد ، حتى كان بين يديه كالشمع ، أو كالعجين ، مع أنه جرم صلب ، وكذلك تسخير الريح لسليمان تحمله مع جنده ، وإسالة النحاس له حتى كان يجرى بقدرة الله كمجرى الماء ، وتسخير الجن تعمل له ماشاء ، وكل هذا أثر من آثار قدرة الله عز وجل ، فلا استحالة إذن ، لأن الله على كل شىء قدير ، وهذه هى وجه المناسبة بين هذه الآيات الكريمة ، والآيات السابقة .

التفسير

لطائف التفسير :

اللطيفة الأولى : خص الله تعالى نبيه (داود) عليه السلام ببعض الخصوصيات فسخر له الجبال

والطير تسبح معه ، وألان له الحديد ، وجمع له بين (النبوة والملك) كما جمع ذلك لولده (سليمان) عليه السلام ، وذلك من الفضل الذي أعطيه آل داود .

قال ابن عباس : كانت الطير تسبح مع داود إذا سبح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته ، ويكت لبكائه .

وقال وهب بن منبه : كان يقول للجبال : سبحي ، وللطير ، أجيبي ، ثم يأخذ في تلاوة الزبور بصوته الحسن ، فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ، ولا يسمعون شيئا أطيب من ذلك .

اللطيفة الثانية : التنكير في قوله تعالى : ﴿ فضلا ﴾ للتفخيم أى فضلا عظيما خصصناه به من بين سائر الأنبياء ، وقوله : ﴿ منا ﴾ فيه إشارة إلى أن هذا الفضل هائل ، لأنه صادر من الله تعالى مباشرة ، تكريما لنبيه داود ، كما قال تعالى عن العبد الصالح : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ (١) .

قال أبو السعود : وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ، فإن ماحقه التقديم إذا أخر ، تبقى النفس مترقبة له ، فإذا ورد يتمكن عندها فضل تمكن .

اللطيفة الثالثة : ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم ست عشرة مرة ، ولم يجيء ذكره لتوفيه قصة بتمامها ، وإنما هو لتعداد آلاء الله على سليمان ، فمنها ذكاؤه وبصره النافذ في الحكم والقضاء ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحث ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ (٢) ومنها تعليمه منطق الطير ﴿ وورث سليمان داود وقال يأياها الناس علمنا منطق الطير ﴾ (٣) ومنها تسخير الريح له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ ومنها إسالة عين القطر وهو النحاس المذاب ، وفي القرآن إشارة إلى عملية صهر المعادن الصلبة ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ ومنها تسخير الجن يعملون له ما يعجز عنه البشر ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ (٤) وقوله ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ وقد أعطاه الله الجاه الكبير ، والسلطان الواسع ، والملك العظيم الذي لم يعطه أحد بعده ﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ (٥) .

وكل هذا من الفضل الذي خص الله تبارك وتعالى به آل داود عله السلام

اللطيفة الرابعة : قال العلامة أبو السعود رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ « في تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المخاطبين المطيعين لأمره تعالى ، المذعنين لحكمه . المشعر بأنه مامن حيوان وجماد وصامت وناطق ، إلا وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته ، من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى ، وكمال كبرياء سلطانه مالا يخفى على أولى الأبواب » .

(١) الكهف آية : ٦٥

(٢) الأنبياء آية : ٧٩

(٣) النمل آية : ١٦

(٤) ص آية : ٣٧

(٥) ص آية : ٣٥

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أى مسيرة شهر ، فهو على حذف مضاف ، والتقدير غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر ، وإنما وجب هذا التقدير ، لأن الغدو والرواح ليسا بالشهر ، وإنما يكونان فيه ، فتنبه له فإنه دقيق .
قال قتادة : (كانت الريح تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين)

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ الآية فإن قيل : إن الاجتماع بالجن فيه مفسدة للانسان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾^(١) فكيف سخرت الشياطين لسليمان عليه السلام ؟
فالجواب : أن ذلك الاجتماع والتسخير كان بأمر الله عز وجل وتسخيروه ، بدليل قوله : ﴿ بإذن ربه ﴾ فلم يكن فيه مفسدة ، وإنما كان فيه مصلحة لسليمان عليه السلام ، ولفظ الرب ينبىء عن التربية والحفظ والرعاية ، فسليمان عليه السلام كان في حفظ الله ورعايته ، فلذلك لم يصله ضرر من جهتهم .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ فى الآية الكريمة إشارة دقيقة ، إلى أن الجن الذين كانوا مسخرين لسليمان ، لم يكونوا من المؤمنين ، وإنما كانوا من المردة الكافرين ، لأن سليمان لا يعذب المؤمنين ، ولا يذيقهم أنواع العذاب ، لأن كل رسول يكون رحيمًا بأتباعه ، ودل على هذا المعنى أيضا قوله تعالى : ﴿ مالبثوا فى العذاب المهين ﴾ لأن المؤمن لا يكون فى زمان النبى فى العذاب المهين .

اللطيفة الثامنة

قوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ فيه إشارة إلى أن الشكر الوافر الكامل ، بالقلب واللسان والجوارح لا يمكن أن يتحقق ، لأن التوفيق لشكر الله تعالى نعمة من الله ، تستدعى شكرا آخر لا إلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله ، فلا قدرة لأحد عليه و ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾^(٢) ومع ذلك فإن الشكر بقدر البطاقة قليل فى الناس ، والكفران لنعم الله أكثر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل كانت التماثيل مباحة فى شريعة سليمان عليه السلام ؟ يدل ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ﴾ على حل اتخاذ التماثيل ، وعلى أنها كانت مباحة فى شريعة سليمان عليه السلام ، فالقرآن الكريم صريح فى امتنان الله تعالى على (سليمان) بأن سخر له الجن تعمل له ما يشاء من (محاريب ، وتماثيل ، وجفان

(١) المؤمنون الآيتان : ٩٧ ، ٩٨

(٢) البقرة آية : ٢٨٦

كالجواب ، وقدور راسيات) وتخصيص هذه الأشياء بالذكر في معرض الامتنان ، دليل على جوازها ، وإذن من الله تعالى باتخاذها ، وللعلماء في هذه الآية الكريمة أقوال نجمها فيما يلي :

١ - إن التماثيل التي أشار إليها القرآن كانت مباحة في شريعة سليمان ، وقد نسخت في الشريعة الإسلامية ، ومن المعلوم أن شريعة ما قبلنا إنما تكون شريعة لنا إذا لم يرد ناسخ ، وقد وجد هذا الناسخ ، فيكون اتخاذ التماثيل محرما في شريعتنا قطعا .

ب - إن التماثيل التي كانت في عهد نبي الله سليمان عليه السلام ، لم تكن تماثيل لذى روح من إنسان أو طير أو حيوان ، وإنما كانت تماثيل لما لا روح فيه له ، كالأشجار والبحار والمناظر الطبيعية ، فتكون شريعته عليه السلام موافقة لشريعتنا ، كما نبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .
الحكم الثاني :

ما هو حكم التماثيل والصور في الشريعة الإسلامية ؟

نعم القرآن الكريم على التماثيل وشنع على من كان يعكف عليها ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴾^(١) وندد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾^(٢)

وفي القرآن الكريم من قصص إبراهيم عليه السلام في تحطيم الأصنام ، ما هو معروف ، وقد ورد أن رسولنا الأعظم ﷺ ، حطم الأصنام ، التي كانت في جوف الكعبة ، والتي كانت على الصفا والمروة .

والدين الإسلامي دين التوحيد ، وعدو الشرك ، وليس في الإسلام ذنب أعظم من الشرك ، ولذلك فقد كانت حملته الشديدة على الوثنية وعبادة الأصنام ، وحرمت الشريعة الإسلامية (التماثيل) لأنها تؤدي إلى ذلك المنكر الفاحش .

والسنة المطهرة جاءت بالنهي عن التصوير والمصورين ، والنهي عن اتخاذ الصور والتنفيذ منها ، ولذلك فإن من المقطوع به أن الإسلام حرم التماثيل والتصاوير تحريما قاطعا جازما .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على التحريم . حتى كادت تبلغ حد التواتر . وسنعرض إلى ذكر بعض هذه النصوص فنقول ومن الله نستمد العون .

الأدلة القاطعة على تحريم التصوير

النص الأول : روى البخاري ومسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : (أشد الناس

عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)^(٣)

(١) الأنبياء آية : ٥٢

(٢) الصافات الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب ومسلم في كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٢١٠٧/٩٢

النص الثاني : روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم)^(١) .

النص الثالث : روى البخارى ومسلم وأحمد عن أبي زرعه قال : دخلت مع أبي هريرة دار مروان ابن الحكم . فرأى فيها تصاوير وهى تبني فقال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله عز وجل : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، أو فليخلقوا حبة ، أو فليخلقوا شعيرة)^(٢) .

النص الرابع : روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له : إني أصور هذه الصور فأفتن فيها ، فقال له أدن منى فدنا ، ثم قال : أدن منى فدنا ، حتى وضع يده على رأسه وقال : أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول :

(كل مصور فى النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه فى جهنم)^(٣) .

قال ابن عباس : (فإن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ومالا روح فيه)

وفى رواية أخرى منه : سمعته يقول : (من صور صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا)^(٤) ثم قال له ابن عباس : إن ابنتك إلا أن تصنع ، فعليك بهذه الأشجار ، كل شيء ليس فيه روح)

النص الخامس : روى الشيخان وأصحاب السنن عن عائشة رضى الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها النبى ﷺ قام على الباب فلم يدخل ، قالت : فعرفت فى وجهه الكراهية ، فقلت يارسول الله ، أثوب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت ؟ فقال : ما بال هذه النمرقة ؟ قلت اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها فقال : إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، فيقال لهم : أحيوا ما خلقتم ، وقال : إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة)^(٥) .

النص السادس : روى مسلم فى صحيحه عن أبي الهياج الأسدى قال :

قال لى على رضى الله عنه : (ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته)^(٦) .

النص السابع : (روى الستة عن عائشة رضى الله عنها قالت :

خرج النبى ﷺ فى غزاة فأخذت غمطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة فى وجهه ،

(١) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس والزينة باب عذاب المصورين يوم القيامة ج ٧ ص ٢١٥ طبع الشعب وأخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٢١٠٧ / ٩٦

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ٢١١١ / ١٠١

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧٠ برقم ٢١١٠ / ٩٩

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب / مسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ٢١١٠ / ١٠٠

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب / مسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٢١٠٧ / ٩٦

(٦) أخرجه أحمد ج ١ ص ٨٧ / مسلم فى كتاب الجنائز ج ٢ ص ٦٦٦ برقم ٩٦٩ / ٩٣

فجذبه حتى هتكه وقال : (ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين !!
 قالت عائشة : فقطعت منه وسادتين وحشوتها ليفا ، فلم يعب ذلك على)^(١) .
 النص الثامن : روى الشيخان والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت :
 لما اشتكى النبي ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها (مارية) وكانت أم سلمة ، وأم حبيبة أتتا
 أرض الحبشة ، فذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها فرفع ﷺ رأسه فقال : (أولئك إذا مات فيهم الرجل
 الصالح بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله)^(٢)
 أقول : هذه النصوص وأمثالها كثير ، تدل دلالة قاطعة على حرمة التصوير . وكل من درس
 الاسلام علم علم اليقين أن النبي ﷺ حرم التصوير ، واقتناء الصور وبيعها .
 وكان يحطم مايجده منها ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، واتفق الأئمة الأربعة على
 تحريم الصور ، لم يخالف في ذلك أحد .
 ولبعض العلماء استثناء شيء منها . سنذكره فيما بعد . كما نذكر علة التحريم ، ونعرج بعد ذلك
 على حكم التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) وننقل آراء العلماء فيه على ضوء النصوص الكريمة .

« العلة في تحريم التصوير »

يظهر لنا من النصوص النبوية السابقة ، أن العلة في تحريم التماثيل والصور ، هي (المضاهاة
 والمشابهة لخلق الله تعالى يدل على ذلك :
 أ - حديث : (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)^(٣)
 ب - وحديث : (إن أصحاب هذه الصور يعذبون : - يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)^(٤) .
 ج - وحديث (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . . فليخلقوا حبه ، أو فليخلقوا شعيرة)
 فالعلة هي إذن : التشبه بخلق الله ، والمضاهاة لصنعه جل وعلا كما أن الحكمة أيضا في تحريم
 التصوير هي : البعد عن مظاهر الوثنية ، وحماية العقيدة من الشرك ، وعبادة الأصنام ، فما دخلت
 الوثنية إلى الأمم الغابرة إلا عن طريق (الصور والتماثيل) كما دل عليه حديث أم سلمة وأم حبيبة
 السابق ، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام :
 (أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك
 التصاوير ، أولئك شرار خلق الله يوم القيامة) .
 وقد روى أن الأصنام التي عبدها قوم نوح (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا) التي ذكرت في
 القرآن الكريم في سورة نوح - كانت أسماء لأناس صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم
 صورا ، تذكيرا بهم وبأعمالهم ، ثم انتهى الحال آخر الأمر إلى عبادتهم .

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧ / ٢١٠٧ / أحمد ج ٦ ص ٢٤٧

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب ٥٤ ج ١ ص ١١٨

(٣) سبق تخريجه ص ٦٧

(٤) سبق تخريجه ص ٦٧

ذكر الثعلبي عن ابن عباس : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا وَلَا سِوَاها وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾^(١)

أنه قال : هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن أنصبوا في مجالسهم ، التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبادت من دون الله .

قال ابو بكر ابن العربي : (والذي أوجب النهي في شريعتنا - والله أعلم - ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام ، فكانوا يصورون ويعبدون ، فقطع الله الذريعة وحى الباب)

قال ابن العربي : (وقد شاهدت بغير الاسكندرية . إذا مات ميت صوروه من خشب في أحسن صورة ، وأجلسوه في موضعه من بيته ، وكسوه بزيه ان كان رجلا ، وحليتها ان كانت امرأة واغلقوا عليه الباب ، فإذا أصاب واحدا منهم كرب أو تجدد له مكروه ، فتح الباب عليه ، وجلس عنده يبكي ويناجيه ، حتى يكسر صورة حزنه بأهراق دموعه ، ثم يغلق الباب عليه وينصرف ، وإن تمادى بهم الزمان تعبدوها من جملة الأصنام) (أحكام القرآن لابن العربي ج ٣)

« أنواع الصور »

قسم العلماء الصور إلى قسمين :

١ - الصور التي لها ظل وهي المصنوعة من جبس ، أو نحاس ، أو حجر أو غير ذلك وهذه تسمى (التماثيل) .

ب - الصور التي ليس لها ظل ، وهي المرسومة على الورق ، أو المنقوشة على الجدار ، أو المنصورة على البساط والوسادة ونحوها ، وتسمى (الصور) .

فالتمثال : ما كان له ظل ، والصورة ، ما لم يكن لها ظل ، فكل تمثال صورة ، وليس كل صورة تمثالا .

قال في لسان العرب : « والتمثال : الصورة ، والجمع التماثيل ، وظل كل شيء تمثاله ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع شيها بخلق الله من خلق الله . وأصله : من مثلت الشيء بالشيء إذا قدرته على قدره ، ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيها به ، واسم ذلك الممثل تمثال) . .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَتَمَائِيلٌ ﴾ جمع تمثال ، وهو كل ماصور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ، ونحاس ، ورخام ، وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا . .

فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟

قلنا : كان ذلك جائزا في شرعه . ونسخ ذلك بشرعنا .

ما يحرم من الصور والتماثيل

يحرم من الصور والتماثيل ما يأتي :

أولا : التماثيل المجسمة ، إذا كانت لدى روح من إنسان ، أو حيوان ، تحرم بالاجماع للحديث الشريف ، (إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ، ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب)^(١) .

ثانيا : الصورة المصورة باليد لدى روح حرام بالاتفاق لقوله ﷺ :

(إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم)^(٢) ولحديث : (من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافع)^(٣) . « رواه أصحاب السنن »

ثالثا : الصورة إذا كانت كاملة الخلق ، بحيث لا ينقصها إلا نفخ الروح ، حرام كذلك بالاتفاق لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق : (أمر أن ينفخ فيها الروح وليس بنافع) .

ولحديث عائشة : (دخل على رسول الله ﷺ وأنا مستورة بقرام فيه صورة ، فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله . قالت عائشة : فقطعته فجعلت منه وسادتين : فكان النبي ﷺ يرتفق بهما)^(٤)

* معنى : (قرام) ستر رقيق .

فهتكه عليه السلام للستر يدل على التحريم ، وتقطيع عائشة له وجعله وسادتين ، بحيث انفصلت أجزاء الصورة ، ولم تعد صورة كاملة ، تدل على الجواز ، فمن هنا استنبط العلماء ، أن الصورة ، إذا لم تكن كاملة الأجزاء فيها .

رابعا : الصورة إذا كانت بارزة تشعر بالتعظيم ، ومعلقة بحيث يراها الداخل حرام أيضا بلا خلاف ، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : (كان له ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله ﷺ : حولي عنى هذا ، فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا)^(٥) . رواه مسلم ولحديث أبي طلحة عن عائشة قالت : (خرج النبي ﷺ في غزاة فأخذت غمطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة في وجهه ، فجذبه حتى هتكه وقال : إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين ، قالت : فقطعت منه وسادتين وحشوتها ليفا ، فلم يعب ذلك على)^(٦) . (رواه الستة) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٥ برقم ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ / ٢١٠٦ البخاري ج ٧ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ط الشعب ، ترغيب ج ٤ ص ٧٤ رقم ١٤

(٢) سبق تخريجه ص ٦٧

(٣) أخرجه البخاري ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب ومسلم ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠٠ / ٢١١٠

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم باب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٩٢ / ٢١٠٦

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٨ / ٢١٠٧ ط الشعب

(٦) أخرجه مسلم في اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧ / ٢١٠٧ ط الشعب

« ما يباح من الصور والتماثيل »

ويباح من الصور والتماثيل ما يأتى :

أ - كل صورة أو تمثال مالمس بذى روح ، كتصوير الجمادات ، والأنهار والأشجار ، والمناظر الطبيعية التى ليست بذات روح ، فلا حرمة فى تصويرها ، لحديث ابن عباس السابق حين سأله الرجل إني أصور هذه الصور فأفتنى فيها ؟ فأخبره بحديث رسول الله ﷺ ، ثم قال له ابن عباس : (إن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ، وما لاروح له) .

ب - كل صورة ليست متصلة الهيئة ، كصورة اليد وحدها مثلاً ، أو العين أو القدم ، فإنها لا تحرم ، لأنها ليست كاملة الخلق ، لحديث عائشة : (فقطعتها فجعلت منها وسادتين فلم يعب ﷺ ذلك على) .

ج - ويستثنى من التحريم (لعب البنات) لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ تزوجها وهى بنت سبع سنين وزفت إليه وهى بنت تسع ولعبها معها ، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة) . رواه مسلم .

وروى عنها أنها قالت : (كنت ألع بالبنات عند النبى ﷺ ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معى)
* معنى (ينقمعن) أى يتغيبن من البيت حياء منه ﷺ .

- معنى : (يسربهن) أى يرسلهن ويبعثهن .

قال العلماء : وإنما أبيحت لعب البنات للضرورة إلى ذلك ، وحاجة البنات ، حتى يتدربن على تربية أولادهن ، ثم إنه لابقاء لذلك ، ومثله ما يصنع من الحلاوة أو العجين لابقاء له ، فرخص فى ذلك والله أعلم .

* أقوال العلماء فى التصوير

قال القاضى ابن العربى : مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء : (إلا ما كان رقماً فى ثوب) فخص من جملة الصور ،
ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب المصدر : (أخبره عنى فإني كلما رأيته ذكرت الدنيا)^(١) .

ثم بهتكه الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ، لقولها فى النمرقة المصورة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها ، فمنع منه وتوعد عليه ، ثم نسخه المنع منه ، فهكذا استقر الأمر فيه .

(١) أخرجه البخارى باب اللباس ج ٧ ص ٢١٦

وقال أبو حيان : (والتصوير حرام في شريعتنا ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، ولبعض العلماء استثناء في شيء منها ، وفي حديث (سهل بن حنيف) : لعن الله المصورين ^(١) ، ولم يستثن عليه السلام ، وحكى أن قوماً أجازوه ، قال ابن عطية : وما أحفظ من أئمة العلم من يجوزوه . وقال الألوسي : (الحق أن حرمة تصوير الحيوان كاملاً لم تكن في شريعة سليمان عليه السلام ، وإنما هي في شرعنا ، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل ، أو لا تكون كذلك كصورة الفرس المنقوشة على كاغد ، أو جدار مثلاً ، وقد ورد في شرعنا من تهديد الوعيد على المصورين ماورد ، فلا يلتفت إلى غيره ، ولا يصح الاحتجاج بالآية)

وقال القرطبي : (لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن ، وقال : (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم) ^(٢) .

وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يخرج عتق من النار يوم القيامة ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق يقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين) ^(٣) . وفي البخاري : (أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) ^(٤) يدل على المنع من تصوير أي شيء كان .

وقال الامام النووي : إن جواز اتخاذ الصور ، إنما هو إذا كانت لا ظل لها ، وهي مع ذلك مما يوطأ ويداس ، أو يمتن بالاستعمال كالوسائل .

وقال العلامة ابن حجر في شرحه للبخاري : (حاصل ما في اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسام حرم بالاجماع) وإن كانت رقماً في ثوب فأربعة أقوال : الأول : يجوز مطلقاً عملاً بحديث إلا رقماً في ثوب . الثاني : المنع مطلقاً عملاً بالعموم .

الثالث : إن كانت الصورة باقية بالهيئة ، قائمة الشكل حرم ، وإن كانت مقطوعة الرأس ، أو تفرقت الأجزاء جاز ، قال : وهذا هو الأصح .

الرابع : إن كانت ما يمتن جازاً وإلا لم يجز ، واستثنى من ذلك لعب البنات .

« حكم التصوير الفوتوغرافي »

يرى بعض المتأخرين من الفقهاء ، أن التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) لا يدخل في دائرة

(١) أخرجه البخاري في باب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب
(٢) أخرجه مسلم في كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٢١٠٧ / ٩٦
(٣) أخرجه الترمذي ج ٤ ص ١٠٣ برقم ٢٧٠٠
(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٧٠ كتاب اللباس برقم ٢١٠٩ / ٩٨

التحريم الذي يشمل التصوير باليد المحرم ، وأنه لا تناوله النصوص النبوية الكريمة ، التي وردت في تحريم التصوير ، إذ ليس فيه (مضاهاة) أو مشابهة لخلق الله ، وأن حكمه حكم الرقم في الثوب المستثنى بالنص .

يقول فضيلة الشيخ السائس مانصه : (ولعلك تريد أن تعرف حكم ما يسمى بالتصوير الشمسي ، فتقول : يمكنك أن تقول إن حكمها حكم الرقم في الثوب ، وقد علمت استثناءه نصا ، ولك أن تقول : إن هذا ليس تصويرا . بل حبسا للصورة ، وما مثله إلا كمثل الصورة في المرآة . لا يمكنك أن تقول إن مافي المرآة صورة ، وإن أحدا صورها .

والذي تصنعه آلة التصوير هو صورة لما في المرآة ، غاية الأمر أن المرآة (الفوتوغرافية) تثبت الظل الذي يقع عليها ، والمرآة ليست كذلك ، ثم توضع الصورة أو الخيال الثابت (العفريته) في حمض خاص فيخرج منها عدة صور .

وليس هذا بالحقيقة تصويرا ، فإنه إظهار واستدامة لصور موجودة . وحبس لها عن الزوال ، فإنهم يقولون : إن صور جميع الأشياء موجودة غير أنها قابلة للانتقال بفعل الشمس والضوء ، مالم يمنع من انتقالها مانع ،

والحمض هو ذلك المانع ، ومادام في الشريعة فسحة بإباحة هذه الصورة كاستثناء الرقم في الثوب ، فلا معنى لتحريمها ، خصوصا وقد ظهر أن الناس قد يكونون في أشد الحاجة إليها . أقول : إن التصوير الشمسي (الفوتوغرافي) لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع التصوير ، فما يخرج بالآلة يسمى (صورة) . والشخص الذي يحترف هذه الحرفة ، يسمى في اللغة والعرف (مصورا) فهو وإن كان لا يشمل النص الصريح ، لأنه ليس تصويرا باليد ، وليس فيه مضاهاة لخلق الله إلا أنه لا يخرج عن كونه ضربا من ضروب التصوير ، فينبغي أن يقتصر في الإباحة على (حد الضرورة) ، وما يتحقق به من المصلحة ، قد يكون إلى جانبها مفسدة عظيمة ، كما هو حال معظم المجلات اليوم ، التي تنفث سمومها في شبابنا ، وقد تخصصت للفتنة والاغراء ، حيث تصور فيها المرأة بشكل يندى له الجبين ، بأوضاع وأشكال تفسد الدين والأخلاق .

فالصور العارية ، والمناظر المخزية ، والأشكال المثيرة للفتنة ، التي تظهر بها المجلات الخليعة ، وتملأ معظم صفحاتها بهذه الأنواع من المجون ، مما لا يشك عاقل في حرمة ، مع أنه ليس تصويرا باليد ولكنه في الضرر والحرمة أشد من التصوير باليد .

ثم إن العلة في التحريم ، ليست هي (المضاهاة) والم مشابهة لخلق الله فحسب ، بل هناك نقطة جوهرية ينبغي التنبيه لها وهي أن (الوثنية) مادخلت إلى الأمم السابقة إلا عن طريق (الصور) حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح ، صوروه تخليدا لذكراه ، واقتداء به ، ثم جاء من بعدهم فعبدوا تلك الصورة من دون الله ، فما يفعله بعض الناس من تعليق الصور الكبيرة المزخرفة في صدر البيت ، ولو كانت للذكرى ، وليس تصويرا باليد ، مما لا تجيزه الشريعة الغراء ، لأنه قد يجر في المستقبل إلى تعظيمها وعبادتها ، كما فعل أهل الكتاب بأنبيائهم وصلحائهم .

فإطلاق الاباحة في التصوير الفوتوغرافي ، وأنه ليس بتصوير ، وإنما هو حبس للظل ، مما لا ينبغي أن يقال ، بل يقتصر فيه على حد الضرورة ، كإثبات الشخصية ، وكل ما فيه مصلحة دنيوية مما يحتاج الناس إليه والله تعالى أعلم .

الشبه الواردة على تحريم التصوير

يذهب بعض أدعياء العلم ، ممن تأثروا بالثقافة الغربية ، إلى إثارة بعض الشبه على تحريم التصوير ، بقصد التزلف إلى الحضارة الغربية ، والاندماج فيما خيل لهم أنه فن راق ، وذوق سليم ، أو بقصد التقرب إلى المترفين ومسايرتهم على أهوائهم ، لينالوا بعض المناصب .

الشبه الأولى :

يزعمون أن ماورد من نصوص في تحريم التصوير ، إنما هو إجراء موقت اقتضته ظروف الدعوة الإسلامية ، لمجابهة الشرك والوثنية ، وأن الغاية هي قطع الطريق على الوثنية ، فلما زال الخوف من عبادة الأوثان والأصنام زالت الحاجة إلى تحريم التصوير .

وللرد على هذه الشبه سنكتفى بنقل كلام فضيلة الشيخ أحمد شاکر رحمه الله في دحض هذه الشبه ، حيث جاء في تعليقه على الحديث آ ٧١٦٦ / من المسند مانصه :

(وكان من حجة أولئك ، أن تأولوا النصوص بعله لم يذكرها الشارع ، ولم يجعلها مناط التحريم ، هي - فيما بلغنا - أن التحريم ، إنما كان أول الأمر لقرب عهد الفاس بالوثنية ، أما الآن وقد مضى على ذلك دهر طويل ، فقد ذهبت علة التحريم ، ولا يخشى على الناس أن يعودوا لعبادة الأوثان ، وقد نسي هؤلاء ما بين أيديهم من مظاهر الوثنية الحقبة ، بالتقريب إلى القبور وأصحابها ، واللجوء إليها عند الكروب والشدائد ، وأن الوثنية عادت إلى التغلغل في القلوب دون أن يشعر بها أصحابها .

وكان من أثر هذه الفتاوى الجاهلة ، أن ملئت بلادنا بمظاهر الوثنية الكاملة ، فنصبت التماثيل ، وملئت بها البلاد ، تكريماً لذكرى من نسبت إليه وتعظيماً ، ثم يقولون لنا : إنها لم يقصد بها التعظيم . ثم صنعت الدولة - وهي تزعم أنها إسلامية في أمة مسلمة - معهداً للفنون الجميلة .. معهداً للفجور الكامل الواضح . يدخله الشبان الماجون ، من الذكور والاناث ، يقفن عرايا ، ويضطجعن عرايا ، وعلى كل وضع من الأوضاع الفاجرة ، لا يسترن شيئاً ، ثم يقولون لنا : هذا فن .

الشبه الثانية : يقولون : إن الأحاديث الدالة على التحريم ، هي أحاديث آحاد ولا تفيد القطع ، وإنه لا يمكن أن ننسب إلى الإسلام تحريم (فن) من الفنون مالم يكن هناك نص قطعي بالحرمة .

وللرد على هذه الشبه نقول : (هذا جهل فاضح بأحكام الشريعة الغراء ، فإن كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو عمل ، يجب الأخذ به سواء كان النقل بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد ، هذا متفق عليه بين العلماء ، ومن المعلوم بالضرورة أن أكثر الأحكام الفقهية الشرعية ، إنما ثبتت بخبر الآحاد ، فلو كانت أخبار الآحاد لا تفيد القطع - كما زعموا - لضاعت أكثر أحكام الشريعة

وهذا كلام لا يصدر عن فقيه عالم ، إنما يصدر عن جاهل بأصول الشريعة الغراء ، وطرق استنباط الأحكام .

ومن المفارقات العجيبة أن الذين يحتجون بأمثال هذه الحجج الواهية ، يأخذون بأحاديث - لا ثبات رأيهم - لاتصلح للاحتجاج لنكارتها ، وضعف سندها - وجهل رواتها ، ولكنها لما كانت موافقة لأهوائهم يتمسكون بها ، ويجادلون بشأنها ، شأن أهل الأهواء ، وقد ردّ الأصوليون وفي مقدمتهم الامام الشافعى رحمه الله على هذه الشبهة ردا شافيا ، وبينوا أن خبر الأحاد يلزم العمل به إذا ثبت ، ولم يزل العلماء المسلمون يعملون بأخبار الأحاد ويحتجون بها ، لأن في إبطالها إبطالا لأكثر أحكام الشريعة .

ومن جهة ثانية فإن النصوص الواردة في تحريم التصوير بلغت حد التواتر ، وتناقلها المسلمون جيلا عن جيل فلا مجال للمتشككين ان يدخلوا من هذا الباب ، ونزידك علما بأن الشعوب الاسلامية لم يوجد فيها تصوير اونحت بقدر كبير ، وأن الفنانين المسلمين انصرفوا عن التصوير ، وصنع التماثيل ، إلى استخدام النقش الهندسى ، والتزيين العربى ، والتشكيل النباتى وغيرها ، وكل ذلك بسبب ما يعلمون من تحريم الاسلام للتصوير . فلو لم يكن فى اعتقادهم محرما لما تركوه وانصرفوا إلى غيره ، ويكفى هذا للرد على أولئك الزاعمين .

الشبهة الثالثة : -

يستشهدون على إباحة التصوير بآيات من القرآن الكريم ، لا يصح الاحتجاج بها لأنها ليست من شريعتنا ، وإنما هى من الشرائع السابقة المنسوخة بشريعة الاسلام ، منها الآية الكريمة التى هى موضوع بحثنا وهى قوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ ..

فإن هذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على حل التصوير ، لأنها إخبار عما كان يعملهُ الجن لسليمان عليه السلام ، وليس فيها ما يدل على ان التماثيل كانت لذى روح ، ومع ذلك فإنها شريعة سابقة ، وقد نص العلماء على ان (شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يرد ناسخ) وقد ورد الناسخ فى الشريعة الاسلامية فلا حجة فيها .

وهذه القاعدة متفق عليها بين علماء المسلمين ، فالسجود بقصد التحية لغير الله تعالى كان جائزا فى شريعة يوسف عليه السلام ، وقد حرمه شرعنا فلا يصح الاحتجاج بما ذكره الله من سجود اخوة يوسف له على إباحة السجود لغير الله ، وشريعتنا ناسخة لما قبلها من الشرائع وقد حرمت التماثيل فلا يصح الاحتجاج بهذه الآية الكريمة والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- أولا : الفضل العظيم الذي خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام .
- ثانيا : تسبيح الجبال والطيور مع النبي (داود) كان معجزة له عليه السلام .
- ثالثا : الصناعات والحرف لا تحط من قدر الانبياء ، فداود عليه السلام علمه الله صنع الدروع .
- رابعا : سخر الله لسليمان الريح تجري بأمره ، كما سخر لأبيه الجبال والطيور تكريما له عليه السلام .
- خامسا : الجن كانت تعمل لسليمان عليه السلام ما يعجز عنه البشر من الأعمال بأمر الله تعالى .
- سادسا : صنع التماثيل كان مباحا في شريعة النبي سليمان عليه السلام ثم نسخ في الشريعة الاسلامية .
- سابعا : منصب (النبوة) أعلى من منصب (الملك) وقد جمع الله لسليمان بين النبوة والملك .
- ثامنا : فضل الله عظيم على عباده وخاصة منهم الأنبياء فعليهم ان يشكروا الله على نعمته .
- تاسعا : الجن لا تعلم الغيب ولو كانت تعلمه لعرفت موت سليمان عليه السلام وما بقيت في الأعمال الشاقة .
- * خاتمة البحث

حكمة التشريع

جاءت الشريعة الاسلامية الغراء ، والناس في وثنية غارقة ، قد تدهورت احوالهم ، وانحطت اوضاعهم ، حتى وصلوا إلى درجة عبادة (الأوثان والأصنام) وقد كان حول الكعبة المعظمة ثلاثمائة وستون صنما - بعدد أيام السنة - كلها آلهة تعبد من دون الله ، فلما فتح عليه الصلاة والسلام مكة حطمها بنفسه فلم يبق لها أثرا وهو يردد قوله تعالى : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (١) .

وقد دخلت هذه الوثنية إلى العرب ، عن طريق اهل الكتاب ، وبسبب التماثيل والتصاوير ، وانتشرت بينهم انتشار النار في الهشيم ، حتى غدت الجزيرة العربية مهدا للوثنية ، ومركزا لعبادة الأوثان والأصنام ، فلما جاء الاسلام حرم الصور والتماثيل ، وكل ما يدعو إلى (الوثنية) من قريب أو بعيد ، وحمل حملة شعواء على المصورين ، فمنع من تصوير كل ذى روح . حماية للعقيدة وصيانة للأمة ،

(١) الآية : ٨١ من سورة الاسراء

وتطهيراً للمجتمع من لوثة الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك اقتلع الاسلام الوثنية من جذورها ، وقضى على الشرك في مهده ، وطهر الجزيرة من كل مظاهر الوثنية والاشراك .

وقد يقول قائل : ان الوثنية قد انقضى زمانها بالتقدم الفكري عند الانسان ، فلم يعد هناك من يعبد الأصنام والأوثان ، فلم إذن تبقى حرمة التصوير ؟

والجواب : ان العقل البشري معرض للانتكاس في كل حين وزمان ، ولا يستبعد ابدا ان يؤدي نصب التماثيل في الشوارع العامة ، وانتشار الصور في المحلات والبيوت إلى تعظيمها وعبادتها في المستقبل ، كما فعل من سبقنا من الأمم حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح صوروه ونصبوا هذه الصور في أماكن بارزة ليتذكروا سيرته وأعماله ، ثم جاء من بعدهم فعظموها ثم جاء من بعدهم فعبدوها من دون الله .

وإذا كنا نجد في هذا العصر بالذات من المتناقضات ما يطير له عقل الانسان فرقا ، حيث طغت الرذائل على الفضائل ، وتبدلت المفاهيم والقيم الاخلاقية ، وأصبحت مظاهر (الهمجية) من التكشف والعري ، والخلاعة والمجون ، تعتبر في هذا العصر من مظاهر (الرقى والتقدمية) ، فأى انسان لا يخاف على مستقبل البشرية وهو يرى هذه العجائب والغرائب ، تتمثل لعينه والصور المضحكة المبكية .

ثم إننا لا نزال نرى في هذا العصر الذى يسمونه - عصر النور - من لا يزال يعبد البقر ويتبرك بأرواثها ، فكيف نطمئن على العقلية البشرية من التردى نحو الهاوية ؟ إن الذى يعبد البقر لا يستبعد عليه ان يعبد الصور ؟ لذلك فإن التحريم شريعة الله وسيظل هذا التشريع فوق عقول البشر ؛ لانه شرع الله ودينه الخالد .

قصة سبا

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَافُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرَى ظُهْرَةَ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ

صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٢١﴾

معاني المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان والمراد به هنا القبيلة .
والمسكن : موضع السكن وهو مأرب (كمزول) من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب .

جتان : اى بستانان

فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم

والعَرم : واحدها عَرْمَةٌ وهى الحجارة المركومة كخزان اسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبى النيل وكانت له ثلاثة ابواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع امام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل .

والأكل : الثمر

الخمط : كل شجرة مرة ذات شوك .

الاثل : الطرفاء وهو المعروف فى مصر (بالأتل)

والسدر : شجر النبق .

القرى التى بارك فيها : هى قرى الشام .

قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الأكام وهى أصح القرى .

وقد رنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ومن سار من بعد الظهر وصل إلى أخرى حين الغروب فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ولا يخاف من عدو ولا سبع .

آمنين : أى من كل ما يكرهون وظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بطروا النعمة .

والأحاديث : واحدها أحديث وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب .

ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق

الصبار : كثير الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى شاق الطاعات .

والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا لانهم اكلوا من الشهوات واستفراغ الجهد فى

اللذات .

سلطان : أى تسلط واستغواء بالسوسة .
حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين اليه أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب موعظة لقريش وتحذيراً لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

وبعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم في مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار قص علينا ما أعطوه من النعم في مسايرهم ومتاجرهم ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

وبعد أن ذكر جلته قدرته قصص سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان أردف ذلك الاخبار بأنهم صدقوا ظن إبليس فيهم وفي أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لا سلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾^(١) .

التفسير

قال الامام احمد بسنده عن عبد الرحمن بن دعله قال سمعت ابن عباس يقول ان رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم (بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمدحج وكندة والأزد والاشعريون وأنمار وحير وأما الشامية فلخيم وجذام وعاملة وغسان)^(٢) رواه عن عبد الحسن بن مرسى عن ابن لهيعة به وهذا اسناد حسن .

معلومة تاريخية

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس من جملتهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تبارك وتعالى اليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيديهم سبأ شذر مذر .

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر

(٢) الحديث رواه الامام احمد في مسنده - مسند عبد الله بن عباس ح ١ ص ٣١٦

قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ ﴾ وقد ورد في تفسير العرم أقوال : قيل المراد به المياه وقيل الوادى وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع . وذلك غير واحد منهم ابن عباس وهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله - عز وجل - لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته قال وهب بن منبه وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنابير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنابير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره الجرذ نقبت أسافله حتى إذا ضعف وهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادى وضرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال الله - تبارك وتعالى - ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقادة والسدي وهو الأراك وأكلة البرر (وأثل) قال العوفي عن ابن عباس هو الطرفاء وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم .

وقوله ﴿ وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال : ﴿ وَشَيْءٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فهذا الذى صار أمر تينك الجنتين اليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ حَزِينًا لَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَاؤُا إِلَّا الْكَفُورُ ﴾ أى عاقبتهم بكفرهم وللمفسرين في هذه العبارة أقوال قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور وقال ابن ابي حاتم عن هشام بن صالح التغلبي عن ابن خيرة وكان من أصحاب على رضى الله عنه قال : جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل : وما التعسر في اللذة قال لا يصادف لذة حلالا إلا جاءه من ينغصه إياها قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْبَيْنَ وَالْأَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمَنِينَ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

المراد بالقرى التي باركنا فيها إما أن تكون قرى بصنعاء كما قال وهب بن منبه وإما أن تكون قرى الشام كما قال أبو مالك ومجاهد والحسين وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن اسلم وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم . ويعنون بذلك أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة وقال العوفي عن ابن عباس القرى التي باركنا فيها بيت المقدس وقال العوفي عنه أيضا هي قرى عربية بين المدينة والشام (قرى ظاهرة) أى بينة واضحة يعرفها المسافرون يقلون في واحدة ويبيتون في أخرى .

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن هذا العيش الرغيد والحياة الرخية التي وصفها الله تعالى بقوله ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمَنِينَ ﴾ فقد كانت لهم جنتان عن يمين وشمال فيها القطوف الدانية والثمار الناضجة والزروع والأشجار يبيتون ويقبلون بين أنهار جارية وجنات ذات بهجة وحدائق وثمار . قوله تعالى ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون اليه ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّامًا آمَنِينَ ﴾ أى الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا . والأمن نعمة عظمى من نعم الله تعالى على عباده لذا امتن الله بها على قريش فى قوله ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ (١) .

وقال جل شأنه مبينا مقدار هذه النعمة فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٢) وقد امتن الله تعالى بتلك النعمة العظمى على المؤمنين فقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (٣) وقال فى حق اهل الجنة ﴿ ان المتقين فى مقام أمين ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ (٥)

وقال تعالى فى الحديث القدسى : ﴿ يا ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع اذا كنت معافا فى بدنك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء ﴾ (٦) .

قوله تعالى ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وهذا بطر منهم لنعمة الله كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى من وسلوى ومايشتهون من مأكل ومشارب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ (٧) وقال عز وجل ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ (٨) وقال تعالى فى حق هؤلاء ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ أى بكفرهم ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أى جعلناهم حديثا للناس وسمرا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش تقول العرب فى

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة قريش

(٢) الآية ١١٢ من سورة النحل

(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام

(٤) الآية ٥١ من سورة الدخان

(٥) الآية ٥٥ من سورة الدخان

(٦) الحديث بمعناه فى الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٧٤٧ ، ٧٤٨ وفى أحاديث ضعفاء الرجال من كتب الكامل لابن عدى ح ١ ص ١٤٥٨

(٧) الآية ٦١ من سورة البقرة

(٨) الآية ٥٨ من سورة القصص .

القوم إذا تفرقوا ايدى سبا وأيدى سبا وتفرقوا شذر مذر وروى ابن ابى حاتم انه كان عكرمة يحدث بحديث أهل سبا قال : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم سبيل العرم ﴾ وكانت فيهم كهنة وكانت الشياطين يسترقون السمع فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السماء فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلمهم فلم يدر كيف يصنع ؛ لأنه كان له مال كثير من عقار فقال لرجل من بنيهِ وهو أعزهم أخوالاً يابنى إذا كان غدا وامرتك بأمر فلا تفعله فإذا انتهرتك فانتهرنى فإذا لطمتك فالطمنى قال يأبت

لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد قال يابنى قد حدث أمر لابد منه فلم يزل به حتى وافاه على ذلك فلما أصبحوا واجتمع الناس قال يابنى افعل كذا وكذا فأبى فانتهره أبوه فأجابه فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه فوثب على أبيه فلطمه فقال ابنى يلطمنى ؟ على بالشفرة قالوا ما تصنع بالشفرة قال اذبحه قالوا تريد أن تذبح ابنك : الطمه أو اصبغ ما بدا لك قال فأبى قال فارسلوا إلى أخواله .

فأعلموهم ذلك فجاء أخواله فقالوا خذ منا ما بذاك فأبى إلا أن يذبحه قالوا فلتموتن قبل أن تذبحه قال فإذا كان الحديث هكذا فإنى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ابنى فيه اشتروا منى دورى اشتروا منى ارضى فلم يزل حتى باع دوره وارضه وعقاره فلما صار الثمن فى يده واحرزه قال : أى قوم ان العذاب قد أظلمكم وزوال أمركم قد دنا فمن اراد منكم داراً جديداً وحى شديداً وسفراً بعيداً فليلحق بعمان ومن اراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببصرى ومن اراد الراسخات فى الوحل : المطاعم فى المحل المغممات فى القحل فليلحق ببشر ذات نخل فأطاعه قومه فخرج أهل عمان إلى عمان وخرجت غسان إلى بصرى وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخيل قال فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان هذا مكان صالح لا ينبغي به بدلاً فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة وتوجه أهل عمان إلى عجمان وتوجهت غسان إلى بصرى .

وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم وقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار فى أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بارسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثنى به أبو زيد الأنصارى انه رأى جرذا يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من

ارضهم فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن وكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا اغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا اقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن أغتصموا غصبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل هو فى ولده وولد ولده وقالت الأسد لانتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجلاً فى ذلك يقول عباس بن

مرداس السلمى - رضى عنه - :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا ، بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له قال ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا ونزلت ازد السراة ونزلت ازد عمان ثم ارسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفي ذلك انزل الله عز وجل هذه الآيات .
وقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى إن في هذا الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم .

قال الامام احمد بسنده عن رسول الله ﷺ « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة ليرفعها الى في امرأته » (١) وفي الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه « عجا للمؤمن لا يقضى الله تعالى له قضاء الا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٢)

وقال قتادة ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ قال كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى اذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر .

قوله تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطانه إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره هذه الآية كقوله تعالى اخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال ﴿ أرايتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا ﴾ (٣) وقال ﴿ ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (٤) ولما ذكر تعالى قصة سبا وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان اخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾

وقال الحسن البصرى لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحا بما أصاب منها وقال إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ذلك ظنا من

(١) الحديث رواه الامام احمد في مسنده - مسند ابى إسحاق سعد بن أبى وقاص - ج ١ ص ١٧٣ وعبد بن حميد والبيهقى والضياء المقدس ، عن سعد بن أبى وقاص

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب المؤمن امره كله خير - ج ٤ ص ٢٢٩٥

(٣) الآية ٦٢ من سورة الاسراء

(٤) الآية ١٧ من سورة الأعراف

إبليس فأنزل الله عز وجل ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ فقال عند ذلك إبليس لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح أعده وأمنيه واخذه فقال الله تعالى وعزى وجلالى لا أحجب عنه التوبة مالم يغرغر بالموت ولا يدعونى إلا أجبتة ولا يسألنى إلا أعطيته ولا يستغفرونى إلا غفرت له رواه جبن ابى حاتم

ولقد حذر الله تعالى عباده من هذا الشيطان الرجيم فقال ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسها ليريها سواتها انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ (٢) وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ﴾ (٣) وقال ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٤) قوله تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ (٥) قال ابن عباس رضى الله عنهما - أى من حجة وقال الحسن البصرى والله ماضريهم بعضا ولا أكرهم على شىء وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه

قال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومون ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب اليم ﴾ (٦) وقال جل شأنه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنها في النار خالدتين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٧)

وقد امرنا الله تعالى ان نتبع هداه حتى لانضل ولا نشقى قال سبحانه ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٨) وإذا كان الشيطان لاسلطان له على المؤمنين كما لاسلطان له على أحد إلا بالغواية والغرور والأمانى الكاذبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ (٩) إذا كان ذلك كذلك فإنه فتنة يختبر الله عباده بها ليظهر مدلول علم الله القديم فيمن يؤمن

(١) الآية ٢٧ من سورة الاعراف

(٢) الآية ٢١ من سورة النور

(٣) الآية ٦ من سورة فاطر

(٤) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ من سورة يس

(٥) الآية ٢١ من سورة سبأ

(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم

(٧) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الخشر

(٨) الآيات ١٢٣ الى ١٢٧ من سورة طه

(٩) الآية ١٢٠ من سورة النساء

بالآخرة وفيمن هو منها في شك وريب ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ فقد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا والشیطان ابتلاء فعلى المؤمن أن يحذره حتى لا يقع في شركه وشباكه ومكائده ومصائده .

وقد عقد الإمام ابن الجوزي باباً في مكاييد الشيطان عنونه بقوله :

في التحذير من فتن إبليس ومكائده .

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله عليه : اعلم أن الأدمي لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه وأعطى العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب وخلق الشيطان محرصاً له على الإسراف في اجتلابه واجتنابه فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم

وقد أمر الله تعالى بالحدز منه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ ^(٢) وقال تعالى ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ ^(٣) وقال ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون ﴾ ^(٤)

وقال تعالى : ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ ^(٥)

وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ ^(٦) وقال تعالى ﴿ ولا يفرنكم بالله الغرور ﴾ ^(٧)

وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ^(٨)

وفي القرآن من هذا كثير .

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله : وينبغي أن تعلم أن إبليس الذي شغله التلبس أول ما التبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود فأخذ يفاضل بين الأصول فقال : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ^(٩) ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم فقال : ﴿ أرايتك هذا الذي كرمته على ﴾ ^(١٠) والمعنى أخبرني لم كرمته على عز ذلك الاعتراض أن الذي فعلته ليس بحكمة ثم اتبع ذلك بالكبر فقال ﴿ أنا خير منه ﴾ ^(١١) ثم امتنع عن السجود فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة

(٧) الآية ٣٣ من سورة لقمان ، ٥ من سورة فاطر

(٨) الآية ٦٠ من سورة يس

(٩) الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٧٦ من سورة ص

(١٠) الآية ٦٢ من سورة الإسراء

(١١) الآية ٧٦ من سورة ص

(١) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة

(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء

(٤) الآية ٩١ من سورة المائدة

(٥) الآية ١٥ من سورة القصص

(٦) الآية ٦ من سورة فاطر

والعقاب .

فمضى سول للانسان أمرا فينبغي أن يحذر منه اشد الحذر وليقل له حين امره اياه بالسوء انما تريد بما تأمر به نصحي ببلوغى شهوتى وكيف يتضح صواب النصيح للغير لمن لا ينصح نفسه ثم كيف اثق بنصيحة عدو فانصرف فما فى لقولك منفذ فلا يبقى الا انه يستعين بالنفس ، لأنه يحث على هواها فليستحضر العقل الى تثبيت الفكر فى عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيزته فيهزم عسكر الهوى والنفس ، عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله تعالى أمرنى ان اعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا فإنه قال إن كل مال نحلته عبدى فهو له حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم الا يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا وإن الله تعالى نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . . الحديث (١)

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجرىء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يجرىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيذنيه منه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت (٢)

وعن جابر بن عبد الله يرفعه قال « إن إبليس قد يش أن يعبد المصلون ولكن فى التحريش بينهم (٣)

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى الله التقم قلبه (٤)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن الشيطان طاف بأهل مجلس الذكر ليفتنهم فلم يستطع ان يفرق بينهم فأتى حلقة يذكرون الدنيا فأغرى بينهم حتى اقتتلوا فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم ففرقوا ، وعن قتادة رضى الله عنه قال : « ان لابليس شيطانا يقال له قبقب يجمه أربعين سنة ، فإذا دخل الغلام فى هذا الطريق قال له دونك إنما كنت أجك لمثل هذا أجلب عليه وأفته .

وعن ثابت البناني رضى الله عنه قال : بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليها السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال يحيى : يا إبليس ماهذه المعاليق التى أرى عليك قال : هذه الشهوات التى أصيد بهن ابن آدم قال : فهل لى فيها من شيء قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وثقلناك عن الذكر قال : فهل غير ذلك قال لا والله قال لله على ان لا أملأ بطنى من طعام أبدا قال إبليس : والله على الا أنصح مسلما أبدا .

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى باب (إن الله) ص ١٦٢ من رواية الطبرانى فى الكبير ، عن عياض بن حماد

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣١٤

(٣) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣٦٦

(٤) الحديث رواه ابن أبى الدنيا وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أنس بن مالك (الجامع الكبير) وفى حلية الأولياء ص ٦ ص ٣٦٨

وعن الحارث بن قيس رضى الله عنه قال : اذا أتاك الشيطان وانت تصلى فقال انك مرء فزدها طولا وعن النبي ﷺ يقول : « كان راهب في بني اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها الراهب فأبى أن يقبلها فما زالوا به حتى قبلها فكانت عنده فأتاه الشيطان فسول له إيقاع الفعل بها فأحبها ثم أتاه فقال له الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن اتوك فقل ماتت فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى في قلوبهم انه احبها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها يسألونه عنها فقال : ماتت فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى ضربتها وخنقتها وأنا الذى ألقى في قلوب أهلها وأنا الذى أوقعتك في هذا فأطعنى تنج اسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذى قال عز وجل ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ (١)

وقد روى هذا الحديث على صفة أخرى عن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن عابدا كان في بني اسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرها ليس لهم أخت غيرها فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون اختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها : قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني اسرائيل وكان ثقة في أنفسهم فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن اختهم قال فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال أنزلوها في بيت حذاء صومعتي قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها فمكثت في جوار ذلك العابد زمانا ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد الى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان اعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعها على باب بيتها ولم يكلمها قال فلبث على هذه الحالة زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه وقال : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم .

لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها فلبث على ذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه فقال : لو كنت تكلمها وتحديثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة قال : فلم يزل به حتى حديثها زمانا يطلع إليها من فوق صومعته قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحديثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان أنس لها فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحديثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها قال : فلبثا زمانا يتحدثان ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبا من باب بيتها فحدثتها كان أنس لها فلم يزل به حتى فعل قال فلبثا زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له عند الله - سبحانه وتعالى - من حسن

(١) الحديث في تفسير ابن كثير - ج ٨ ص ١٠١ - في تفسير سورة الحشر عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... ﴾ وفي تفسير الطبري - ج ٢٨ ص ٣٣

الثواب فيما يصنع بها وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا ذلك حيناً ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته قال ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذاها وقبلها .

فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبها فولدت له غلاماً فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع لا آمن أن تفصح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل فقال له أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو فجاءوا فسألوه عنها فنعاهوا لهم وترحم عليها وبكاهها وقال : كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر فيبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان وقال لم يصدقكم امر أختكم وانه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعا منكم وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فانكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً .

وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى فقال كبيرهم هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فانظروا فيه

قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبحين في الحفيرة كما قيل فسألوا عنها العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت اطعني اليوم وكفرت بالله الذي خلقتك وصورك خلصتك مما أنت فيه قال : فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه قال : ففيه نزلت هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك - إلى قوله - جزاء الظالمين ﴾ ^(١)

وعن وهب بن منبه - رضى الله عنه - قال : كان راهب في صومعته في زمن المسيح عليه السلام

فأراده إبليس فلم يقدر عليه فأتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه فأتاه متشبهًا بالمسيح فناده : أيها الراهب أشرف على أكلمك قال : انطلق لشأنك فلست ارد ماضى من عمرى فقال : اشرف على فأتا المسيح فقال إن كنت المسيح فما لى اليك حاجة ألت قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة انطلق لشأنك فلا حاجة لى فيك فأنطلق اللعين عنه وتركه .

وعن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله رضى الله عنه عن ابيه قال : لما ركب نوح عليه السلام فى السفينه رأى فيها شيخا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك قال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك فقال له نوح عليه السلام اخرج يا عدو الله فقال إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنين فأوحى الله تبارك وتعالى الى نوح عليه الصلاة والسلام - انه لاحاجة لك إلى الثلاث مره يحدثك

بلاثنتين فقال بهما أهلك الناس وهما لا يكذبان : الحسد والحرص فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيا وبالحرص أبيح لآدم الجنة كلها فأصبت حاجتى منه فأخرج من الجنة قال ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال : يا موسى انت الذى اصطفاك الله برسالاته وكلمك تكليما وأنا من خلق الله تعالى أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى الى ربى - عز وجل - أن يتوب على ، فدعا موسى ربه فقبل يا موسى قد قضيت حاجتك فلقى موسى إبليس فقال له قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك فاستكبر وغضب وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ثم قال إبليس : يا موسى ان لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لأهلك فيهن اذكرنى حين تغضب فأنا وحى فى قلبك وعينى فى عينك واجرى منك مجرى الدم واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره ولده وزوجه وأهله حتى يولى وإياك ان تجالس امرأة ليست بذات محرم فانى رسولها اليك ورسولك اليها .

وعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : مابعث الله نبيا الا لم يأمن إبليس ان يهلكه بالنساء وعن الفضيل بن عياض قال حدثنى بعض أشياخنا أن ابليس لعنه الله جاء الى موسى عليه الصلاة والسلام وهو يناجى ربه تعالى فقال له الملك : ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحالة يناجى ربه قال : أرجو منه مارجوت من أبيه آدم وهو فى الجنة

عن عبد الرحمن بن زياد - رضى الله عنه - قال : بينما موسى عليه السلام جالس فى بعض مجالسه اذ أقبل إبليس وعليه برنس له يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه وقال له السلام عليك يا موسى : فقال له موسى - عليه السلام - من أنت : قال أنا إبليس قال فلا حياك الله ماجاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمنزلتك عند الله تعالى ومكانك منه قال : فما الذى رأيته عليك قال : به اختطف قلوب بنى آدم قال : فما الذى اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذر ثلثا :

لاتخلون بامرأة لاتحل لك قط فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها .

ولاتعاهد الله عهدا إلا وفيت به فإنه ماعاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء به .

ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين إخراجها ثم ولي وهو يقول : ياويله ثلاثا علم موسى ما يحذر به بنى آدم . وعن حسن بن صالح قال : سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى ارمى به فلا أخطيء وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى .

قال وهب بن منبه : قال راهب للشيطان وقد بدا له أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم قال الحدة إن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وعن سليمان بن المغيرة عن ثابت رضى الله عنه قال : لما بعث النبى ﷺ جعل إبليس لعنه الله يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى ﷺ فيجيئون إليه بصحفهم ليس فيها شيء فيقول لهم مالكم لاتصيبون منهم شيئا فقالوا : ما صحبتنا قوما مثل هؤلاء فقال رويدا بهم فعسى أن تفتح لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بث جنوده فى الأرض فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق امرأته قال يوشك أن يتزوج ويقول آخر لم أزل بفلان حتى علق قال يوشك أن يبر .

ويقول آخر لم أزل بفلان حتى زنى قال أنت ويقول آخر لم أزل بفلان حتى شرب الخمر قال أنت قال : ويقول آخر لم أزل بفلان حتى قتل فيقول : أنت أنت وعن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل فقال لأقطعن هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضبا لله فلقى إبليس فى صورة إنسان فقال : ماتريد ؟ أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال لأقطعنها فقال له الشيطان هل لك فيما هو خير لك لاتقطعها ولك ديناران كل يوم اذا أصبحت عند وصادتك قال فمن أين لى ذلك قال أنا لك فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وصادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئا فقام غضبا ليقطعها فتمثل له الشيطان فى صورته وقال ماتريد ؟ قال أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى قال كذبت مالك الى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله قال أتدرى من أنا ؟ أنا الشيطان جئت أول مرة غضبا فلم يكن لى عليك سبيل فخدعتك بالدينارين فتركته فلما جئت غضبا للدينارين سلطت عليك .

وعن زيد بن مجاهد قال : لا إبليس خمسة من ولده قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ثم سماهم : فذكر بثر والأعور ومسوط وداسم وزكنبور فأما بثر فهو صاحب المصيبات الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الحدود ودعوى الجاهلية

وأما الأعور فهو صاحب الزنا الذى يأمر به ويزينه وأما مسوط فهو صاحب الكذب الذى يسمع فيلقى الرجل فيخبره بالخبر فيذهب الرجل إلى القوم فيقول لهم قد رأيت رجلا أعرف وجهه ولا أدري ما اسمه حدثنى بكذا وكذا وأما داسم فهو الذى يدخل فى الرجل الى أهله يريه العيب فيهم ويغضبه عليهم وأما زكنبور فهو صاحب السوق الذى يركز رايته فى السوق .

وعن مخلد بن الحسين قال : مانذب الله العباد الى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين مايبالى بأيهما ظفر : إما غلو فيه وإما تقصير عنه .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن إبليس موثق في الأرض السفلى فإذا هو تحرك كان كل شرفي الأرض بين اثنين فصاعدا من تحركه .

وفتن الشيطان ومكايده كثيرة ولكثرة فتن الشيطان وتشبهها بالقلوب عزت السلامة فإن من يدع إلى ما يحث عليه الطبع كمداد سفينه منحدره فيأسرعه انحدارها ولما ركب الهوى في هاروت وماروت لم يستمسكا فإذا رأت الملائكة مؤمنا قد مات على الايمان تعجبت من سلامته وعن عبد العزيز بن رفيع قال : إذا عرج بروح المؤمن إلى السماء قالت الملائكة سبحان الله الذي نجى هذا العبد من الشيطان ياويحه كيف نجا .

ذكر الإعلام بأن مع كل انسان شيطانا

عن عروة بن الزبير قال : **﴿** إن عائشة زوج النبي **ﷺ** حدثته أن رسول الله **ﷺ** خرج من عندها ليلا قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال : مالك يا عائشة أغرت ؟ فقلت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال : أوقد جاءك شيطانك ؟ قالت : يا رسول الله أو معي شيطان ! قال نعم قلت : ومع كل إنسان قال نعم قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال نعم ولكن ربي - عز وجل - أعانني عليه حتى أسلم **﴿** (١) انفرد به مسلم . ويجيء بلفظ آخر أعانني عليه فأسلم : عامة الرواة يقولون : فأسلم على مذهب الفعل الماضي إلا سفيان بن عيينة فإنه يقول فأسلم من شره وكان يقول الشيطان لا يسلم وقول ابن عيينة حسن وهو يظهر اثر المجاهدة لمخالفة الشيطان إلا أن حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عيينة وهو (مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي ولكن الله - عز وجل - أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق وفي روايه فلا يأمرني إلا بخير .

بيان أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم

عن صفية بنت حيي زوج النبي قالت كان رسول الله **ﷺ** معتكفا فأتته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبنى (أي ليردني إلى منزلي) وكان مسكنا في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله **ﷺ** أسرعا فقال النبي - **ﷺ** على رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا : سبحان الله يا رسول الله قال : **﴿** إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شرا - أو قال شيئا **﴿** (٢) .

قال الخطابي : وفي هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ويخطر بالقلوب وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب ويحكي في

(١) الحديث رواه الامام مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ج ٤ ص ٢١٦٨ رقم ٧٠

(٢) الحديث في رياض الصالحين ص ٦٦٨ رقم ١٨٤٦ متفق عليه

هذا عن الشافعي - رضي الله عنه - انه قال : خاف النبي - ﷺ ان يقع في قلوبهم شيء من أمر فيكفروا وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليها لاعلى نفسه .

ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم

قد أمر الله تعالى - بالتعوذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة فقال تعالى ﴿ ولما قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾^(١)

وعند السحر فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾^(٢) الى آخر السورة .

فإذا أمر بالتحرز من شره في هذين الأمرين فكيف في غيرهما

قيل لعبد الرحمن بن حنبل : أدركت النبي - ﷺ قال : نعم قلت كيف صنع رسول الله - ﷺ - ليلة كادته الشياطين ؟ فقال : إن الشياطين تحدت تلك الليلة على رسول الله - ﷺ - من الأودية والشعاب وفيهم شيطان بيده شعلة نار

يريد أن يحرق بها وجه رسول الله - ﷺ - فهبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل : قال : ما أقول ؟ قال :

قل : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذراً ويراً ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقاً بطرق بخير يا رحمن قال : فطفت نارهم وهزمهم الله تعالى .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي - ﷺ - قال : ﴿ ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلقت ؟ فيقول الله - تبارك وتعالى - فيقول : فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ﴾^(٣)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه قال : ﴿ ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾^(٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين فيقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول هكذا

(١) الآية ٩٨ من سورة النحل

(٢) الآية ١ من سورة الفلق

(٣) الحديث رواه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، عن عائشة (الجامع الكبير للسيوطي ج ١ ص ٢٠٢)

(٤) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٢ ص ١٧٩ رقم ٩٩٩٣

كان أبى ابراهيم - ﷺ يعوذ اسماعيل واسحاق (١) أخرجاه فى الصحيحين . والهامة هى واحد الهوام ويقال هى كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون ذلك أخف على اللسان .

قال مطرف : نظرت فإذا ابن آدم ملقى بين يدى لله - عز وجل - وبين إبليس فمن شاء أن يعصمه عصمه وإن تركه ذهب به إبليس .

وحكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ماتصنع بالشيطان إذا سؤل لك الخطايا قال ؟ أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده .

قال هذا يطول أرأيت إن مررت بغنم فنجك كلبها أو منعك من العبور ماتصنع ؟ قال أكابده وارده جهدى قال هذا يطول عليك ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك .

وأعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام فمر به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أحساه لم يبرح فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر والثانى مثل المخلط لايفارقه الشيطان لمكان تخليطه . نعوذ بالله من الشيطان .

فى معنى التلبيس والغرور

التلبيس إظهار الباطل فى صورة الحق ، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والردىء جيدا سببه وجود شبهه أو جبت ذلك وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر مايمكنه ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم . وأعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم وساكنه العقل ، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن وإلى جانبه ربض فيه الهوى والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لاتزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم . فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ، وأن لايفتر عن الحراسة لحظة . فإن العدو مايفتر .

قال رجل للحسن البصرى : أينام إبليس ؟ قال : لونام لوجدنا راحة ؟ وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان .

وفيه مرآة صقيلة يترأى فيها صور كل مايمر به ، فأول مايفعل الشيطان فى الربض اكثار الدخان فتسود حيطان الحصن ، وتصعد المرأة وكمال الفكر يرد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرأة ، وللعنود حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعات وربما اقام لغفلة الحارس ، وربما ركدت الريح الطاردة فتسود حيطان الحصن وتصعد المرأة فيمر الشيطان ولايدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلته واسرو استخدم واقيم يستنبط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار

(١) الحديث أخرجه البخارى - فى الانبياء - ج ٤ ص ١٧٩ ، والترمذى فى الطب حديث ٢٠٦١ . وأحمد ج ١ ص ٢٣٦ ، وابن ماجه فى الطب حديث ٣٥٢٥

كالفقيه في الشر قال بعض السلف : رأيت الشيطان فقال لي قد كنت ألقن الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم .

وربما هجم الشيطان على الذكي الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر إليها فيستأسره ، وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى الجهل ، وأوسطه في القوة الهوى ، وأضعفه الغفلة ، ومادام درع الإيمان على المؤمن ، فإن نبل العدو لا يقع في مقتل .

ويقول الحسن بن صالح - رحمه الله - يقول : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير يريد به بابا من الشر .

وعن حماد بن شعيب عن الأعمش قال : حدثنا رجل كان يكلم الجن قالوا : ليس علينا اشد ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإننا نلعب بهم لعبا .

نختم هذا البحث بتلك القاعدة النافعة التي ذكرها ابن القيم في تفسيره للمعوذتين فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ، ويحترز به منه .

وذلك عشرة اسباب . (الحرز الأول)

الحرز الأول : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾^(١) وفي موضع آخر ﴿ إنه سميع عليم ﴾^(٢) وقد تقدم : إن السمع المراد به ههنا سمع الاجابة لا مجرد السمع العام وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة « هو » الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالالف واللام في سورة حم لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه في سورة الأعراف ، لاستغناء المقام عنه . فإن الأمر بالاستعاذة في سورة حم وقع بعد الأمر بأشقي الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسمى بالاحسان إليه . وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ، ولا يلقاه الا ذو حظ عظيم . كما قال تعالى ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾^(٣) .

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ، ويسلط عليه عدوه ، فيدعوه الى الانتقام ، ويزينه له . فإن عجز عنه دعاه الى الاعراض عنه والا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الاحسان الى المسمى الا من خالقه وآثر الله وماعنده على حظه العاجل . فكان المقام مقام تأكيد وتحريض . فقال فيه ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ . وأما في سورة الأعراف : فإنه أمره ان يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالاحسان ، بل الاعراض . وهذا سهل على النفوس ، غير مستعص عليها . فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالاحسان فقال ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾ .

(١) الآية ٣٦ من سورة فصلت

(٢) الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف

(٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت

وفي صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن حرد قال « كنت جالسا مع النبى ﷺ ورجلان يستبان . فأحدهما احمر وجهه وانتفخت اوداجه . فقال النبى ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد . لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد » (١) .

الحرز الثانى :

قراءة المعوذتين فإن لهما تأثيرا عجيبا فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ولهذا قال النبى ﷺ -

« ماتعوز المعوذون بمثلها » (٢) وقد كان يتعوذ بهما كله ليلة عند النوم ، وأمر (عقبة) أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وقال ﷺ « إن من قرأهما مع سورة الاخلاص ثلاثا حين يمسي ، وثلاثا حين يصبح ، كفته من كل شئ » (٣) .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسي . ففى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « وكلفنى رسول الله - ﷺ - بحفظ زكاة رمضان فأتى آت ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت إلا رفعتهك الى رسول الله - ﷺ - فذكر الحديث ، الى أن قال - فقال : إذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى ﷺ - : صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان » (٤) .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة : ففى الصحيح من حديث سهل بن عبد الله عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا . وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » (٥) .

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة . قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ : « (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه) » (٦) وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ - قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » (٧) .

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ج ٤ ص ١٥١

(٢) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤٤ ، وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٤٩ تفسير سورتي المعوذتين وفى كتر ٢ ص ٣١٢ رقم ٤٠٨٩

(٣) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤١ وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٣٩ تفسير سورة الاخلاص وفى كتر العمال - ج ٢ ص ٣١١

(٤) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - فضل البقرة - ج ٦ ص ٢٣٢

(٥) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٣٩ رقم ٢١٢ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٧

(٦) الحديث فى صحيح مسلم - صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٥٥ رقم ٢٥٦ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٤ رقم ٣٠٤٣

(٧) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٥ رقم ٣٠٤٤

الحرز السادس : أول سورة حم المؤمن الى قوله (اليه المصير) مع آية الكرسي .
ففى الترمذى بسنده عن ابى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « من قرأ حم المؤمن الى قوله (اليه المصير) او آية الكرسي حين يصبح حفظ بها حتى يمسى ، ومن قرأها حين يمسى حفظ بها حتى يصبح » (١) والحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .
ففى الصحيحين من حديث ابى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة . » وميت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير على من يسره الله عليه ، (٢)

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من للشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل . ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعري أن النبى - ﷺ - قال « ان الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، وانه كاد ان يبطىء بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى اسرائيل ان يعملوا بها . فإما أن تأمرهم وإما أن أمرهم . فقال يحيى : أخشى أن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب . فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلا ، وقعدوا على الشرف . فقال : ان الله امرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم ان تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن مثل من اشرك بالله كمثلى رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدى الى غير سيده . فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته مالم يلتفت : وأمركم بالصيام : فإن مثل ذلك كمثلى رجل فى عصابة معه

صبره فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها . وان ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثلى رجل أسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

وأمركم ان تذكروا الله . فإن مثل ذلك كمثلى رجل خرج العدو فى اثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك القبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبى - ﷺ - وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن ! السمع والطاعة . والجهاد . والهجرة ، والجماعة فإن من

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٩

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء - ج ٤ ص ٢٠٧١ رقم ٢٨

فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ، إلا أن يراجع . ومن أدعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل : يا رسول الله وإن صلى وصام قال : وإن صلى وصام . فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله^(١)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى الحارث الأشعري له صحبه . وله غير هذا الحديث)

فقد أخبر النبى - ﷺ - فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس . والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس ، وتجمع وانقبض وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى اليه الوسوس التى هى مبادئ الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة . فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم . كما فى الترمذى من حديث ابى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ - أنه قال « ألا وإن الغضب جرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم الى جرة عينيه وانتفاخ اوداجه ! فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض »^(٢)

وفى أثر آخر « ان الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء » فما أطفأ العبد جرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار والوضوء يطفئها ، والصلاة اذا وقعت بخشوعها والاقبال فيها على الله أذهبت أثر كله . وهذا أمر تجربته تغنى من إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام والطعام ، ومخالطة الناس : فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه : من هذه الأبواب الأربعة . فإن فضول النظر يدعو الى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به .

فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما فى المسند عن النبى - ﷺ - أنه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه الى يوم يلقاه »^(٣) أو كما قال

فالحوادث العظام إنما هى كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لاحسرة ؟ كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر !

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الامثال - ج ٤ - ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٣

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الفتن - ج ٣ - ص ٣٢٧ رقم ٢٢٨٦

(٣) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى - باب النظرة - ص ٤٥٢

وفى كتر العمال ج ٥ ص ٣٢٩ رقم ١٣٠٧٥ وفى المستدرک للحاكم ج ٤ ص ٣١٤

وقال الآخر :

وكننت متى أرسلت طرفك رائدا
رأيت الذي لا كله أنت قادر

ولي من أبيات :

ياراميا بسهام اللحظ مجتهدا
وباعث الطوف يرتاد الشفاء له
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض
ومفنيا نفسه في إثر أقبحهم
وواها عمره في مثل ذا سفها
وبائعا طيب عيش ماله خطر
غبت والله غبنا فاحشا فلو اسـ
وواردا صفو عيش كله كدر
وحاطب الليل في الظلماء منتصبا
شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت
مافي الديار وقد سارت ركائب من
فافرش الخد ذياك التراب ، وقل
ماربع مية محفوقا يطوف به
ولا الخدود وان آدمين من خرج
منازل كان يهواها ويألفها
فكلما جليت تلك الربوع له
أحياله الشوق تذكّار العهود بها
هذا وكم منزل في الأرض يألفه
مافي الجيام أخو وجد ريحك إن
وأسر في غمرات الليل مهتديا
وعاد كل أخى جبن ومعجزة
وخذ لنفسك نورا تستضيء به
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه

لقلبك يوما اتعبتك المناظر
عليه ، ولاعن بعضه انت صابر

انت القليل بما ترمى ، فلاتصب
ترفه ، انه يرتد بالعطب
فهل سمعت بيرء جاء من عطب ؟
وصفا للسطخ حجال فيه مستلب
لوكننت تعرف قدر العمر لم تهب
بطيف عيش من الآلام منتهب
ترجعت ذا القعد لم تغبن ولم تحب
أمامك الورد صفوا ليس بالكذب
لكل داهية تدنى من العطب
وضاع وقتك بين اللهو واللعب
والضى في الأفق الشرقى لم يغب
عن أفقه ظلمات الليل والسحب
ورسل ربك قد واقتك في الطلب
تهواه للصب من سكنى ولاأرب
ماقاله صاحب الأشواق في الحقب
عيلان أشهى له من ربعك الحزب
أشهى الى ناظري من خدك الترب
أيام كان منال الوصل من كتب
يهوى إليها هوى الماء في حيب
فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
وماله في سواها الدهر من رغب
بشته بعض شأن الحب ، فأغترب
بنفحة الطيب لا بالنار والخطب
وحارب النفس لاتلقيك في الحرب
يوم اقتسام الورى بالأثوا بالرتب
إلا بنور ينجى العبد في الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد ابواباً من الشر كلها مداخل للشيطان ، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبي - ﷺ - لمعاذ « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد الستهم »^(١) وفي الترمذي أن رجلاً من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة : طوي له ، فقال النبي - ﷺ - « فما يدريك ؟ فلعلة تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه »^(٢)

وأكثر المعاصي : إنما يولدها فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل للشيطان . فإن جارحيتها لا يملان ، ولا يسأمان ، بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترأ من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الاطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات . وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ماشيء أحوج إلى طول سجن من اللسان .

وأما فضول الطعام : فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات . وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام وكم من طاعة حال دونها ؟

فمن وقى شر بطنه وقى شراً عظيماً .

والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء في بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » وقال النبي - ﷺ - « ماملأ آدمى وعاء شراً من بطن »^(٣) ولولم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعدته ، ومناه وشهاه ، وهام به في كل واد . فإن النفس إذا شبت تحركت وجالت وطافت على ابواب الشهوات . وإذا جاءت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة :

فهى الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة . وكم زرعت من عداوة . وكم غرست في القلب من حزازات تزيل الجبال الراسيات وهى في القلوب لا تزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة . ويجعل الناس فيها أربعة أقسام : متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل الشر . أحدها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وامره ، ومكايد عدوه ، وامراض القلوب وادويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه . فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح .

(١) الحديث في سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - ج ٢ ص ١٣١٤ ، ١٣١٥ رقم ٣٩٧٣

(٢) الحديث في سنن الترمذي - أبواب الزهد - ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ٢٤١٨

(٣) الحديث في مسند أحمد - ج ٤ ص ١٣٢

القسم الثاني : مَنْ مخالطته كالدواء ، يحتاج اليه عند المرض فمادمت صحيحا فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش ، وقيام ماأنت محتاج اليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث : وهم من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وانواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه في دين ولادنيا . ومع ذلك فلا بد من أن تحسر عليه الدين والدنيا او احدهما .

فهذا اذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهي مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك فإذا فارقك سكن الألم . ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذي لا يحسن ان يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل ان تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع اعجابه بكلامه وفرحه به فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن انه مسك يطيب به المجلس . وان سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولاجرها على الأرض . ويذكر عن الشافعي - رحمه الله - أنه قال : ما جلس ثقيل الا وجدت الجانب الذي هو فيه انزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوما عند شيخنا قدس الله روحه - ابن تيمية - رجلا من هذا الضرب والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت الى وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع . ثم قال . لكن قد أدمنت أرواضا على الحمى ، فصارت لها عادة او كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى الروح ، فعرضية ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد ان يتبلى بواحد من هذا الضرب . وليس له بد من من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب في الناس لاكثرهم الله . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله - ﷺ - الداعون الى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة ، والمعروف منكرا والمنكر معروفا .

ان جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

وان جردت المتابعة لرسول الله - ﷺ - قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين .

وان وصفت الله بما وصف به نفسه ، وبما وصف به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من

المشبهين .

وان أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا :

أنت من المفتنين .

وإن اتبعت السنه وتركت ماخالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

وان انقطعت الى الله تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا : انت من الملبسين .
وان تركت مانت عليه واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم ، التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لا تشتغل بأعتابهم ، ولا باستعتابهم ، ولا تبالي بدمهم ولا بغضهم . فإنه عين كما لك كما قال :
وإذا اتتك مذمتى من ناقص . . . فهي الشهادة لى بأنى فاضل
فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التى هى اصل البلاء ، وهى فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، والمخالطة واستعجل ماذكرناه من الاسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان فقد اخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها ابواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ويوشك ان يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء . فعند الممات يحمد القوم التقى . وفى الصباح يحمد القوم السرى والله الموفق لارب غيره ، ولا إله سواه .

مناقشة المشركين وإفحامهم

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۝٢٢ ﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ۝٢٣ ﴾ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ ﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥ ﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝٢٦ ﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُحْصِمُ بِهِ شُرَكَاءَ كُلًّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٧ ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٩ ﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠ ﴾ *

معاني المفردات

مثقال ذرة : وزن ذرة - ظهير : معين ، فزع عن قلوبهم : هن التفريع وهو إزالة الفزع والخوف عن قلوبهم - أجرنا : أذننا من الجرم وهو الذنب ، يفتح : يحكم ، والفتاح الحاكم ، لأنه يفتح طريق الحق ويظهره . كلا : كلمة ردع لهم ، كافة : أى مانعاهم من الكف وهو المنع ، أو جامعا لهم مأخوذ من الكف بمعنى الجمع والتاء للمبالغة والمراد جامعا للناس فى الإبلاغ .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر عزت قدرته مآتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لاحصر لها ، ومافعله بسبأ حين بطرو النعمة وكذبوا الرسل - أعقب ذلك بأمر رسوله - ﷺ - أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتموه شركاء الله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فأعلموا انهم مبطلون . ثم ذكر سبحانه أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك ، إذ لاتصرف لهم فى شيء فى السموات والأرض لاستقلالهم ولاشركه ، ولاهم معينون للخالق فيهما ، ولاتنفع الشفاعة لديه فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم . ثم أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق والرزق وانفراده بالالهية وان يخبروا بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد مبطل والآخر محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ماأنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لاتؤاخذون بما نعمل ولا تؤاخذ بما تعلمون ، وان يقول لهم : ان ربنا هو الذى يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلال الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل هو الله الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل مايفعل وبعد أن أقام سبحانه الأدلة على التوحيد ، وضرب لذلك الأمثال . شرع يذكر الرسالة ويبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس لايعلمون غن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

التفسير

قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع وحجة دامغة . . تصيح بأعلى صوتها ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أى معبوداتكم التى اتخذتموها آله من دون الله ، أى شيء فيها من خصائص الألوهية ، إن هذه المعبودات باطلة ، انهم لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض اذا لاخلق ولا رزاق إلا الله .

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾^(١) .

وما أصدق قوله جل شأنه : ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾^(٢)

وما اعظم قوله تبارك اسم ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾^(٣) .

وما أجل قوله تبارك وتعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾^(٤) .

وأمر الله تعالى نبيه بالحمد على التوحيد فقال : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ﴾^(٥) .

قوله تعالى ﴿ وما لهم فيها من شرك ﴾ أى ليس لهؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله نصيب في السموات ولا في الأرض قوله تعالى ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ قال قتادة : من عون يعينه بشيء . فأسألوا انفسكم ايها المعاندون المجادلون بالباطل ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين يدعون من

(١) الآيات ١٣ الى ١٧ من سورة فاطر

(٢) الآيات ١٩١ الى ١٩٨ من سورة الأعراف

(٣) الآيات ١ الى ٣ من سورة الفرقان

(٤) الآيات ١ الى ٤ من سورة الملك

(٥) الآية ١١١ من سورة الاسراء

دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون آيان يبعثون ، إلهاكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين^(١) .

قوله تعالى ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ . ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾^(٣) ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله - ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال « فأسجد لله تعالى فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ويفتح علي بمحامد لأحصيها الآن ثم يقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع - الحديث »^(٤) .

وقوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه ارعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، قاله ابن مسعود - رضي الله عنه - ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ أي زال الفزع عنها قال ابن عباس وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقتادة في قوله - عز وجل - ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ يقول خلى عن قلوبهم ، ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان .

وقال آخرون في معنى قوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا منه من الغفلة في الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا .

وقال مجاهد (حتى إذا فزع عن قلوبهم) كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعني مافيهما من الشك والتكذيب . ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ قال وهذا في بني آدم هذا عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الاقرار وقد اختار ابن جرير أن الضمير عائد على الملائكة وهذا هو الحق الذي لامرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار . ولنذكر منها طرفا يدل على غيره قال البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول ان نبي الله - ﷺ - قال (إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)^(٥) انفرد به البخاري

(١) سورة النحل الآيات : ١٧ - ٢٣ (٤) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الإيمان ج ١

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة وفي صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة "آثرة" ج ٦ ص ٢١ ، ٢٢ ط

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء (٥) الحديث في صحيح البخاري - تفسير سورة الحجر - ج ٦ ص ١٠٠ ط

دون مسلم من هذا الوجه ، وقد راوه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة .
وقال ابن أبي حاتم بسنده عن النواس بن سمعان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ
(اذا اراد الله - تبارك وتعالى - أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة -
أو قال رعدة . شديدة من خوف الله تبارك وتعالى فإذا سمع بذلك أهل السموات صبعقوا وخروا لله
سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضى به
جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلما مر بسما يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل ، فيقول
عليه السلام : قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى الى
حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض)^(١) .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وعن قتادة انهما فسرا
هذه الآية بابتداء إحياء الله تعالى الى محمد - ﷺ - بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة
والسلام ، ولا شك ان هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

قال الامام ابن القيم فى تفسير قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون
مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيها شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده
الا لمن أذن له ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التى دخلوا منها
الى الشرك وسدت بها عليهم الباب ابلغ سد واحكمه ؟ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه ،
ولا فلو كان لا يرجو منفعة منه فلا يتعلق قلبه به ابدا ، وحينئذ فلا بد ان يكون المعبود إما مالكا
للسبب التى يتنفع بها عابده ، أو شريكا للمالكها ، أو ظهيرا أو وزيرا أو معاونا له ، أو وجيها ذا حرمة
وقدر ، يشفع عنده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت اسباب الشرك وانقطعت
مواده .

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة فى السموات والأرض . فقد يقول المشرك : هى
شريكة للمالك الحق . فنفى شركها له .

فيقول المشرك : قد تكون ظهيرا أو وزيرا ، أو معاونا . فقال سبحانه ﴿ وما له منهم من
ظهير ﴾ .

ولم يبق الا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده الا بإذنه فإن لم يأذن للشافع
لم يتقدم بالشفاعة بين يديه ، كما يكون فى حق المخلوقين . فإن المشفوع عنده يحتاج الى الشافع
ومعاونته له فيقبل شفاعته ، وإن لم يأذن له منها . وأما من كل ماسواه فقير اليه بذاته ، فهو الغنى بذاته
عن كل ماسواه .

فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه ؟

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٧ من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم وابن السكيت فى العظمة وابن مردويه وفى
الاسماء والصفات والطبرانى فى الكبير عن النواس بن سمعان

كلمة في الشفاعة

تعريفها :

الشفاعة لغة : كمال قال ابن الأثير في النهاية : قد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم ، يقال : شفّع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع ، والمشفّع (بكسر الفاء) الذي يقبل الشفاعة ، والمشفّع (بفتح الفاء) الذي تقبل شفاعته .

وفي القاموس وتاج العروس : والشفيع صاحب الشفاعة والجمع شفعاء ، وهو الطالب لغيره يتشفّع به الى المطلوب .

وفيهما ايضاً : وشفعته فيه تشفيها حين شفّع كمنع شفاعة اي قبلت شفاعته .
وفي حديث الحدود : (إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع) (موقف على الزبير بن العوام)

وفي حديث ابن مسعود : (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق)^(١) .
أي من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعة من العفو عن فرطاته ، ومن ترك العمل به تم على إساءته وصدق عليه فيما يرفع من مساويه .

فالمشفّع : الذي يقبل الشفاعة ، والمشفّع (بفتح الفاء) الذي تقبل شفاعته ، ومنه حديث « اشفع تشفع »

والشفاعة في الشرع موافقة للمعانى اللغوية . فمن الشفعاء من يشفع ابتداء ، ومنهم من يشفع بعد الطلب ، كما سيأتى إن شاء الله بيانه في الأحاديث .

آيات خاصة بالشفاعة

ورد في القرآن الكريم آيات تنفى الشفاعة ، وأخرى تثبتها وقد جمع العلماء بينها ولنذكر الآيات التي تنفيها ثم نتبعها بالآيات التي تثبتها ثم نذكر ما قاله العلماء في الجمع بينهما : -

الآيات الواردة في نفى الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾^(٢) وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾^(٣) .

وقال تعالى حاكياً عن بعض الصالحين ﴿ أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ﴾^(٤) ففي هذه الآيات نفى الشفاعة .

(١) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧

(٢) الآية ٤٨ من سورة البقرة

(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة

(٤) الآية ٢٣ من سورة يس

وقال تعالى : ﴿ وأندر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وفر الذين اتخذوا دينهم لعبا وهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بماكسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبثون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٣) .
وقال تعالى حاكيا عن أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ، ولا صديق حميم . فلو أن لناكرة فنكون من المؤمنين ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون ﴾ (٦) .

وقال تعالى ﴿ وأندرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين مالم الظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ (٧) .

ففى هذه الآيات نفى الشفيع

الآيات فى إثبات الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه ﴾ (٨) .

وقال تعالى ﴿ مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ (٩) .

وقال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ (١٠) .
ففى هذه الآيات إثبات الشفيع بشروط .

وقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرهما قاعا صفصفا : لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾ (١١) .

(٦) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر
(٧) الآية ١٨ من سورة غافر
(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٩) الآية ٣ من سورة يونس
(١٠) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء
(١١) الآيات ١٠٥ - ١٠٩ من سورة طه

(١) الآية ٥١ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنعام
(٣) الآية ١٨ من سورة يونس
(٤) الآيات ١٠٠ الى ١٠٢ من سورة الشعراء
(٥) الآية ٤ من سورة السجدة

وقال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ (١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ثم قال ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أى من الأصنام والأوثان (الشفاعة) أى لا يقدرّون على الشفاعة لهم (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) هذا استثناء منقطع أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . أه .
وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (٢).

هذه الآيات تدل على الشفاعة المثبتة بشروط .

الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية

يتحصل من هذا أن النفى مقصود به الشفاعة التى تطلب من غير الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ والشفاعة المثبتة لا تقبل إلا بشروط .

١ - قدرة الشافع على الشفاعة كما قال تعالى فى حق الشافع الذى يطلب منه وهو غير قادر على الشفاعة : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فعلم من هذا أن طلب الشفاعة من الأموات طلب ممن لا يملكها قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

وقال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .
٢ - اسلام المشفوع له : قال تعالى : ﴿ مالم للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ والمراد بالظالمين هنا ، الكافرون ، بدليل الأحاديث المتواترة فى الشفاعة لأهل الكبائر وستأتى إن شاء الله فى موضعها .
قال الحافظ البيهقى - رحمه الله - فالظالمون هاهنا هم الكافرون ، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذهى فى ذكر الكافرين . أه .

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية : أى ليس للذين ظلموا انفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . أه .
٣ - الأذن للشافع ، كما قال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .
٤ - الرضا عن المشفوع له كما قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ .

(١) الآية ٨٦ من سورة الزخرف

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم

الشفاعة العظمى

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نيسة ثم قال :

(أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذلك ؟ يجمع الناس - الأولين والآخرين - فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يهتملون ، فيقول الناس : الا ترون ما قد بلغكم ؟ الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له : أنت ابو البشر خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ الا ترى الى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحا ، فيقولون : يانوح انك انت اول الرسل الى اهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى وعز وجل - قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة ، دعوتها على قومى ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم ، فيقولون يا ابراهيم انت نبي الله وخليله من اهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانى قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن ابو حيان فى الحديث نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : ياموسى انت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفسا لم أوامر بقتلها نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون الى عيسى فيقولون : ياعيسى انت رسول الله وكلمته الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس من المهد صبيا ، اشفع لنا ، الا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى . إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد - ﷺ - فيأتون محمدا ، فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟ فأنطلق فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى - عز وجل - ثم يفتح على من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبل ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأس فاقول : أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يا محمد ادخل من امتك من لاحتساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب - ثم قال - والذى نفسى بيده ان ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير . وكما بين مكة وبصرى)^(١) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان ج ١ ص ١٨٤ رقم ٣٢٧

وفى مسند أحمد - ج ١ ص ٢٨١

الحديث أخرجه مسلم والترمذى وأحمد وابن خزيمة وأبو عوانه وعندهم كلهم إلا البخارى وأبا عوانه (ما بين مكة وهجر) .

وأخرج البخارى أيضا بسنده عن أنس أن النبى - ﷺ - قال : يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون : لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أما ترى الناس خلقت الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا الى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناك ويذكر لهم خطيئة التى أصاب ولكن اتوا نوحاً لميأتون نوحاً فيقول : لست هاك ويذكر خطيئته التى أصاب ولكن اتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول : فيأتون ابراهيم فيقول : لست هناك ويذكر لهم خطاياهم التى أصابها ولكن اتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه تكليماً فيأتون موسى فيقول : لست هناك ويذكر خطيئته التى أصابها ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول : لست هناك ولكن اتوا محمداً - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه ماتأخر فيأتونى فأنطلق فاستأذن على ربى فيؤذن لى عليه فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال لى : ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال : ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فأقول : يارب مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود

فقال النبى - ﷺ - : (يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه ما يزن من الخير ذرة)^(١)

شفاعة النبى ﷺ وكونه

أول شفيع

روى الامام مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ - (أنا أول الناس يشفع فى الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً)^(٢)

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - وآله وسلم : (أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة)^(٣) .

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب التوحيد - ج ٩ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ج ١ الشعب

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٠

(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣١

وعن انس بن مالك قال : قال النبي - ﷺ - (أنا أول شفيع في الجنة ولم يصدق بني ماصدقت وإن من الأنبياء نبياً ما يصدق من أمته إلا رجل واحد) (١) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - (أتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك) (٢) .

عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - (للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها - قال - ويبقى منبري لأجلس عليه ولا أقعد قائم بين يدي الله ربي مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى فأقول : يارب أمتي فيقول الله عز وجل - : يا محمد ما تريد أن تصنع بأمتك فيقول : يارب عجل حسابهم فيدعى بهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي فما أزال أشفع حتى أعطى صكاً ببرجال قد بعث بهم إلى النار وحتى أن مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت للنار لغضب ربك من نقمة) (٣) .

الحديث أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يحتجا بمحمد بن ثابت البناني وهو في مسند الحديث وهو قليل الحديث يجمع حديثه والحديث غريب في أخبار الشفاعة فتعقبه الذهبي فقال : ضعفه غير واحد والحديث منكر .

روى ابن خزيمة بسنده عن سلمان الفارسي قال : (يأتون النبي ﷺ فيقولون : يا نبي الله أنت الذي فتح الله بك وختم وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فاشفع لنا إلى ربك فيقول : نعم أنا صاحبكم فيخرج بحوش النار حتى ينتهي إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة في الباب من ذهب فيقرع الباب فيقال : من هذا فيقال : محمد قال : فيفتح له قال : فيجىء حتى يقوم بين يدي الله فيستأذن في السجود فيؤذن له قال : فيفتح الله له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يفتحه لأحد من الخلائق فينادي : يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه وادع تجب قال : فيرفع رأسه فيقول : رب أمتي أمتي ثم يستأذن في السجود فيؤذن له فيفتح له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحد من الخلائق فينادي : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع وادع تجب قال : يفعل ذلك مرتين أو ثلاثاً فيشفع لمن كان في قلبه حبة من حنطة أو مثقال شعيرة أو مثقال حبة من خردل من إيمان .

قال سلمان : فذلك المقام المحمود)

وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إني لأول الناس تنشق الأرض عن حجمته يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر سأتى باب الجنة فيفتحون لي فأسجد لله تعالى فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع لك وقل يقبل منك واشفع تشفع فأرفع فأقول : أمتي يارب فيقول : اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من إيمان فأدخله الجنة فأقبل بمن وجدت في قلبه ذلك فأدخلهم الجنة وآتى الجبار وأسجد له فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك وقل يقبل قولك واشفع تشفع فأقول : أمتي أمتي فيقول : اذهب إلى أمتك

(١) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الإيمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٢

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الإيمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٣

(٣) الحديث في المستدرک للحاكم - ج ١ - كتاب الإيمان ص ٦٥

فمن وجدت في قلبه مثقال نصف حبة من شعير من الايمان فأدخله الجنة ، فأذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك فأدخله الجنة قال : فاتى الجبار فأسجد له فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : أمتى أمتى أى رب فيقول : إذهب فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأدخله الجنة فأذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك فأدخلهم الجنة وفرغ من الحساب حساب الناس ..

وتمام الحديث كما في مسند الإمام أحمد ج ٣ : وأدخل من بقى من أمتى النار من أهل النار فيقول أهل النار ما أغنى عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لا تشركون به شيئا فيقول الجبار عز وجل : فبعزق لأعتقهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون في نهر الحياة فينبثون فيه كما تنبث الحبة في غطاء السيل ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل^(١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع وأنا بيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وأول شخص يدخل على الجنة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومثلها في هذه الأمة مثل مريم في بنى اسرائيل^(٢)) .

الشفاعة لأهل الكبائر

روى البخارى بسنده عن أبي هريرة أنه قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ (لقد ظننت يا أبا هريرة الا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه^(٣)) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال : سألت رسول الله ﷺ : ماذا رد إليك ربك في الشفاعة فقال : (والذي نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألنى عن ذلك من أمتى لما رأيت من حرصك على العلم والذي نفس محمد بيده ما يهمنى من انقصافهم على أبواب الجنة أهم عندى من تمام شفاعتى وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه^(٤)) .

(١) الحديث في مسند أحمد - مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) الحديث بمعناه في سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٠

وفي الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٣٩ حديث بلفظ : « أول شخص يدخل الجنة فاطمة بنت محمد ، ومثلها في هذه الأمة مثل مريم في بنى اسرائيل »

(٣) الحديث في صحيح البخارى - كتاب العلم - ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ط الشعب

(٤) الحديث في مسند أحمد - مسند أبي هريرة ج ٢ ص ٣٠٧

هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي ليس فيها التصريح بالشفاعة لأهل الكبائر فمن قال لا إله إلا الله يشمل أهل الكبائر وغيرهم ممن لا يشرك بالله شيئاً .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن دارة مولى عثمان قال : (بين أنا بالبيع مع أبي هريرة إذ سمعناه يقول : أنا أعلم الناس بشفاعة محمد - ﷺ - قال : فتذاك الناس عليه فقالوا : إيه يرحمك الله ؟ قال : يقول : اللهم اغفر لكل عبد مسلم لقيك مؤمن بى لا يشرك بك) .
وروى البخارى عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : (لكل نبي دعوة مستجابة يدعوها وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى في الآخرة)^(١) .

وروى ابن ماجه بسنده عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - (خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين)^(٢)

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي موسى أن النبي - ﷺ - كان يحرسه أصحابه فقامت ذات ليلة فلم أره في منامه فأخذنى ما قدم وما حدث فذهبت أنظر فإذا أنا بمعاذ قد لقي مثل الذى لقيت فسمعنا صوتاً مثل هزيز الرجا فوقفا على مكانهما فجاء النبي - ﷺ - من قبل الصوت فقال : (هل تدرون أين كنت ؟ وفيما كنت ؟ أتانى آت من ربى - عز وجل - فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فقالا : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا في شفاعتك فقال أنتم ومن مات لا يشرك بالله شيئاً في شفاعتى)^(٣)

شفاعته ﷺ وعلى آله وسلم

لأناس قد أمر بهم إلى النار

روى الحافظ بن أبي الدنيا بسنده عن عبد الله بن الحارث أن النبي - ﷺ - قال : (أمر بقوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار قال : فيقولون : يا محمد ننشدك الشفاعة قال : فأمر الملائكة أن يقفوا بهم قال : فانطلقوا واستأذنوا على الرب - عز وجل - فيأذن لى فأسجدوا وأقول : يارب قوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار قال : فيقول لى : انطلق فأخرج منهم قال : فانطلقوا وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج ثم ينادى الباكون يا محمد ننشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لى فأسجد فيقال لى : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأثنى على الله بشيء لم يثن به عليه أحد ، وأقوم : ثم قوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار فيقول انطلق فأخرج منهم قال : فأقول يارب أخرج منهم من قال : لا إله إلا الله ومن كان في قلبه حبة من إيمان قال : فيقول : لى يا محمد ليست تلك لك . . . تلك لى قال فانطلق وأخرج من

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب الدعوات - ج ٨ ص ٨٢ ط الشعب

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - ج ٢ ص ١٤٤١ رقم ٤٣١١

(٣) الحديث فى مسند أحمد - حديث أبى موسى - ج ٤ ص ٤٠٤

شاء الله أن أخرج قال : ويبقى قوم فيدخلون النار فيعيرهم أهل النار فيقولون : انتم كنتم تعبدون الله ولا تشركون به ادخلكم النار قال : فيحزنون لذلك قال : فيبعث الله ملكا بكف من ماء فينضح بها في النار ويغبطهم أهل النار ثم يخرجون ويدخلون الجنة فيقال : انطلقوا فتضيفوا الناس . فلو أنهم جميعهم نزلوا برجل واحد كان لهم عنده سعة ويسمون المحررين) .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا يقتضى تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها ويكون معنى قوله (أخرج) أى انقذ بدليل قوله بعد ذلك (ويبقى قوم فيدخلون النار) والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . هـ

وروى الحافظ أبو نعيم في الحلية : حدثنا محمد بن المظفر بن موسى الحافظ حدثنا أبو حفص أحمد ابن محمد بن عمر بن حفص الأوصابي حدثنا ابن حمير حدثنا الثوري حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (ليوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال : (أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا)^(١) شفاعته ﷺ

لأناس يدخلون الجنة بغير حساب

روى الترمذى بسنده عن محمد بن زياد الألهاني قال : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول (وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربى)^(٢)

شفاعته ﷺ في رفع

درجات بعض من يدخل الجنة فوق

ماكان يقتضيه عمله

روى البخارى بسنده عن أبي موسى - رضى الله عنه - قال : لما فرغ النبى - ﷺ - من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أو طاس فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه قال أبو موسى : وبعثنى مع أبي عامر فرمى أبو عامر في ركبته فانتهيت إليه فقلت : يا عم من رماك فأشار إلى أبي موسى فقال ذاك قاتلى الذى رمانى فقصدت له فلحقته فلما رآنى ولى فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحى ألا تثبت فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك قال : فانزع ذا السهم فنزعته فتزا منه الماء قال : يا بن أخى أقرئ النبى - ﷺ - السلام وقل له : استغفر لى واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيرا ثم مات فرجعت فدخلت على النبى - ﷺ - فى بيته على

(١) الحديث فى حلبة الأولياء ج ٤ ص ١٠٨

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٥ رقم ٢٥٥٤

سرير مرمّل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال : قل له استغفر لي فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : (اللهم اغفر لعبيد أبي عامر ورأيت بياض إبطيه ثم قال : (اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس فقلت : ولي فاستغفر فقال : اللهم اغفر لعبد الله ابن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما)^(١)
قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى .

وروى الإمام مسلم - رحمه الله - بسنده عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله - ﷺ - على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال (إن الروح اذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال (لاتدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال : (اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه)^(٢)

في الشفاعة في خروج الموحدين من النار

قال البخاري - رحمه الله - بسنده عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟
قال (هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب ؟
قالوا : لا يا رسول الله
قال : (فهل تمارون في الشمس ليس دونه سحب ؟
قالوا : لا

قال : (فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول :

أنا ربكم فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه
فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهرائي جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأتمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل
وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟

قالوا نعم قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تحطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجوهم ويعرفوهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار .

(١) الحديث، في صحيح البخاري - باب غزاة أوطاس - ج ٥ ص ١٩٧ ظ الشعب

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧

فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا - أى احترقوا - فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار .

فيقول يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها
فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك ؟

فيقول : لا وعزتك

فيعطى الله مايشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار
فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ماشاء الله أن يسكت ثم قال :
يارب قدمنى عند باب الجنة

فيقول الله له : أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذى كنت تسأل ؟ فيقول : يارب
لاكون أشقى خلقك فيقول : فما عسيت أن أعطيت ذلك ألا تسأل غيره ؟
فيقول لا وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ماشاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة .

فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما بها من النظرة والسرور فيسكت ماشاء الله أن يسكت
فينزل : يارب أدخلنى الجنة
فيقول الله :

ويحك يا ابن آدم ما أعذرك أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذى أعطيت ؟
فيقول : يارب لا تجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله - عز وجل - منه
ثم يأذن له فى دخول الجنة
فيقول : تمن فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيته قال الله - عز وجل -
من كذا وكذا أقبل

يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله - تعالى - : لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد لأبي
هريرة - رضى الله عنهما - إن رسول الله - ﷺ -

قال : قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله
قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله - ﷺ - إلا قوله
لك ذلك ومثله معه

قال أبو سعيد إني سمعته يقول :

ذلك لك وعشرة أمثاله

قال ابن حبان - رحمه الله - كما فى موارد الظآن بسنده عن صالح بن أبي ظريف ، قال : قلت لأبي

سعيد الخدرى : أسمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول فى هذه الآية : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ ؟ فقال : نعم ، سمعته يقول : (يخرج الله أناسا من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقيته منهم ، قال : لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال المشركون : أليس كنتم تزعمون فى الدنيا أنكم أولياؤه ؟ فمالكم معنا فى النار ؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة فتشفع لهم الملائكة والنبون حتى يخرجوا بإذن الله ، فلما أخرجوا قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج من النار ، فذلك قول الله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) قال : فيسمون الجهنمين من أجل سواد فى وجوههم ، فيقولون : ربنا أذهب عنا هذا الاسم ، فيغتسلون فى نهر الجنة ، فيذهب ذلك منهم)^(١)

فى طلب الشفاعة من المخلوق فيما يقدر عليه

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : شكا الناس إلى رسول الله - ﷺ - قحوط المطر (احتباسه) فأمر بمنبر فوضع له بالمصلى ووعد الناس يوما يخرجون فيه ، فخرج حين بدا حاجب الشمس فقعده على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال (إنكم شكوتم جذب دياركم وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد : اللهم لا إله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، وأجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين) ثم رفع يديه فلم يزل (يدعو) حتى رثى بياض إبطيه ثم حول إلى الناس ظهره وقلب رداءه وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله تعالى سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى الكن (البيت) ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال « أشهد أن الله على كل شىء قدير . وأنى عبد الله ورسوله »^(٢) (رواه الحاكم وصححه وأبو داود وقال حديث غريب وإسناده جيد) .

وأخرج الامام أحمد رحمه الله بسنده عن أنس قال : سألت النبى - ﷺ - أن يشفع لى يوم القيامة ، قال : قال (أنا فاعل بهم) قلت : (يا رسول الله فأين اطلبك ؟ قال (اطلبنى أول ماتطلبنى على الصراط ، قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فأنا عند الميزان قال : قلت : فإن لم ألقك عند الميزان . قال : (فأنا عند الحوض ، لأخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة)^(٣) (أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب) .

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٩ ص ٢٦٢
(٢) الحديث فى المستدرک للحاكم ج ١ ص ٣٢٨ ، وفى سنن أبى داود - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٦٩٢ رقم ١١٧٣
(٣) الحديث فى مسند أحمد - مسند أنس بن مالك - ج ٣ ص ١٧٨

فى شفاعة المؤمنين

أخرج الترمذى بسنده عن أبى سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن من أمتى من يشفع للفثام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة)^(١) (وقال هذا حديث حسن) .

فى شفاعة الأولاد لأبائهم

قال الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول : يارب أنى لى هذه ؟ فيقال : باستغفار ولدك لك)^(٢) (الحديث رجاله رجال الصحيح)

وأخرج مسلم بسنده عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : أنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله - ﷺ - بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : قال : نعم (صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال : أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده - كما أخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى - أو قال : فلا ينتهى - حتى يدخله الله وأباه الجنة)^(٣)

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله وإياهم بفضل رحمته الجنة ، وقال : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، قال : فيقولون : حتى يجيء أبوانا ، قال ثلاث مرات ، فيقولون مثل ذلك ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم)^(٤)

وقال الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن قره عن أبيه قال : إن رجلا كان يأتى النبى - ﷺ - ومعه ابن له ، فقال له النبى - ﷺ - (أتجبه ؟) فقال : يارسول الله أحبك الله كما أحبه ، ففقدته النبى - ﷺ - فقال : (ما فعل ابن فلان ؟) قالوا : يارسول الله مات : فقال النبى - ﷺ - لأبيه : (أما تحب ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك) .

فقال الرجل يارسول الله أله خاصة ، أو لكلنا ؟ قال (بل لكلكم)^(٥)

فى أسباب الشفاعة

شفاعة القرآن :

قال الترمذى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى (تبارك الذى بيده الملك)^(٦) . هذا حديث حسن .

(١) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٦ رقم ٢٥٥٦

(٢) الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٥٠٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٩ رقم ١٥٤

(٤) الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٥١٠

(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث قره المزنى - ج ٥ ص ٣٥

(٦) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٨ رقم ٣٠٥٣

وأخرج ابن حبان بسنده عن جابر عن النبي - ﷺ - قال (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار)^(١) الحديث حسن .

وقال مسلم - رحمه الله - بسنده عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيبتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة)^(٢) .

من أسباب الشفاعة سكنى المدينة والموت بها

قال الامام مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً »^(٣)

وأخرج ابن حبان بسنده كما في موارد الظمان عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عنبه عن الصحبة امرأة من بني ليث سمعها تحدث صفية بنت أبي عبيد أنها سمعت رسول الله - ﷺ - يقول (من استطاع منكم ألا يموت إلا بالمدينة فليمت بها فإنه من يمت بها يشفع له أو يشهد له)^(٤) .

(الحديث على شرط مسلم)

وقال الترمذي بسنده عن ابن عمر قال : قال النبي - ﷺ - (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإني أشفع لمن يموت بها)^(٥) . (هذا حديث حسن صحيح)

الصلاة على النبي ﷺ

وطلب الوسيلة له .

قال مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي - ﷺ - يقول (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا

(١) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧
 (٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - ج ١ ص ٥٥٣ رقم ٢٥٢
 (٣) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الحج - ج ٢ ص ١٠٠٤ رقم ٤٨٢
 (٤) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ج ٦ ص ٢١
 (٥) الحديث في سنن الترمذي - باب جاء في فضل المدينة - ج ٥ ص ٣٧٧ رقم ٤٠٠٩

الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة (١) .

وأخرج البخاري بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة) (٢) .

شفاعة المصلين على الميت الموحد

أخرج مسلم بسنده عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي - ﷺ - (مامن ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له ، إلا شفعا فيه) (٣) .
وأخرج مسلم أيضا بسنده عن كريب مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان ، فقال : يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس ، قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : نعم ، قال أخرجوه ، فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفّعهم فيه) (٤) .

أعمال متنوعة من أسباب الشفاعة

أخرج الإمام أحمد بسنده عن زياد بن أبي زياد مولى بن مخزوم عن خادم النبي - صلى الله عليه - وعلى آله وسلم - رجل أو امرأة قال : كان النبي - ﷺ - مما يقول للخادم : (ألك حاجة) قال (حتى كان ذات يوم فقال : يا رسول الله حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة ، قال (ومن ذلك على هذا ؟ قال ربي ، قال : (أما لا فأعني بكثرة السجود) (٥) .

المسلم الذي لا تقبل شفاعته

أخرج مسلم بسنده عن أم الدرداء عن أبي الدرداء سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إن اللعائين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة) (٦) .

- (١) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٢٨٨ رقم ١١
- (٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب التفسير - سورة بني إسرائيل - ج ٦ ص ١٠٨
- (٣) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٤ رقم ٥٨
- (٤) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٥ رقم ٥٩
- (٥) الحديث في مسند أحمد - حديث خادم النبي - ﷺ - ج ٣ ص ٥٠٠
- (٦) الحديث في صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٠٦ رقم ٨٦

الشفاعات الدنيوية

الشفاعات الدنيوية منها ما هو مشروع ، ومنها ما ليس بمشروع قال الله سبحانه ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴾ (١) .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) : أى من يسعى فى أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾

أى يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ - أنه قال : (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء) (٢) .

وقد جاءت السنة المطهرة ببيان ما يحل من الشفاعة وما يحرم .

أخرج البخارى بسنده عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه - ﷺ - ما شاء) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له . مغيث ، كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال النبى - ﷺ - لعباس : يا عباس : (ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثا ؟ فقال النبى - ﷺ - (لو راجعته قالت : يا رسول الله تأمرنى ؟ قال : إنما أشفع (قالت لاحاجة لى فيه) (٣) .

مالاتحل الشفاعة فيه

قال البخارى - رحمه الله - حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة - رضى الله - عنها أن قریشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله - ﷺ - ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله - ﷺ - ، فكلمه أسامة فقال رسول الله - ﷺ - : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) (من كتاب الشفاعة لأبى عبد الرحمن مقبل بن هادى الوادعى) .

(١) الآية ٨٥ من سورة النساء

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ١٤٥

(٣) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب الطلاق - ج ٧ ص ٦٢ ط الشعب

لا يملك الرزق إلا الله

قوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو أياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين . قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم . قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ .
يقول تعالى مقررًا تفرد بالخلق والرزق وانفراده بالالهية أيضا فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أى بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ وفى سورة يونس ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض . . الآية ﴾ (١) .

قال الامام ابن القيم : فإن قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى فى سورة يونس ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض . . الآية ﴾ وبين قوله فى سورة سبأ ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله ﴾

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها ، وألطفها فرقا ، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع ، فإن الآيات التى فى سورة يونس سبقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم . ومدبر أمورهم وغيرها ، ومخرج الحى من الميت والميت من الحى . فلما كانوا مقرين بهذا كله حين الاحتجاج به عليهم : أن فاعل هذا هو الله الذى لا إله غيره ، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئا من هذا ، ولا يستطيعون فعل شيء منه ولهذا قال بعد أن ذكر من شأنه تعالى (فيقولون الله) أى لابد أنهم يقرون بذلك (ولا يجحدونه . فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به . والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التى يشاهدونها بالحق ، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء الى سماء حتى تنتهى اليهم ، ولم يصل علمهم الى هذا . فأفرد لفظ السماء هنا ، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها ، لاسيما والرزق ههنا هو المطر فمجيئه من السماء التى هى السحاب ، فإنه يسمى سماء لعلوه .

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب فى السماء بقوله ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ﴾ (٢) والسحاب إنما هو مبسوط فى حيز العلو ، لافى نفس الفلك وهذا معلوم بالحس ، فلا يلتفت إلى غيره .

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا أفراد السماء ، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح .
فلا بد من الوحى الذى به الحياة الحقيقية الأبدية . وهو أولى باسم الرزق من المطر الذى به الحياة الفانية المنقضية . فما ينزل من فوق ذلك من الوحى والرحمة والألطف والمواد الربانية ، والتنزلات

(١) الآية ٣١ من سورة يونس

(٢) الآية ٤٨ من سورة الروم

الآلية ، ومابه قوام العالم العلوى والسفلى من أعظم أنواع الرزق ، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به ، فخطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم ، بحيث لا يمكنهم انكاره أما الآية التى فى سبا : فلم تنتظم ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، ولم يذكر عنهم أنهم المجبيون المقرون فقال (قل : من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله) ولم يقل : سيقولون الله . فأمر تعالى نبيه - ﷺ - أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذى ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع . وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها فى واحدة من الاثنية . إذ يقربه كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر .

وقوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد - ﷺ - للمشركين والله مانحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد وقال عكرمة معناها : أنا نحن لعلى هدى وإنكم لفى ضلال مبين . والمعنى أ أحد الفريقين منا عشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ، ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجاحد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع - لعلى الهدى أو فى الضلال البين الذى لاشك فيه .

وهذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب فى محاورتها لارضاء العنان للمخاطب حتى اذا سمعه الموافق أو المخالف قال لمن خطب به لقد أنصفك صاحبك . ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله - ﷺ - قبل أن يسلم أتهجوه ولست له بكفاء . . فشركما لخيركما الفداء .

وفى ذكر هذا بعد ماتقدم من الحجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تمييز المهتدى من الضال والإيحاء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكتة بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأسند الأجرام إلى انفسهم والعمل للمخاطبين فقال : ﴿ قل لاتسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين . أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الأثام وارتكبنا من الذنوب ونحن لانسأل عما تعملون من عمل - خيرا كان أو شرا ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ (١) ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهناك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية .

كما قال سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الأخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ (١) .
ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيثا لهم فقال : ﴿ قل أروني الذين الحقتم به شركاء ﴾ أى قل لهم : ما الذى غواكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم ، وعظيم خطئهم بقوله :
﴿ كلا . بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى ليس الأمر كما وصفتم فلا نظير له تعالى ولاند ، بل هو الله الواحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياته الأولى والأخرة .

قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .
قال ابن ابى حاتم بسنده عن عكرمة ، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضل محمدا - ﷺ - على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال - رضى الله عنه - إن الله تعالى قال ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (٢) وقال للنبي - ﷺ - ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والانس . وهذا الذى قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة) (٣) .
وفى الصحيح أيضا أن رسول الله - ﷺ - قال : (بعثت إلى الأسود والأحمر) (٤) قال مجاهد يعنى الجن والانس وقال غيره يعنى العرب والعجم والكل صحيح . وقال محمد بن كعب فى قوله تعالى .
﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ يعنى إلى الناس عامة وقال قتادة فى هذه الآية أرسل الله تعالى محمدا - ﷺ - إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل . والآية الكريمة نص صريح فى عموم رسالته - ﷺ - ونحوها قوله تعالى ﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٥) وقوله جل شأنه ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٦) وقوله تبارك اسمه ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٧) وقوله جل شأنه ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

(١) الآيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ من سورة الروم

(٢) سورة ابراهيم آية : ٤

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ج ١ ص ١١٩ كتاب الصلاة باب قول النبي جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا .

الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٣ - ٥٢١ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ كتاب المساجد رقم ٣ - ٥٢١ أنظر مسند احمد ج ١ ص ٢٥٠ مسند ابن عباس .

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

(٦) سورة الفرقان آية ١٠٧ .

(٧) سورة الفرقان آية ١

ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴿١﴾ قوله تعالى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ كقوله جل شأنه . ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ ﴿٢﴾ وقوله ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ ﴿٣﴾ وقوله ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ ﴿٤﴾ وقوله ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ ﴿٥﴾ .

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فأت المبشر للطائعين بالجنة ، المندر للعصاة من عذاب النار .
صلت عليك ملائكة الرحمن وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزودا بحمى الإله وراية القرآن

صلى الله عليك يا علم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام .
قوله تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ هذا سؤال تهكم وإنكار واستعجال ونحوه قوله تعالى ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ ﴿٦﴾ وقوله جل شأنه ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ ﴿٧﴾ ولقد جاء الجواب حاسما وقاطعا بقوله تعالى ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ وذلك مثل قوله تعالى ﴿ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾ ﴿٨﴾ وقوله جل جلاله ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد﴾ ﴿٩﴾ فيأله من يوم ما أطوله ، وجبار ما أعد له ، وخطب ما أهوله . ﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا﴾ ﴿١٠﴾ وإذا كان تأخيره محالا عند مجيئه فكذلك تقديمه ، وإذا كان ذلك كذلك فإن المبعوثين لا يستقدمون ولا يستأخرون .
﴿..... ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾ ﴿١١﴾ ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ ﴿١٣﴾ .

(٨) سورة النبأ آية : ٣٩

(٩) سورة هود الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

(١٠) النبأ آية : ٤٠

(١١) سورة الكهف : جزء الآية ٩٩ .

(١٢) النبأ آية : ١٨

(١٣) الكهف آية : ٤٧ ، ٤٨

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة هود نهاية الآية ١٧ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٣

(٤) سورة الأنعام آية ١١٦ .

(٥) سورة الزخرف آية ٧٨ .

(٦) سورة الأعراف : الآيتان ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٧) سورة الشورى : آية ١٨ .

وقوله تعالى ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت الا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿١﴾ .

الظالمون في ساحة الحساب

قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنُحْنُ صَدَدٌ نَكُمُ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

معاني المفردات :

موقوفون : محبسون ومنوعون ، استضعفوا : هم المستضعفون (استكبروا) هم المستكبرون من الرؤساء والمقدمين ، مكر الليل والنهار : المكر : الاحتيال والخديعة والمراد مكرهم بالليل والنهار ، اندادا : جمع ند وهو النظير والشبيه والمثل . (واسروا الندامة) أى أظهورها ، الأغلال : جمع غل وهو طوق من حديد يوضع في العنق فلا يفلت صاحبه :

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه الأصول الثلاثة وهي التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا - ذكر شأن جماعة من المشركين جاهرُوا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين

الضالين ومضليهم من الكفار ، وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب ، ثم أعقبه بذكر ما سيحقيق بهم من الالهانة بوضع الأغلال في الأعناق ، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سوء الأعمال وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ هذا إصرار منهم على الكفر والعناد والجحود مهما جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر فقد كفروا بكل ما أنزل الله من كتب ، كفروا بالقرآن الكريم ، كما كفروا بما تقدمه من الكتب التي نزلت على الأنبياء ، فيأتي بعد ذلك تهديد ووعيد من الله ، وبيان لحال هؤلاء في ساحة الحساب ، وما يترد من حديث بين الضعفاء والمستكبرين . يصوره الكتاب العزيز تصويرا تنخلع له القلوب وتنفطر لهولة الأفئدة .

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ ، أى يتردد الحديث بينهم ، ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ فيلقون بالتبعة على المستكبرين أى لولا أنتم صددتمونا عن طريق الله وآياته ورسوله لكنا مؤمنين بما أنزل الله ولكننا من الناجين اليوم من عذاب الله ، فماذا يقول المستكبرون لهم ؟ ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمم مجرمين ﴾ وهذا منطق ابليس مع الغاوين .

قال تعالى : ﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (١) .

ومن ثم فقد رمى المستكبرون المستضعفين بالاجرام فقالوا لهم ﴿ بل كتمم مجرمين ﴾ فماذا قال لهم المستضعفون ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ﴾ أى أن مكرهم بنا بالليل والنهار وتديبركم لنا المكاييد وأمركم إيانا أن نكفر بالله ونشرك به أندادا ، هو الذى أضلنا عن سواء السبيل ولكن جاء القول الفصل عندما فصل الواحد القهار بينهم ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون - وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كتمت تكسبون ﴾ (٢) .

(١) سورة ابراهيم الآيتان : ٢١ - ٢٢

(٢) سورة الأعراف آية ٣٨ ، ٣٩ .

وقال تعالى ايضا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاجِ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ خَوْفِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى أيضا : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخِزْنَةُ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لها بها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب) (٣) .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن جهنم . لما سبق أهلها تلقاهم فيها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب) (٣) .

وروى أيضا بسنده عن الحسن بن يحيى الخشني قال ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة الا اسم صاحبها عليها مكتوب قال فحدثته ابا سليمان الداراني رحمة الله عليه فبكى ثم قال ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجله والغل في يديه والسلسلة في عنقه ثم أدخل النار وأدخل الحضار ؟ اللهم سلم) (٤) .

الرد على أهل الباطل :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣٥) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ أَزِيدُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٣٨) قُلْ إِنْ رَبِّي

(٢) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٥٠

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٠ - ٤١

(٣) الحديث في حلية الأولياء ج ٤ ص ٣٦٣ في ترجمة عبدالله بن أبي الهذيل ، وقال لم يرد مرفوعا مفصلا .

(٤) الحديث في حلية الأولياء ج ٨ ص ٣١٨ في ترجمة الحسين بن يحيى الحسني .

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

- معاني المفردات : (مترفوها) : أغنياؤها وقادتها ، (يبسط الرزق) : يوسعه .
(زلفى) : زلفى وزلفة كقربى وقربة فى الوزن والمعنى .
(جزاء الضعف) : أى الجزاء المضاعف : (معاجزين) : مغالين .
(يقدر له) : يقتدر ويضيق ، (يخلفه) : يجعل له خلفا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قول المشركين لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد أن طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ ^(١) سلاه على ما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه له وعدواتهم إياه بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فهو ليس بدعا من بينهم ، فما من نبي بعث فى قومه إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ ^(٢) ثم ذكر محجتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الايمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره ، كما يكون للبر يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ، ثم ذكر أن المتقين يتمتعون اذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف وأوعد المسكين بالإتلاف .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ يقول تعالى مسليا نبيه - ﷺ - وأمرأ له بالتأسى بمن قبله من الرسل ونخبه بأنه ما بعث نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال فى قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ ... أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ^(٣) ، وقال الكبراء من قوم صالح ﴿ للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون - قال الذين استكبروا إنا بالذى آمتم به كافرون ﴾ ^(٤) .

(١) سورة الكهف آية رقم ٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

(٣) سورة الشعراء آية ١١١ .

(٤) سورة الأعراف جزء من الآية ٧٥ ، ٧٦ .

وقال عز وجل : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ^(١) وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ وقال جل وعلا ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ ^(٢) وقال جل وعلا ههنا ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ أى نبي ورسول ، ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشر ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أى لا تؤمن به ولا نتبعه قال ابن أبي حاتم بسنده عن عاصم عن أبي رزين قال كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث النبي - ﷺ - كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب قال فأتى النبي - ﷺ - فقال : إلام تدعو؟ قال (« أدعو إلى كذا وكذا ») قال أشهد أنك رسول الله . قال - ﷺ - (وما حملك على ذلك قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فنزلت هذه الآية ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل إليه النبي - ﷺ - إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت ^(٣) وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل .

قوله تعالى ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن المترفين المكذبين أنهم قالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين أى افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناؤه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيئات لهم ذلك قال الله تعالى ﴿ أيعسبون أنما نغدhem به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ^(٤) وقال تبارك وتعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ ^(٥) وقال عز من قائل ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا - إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً ﴾ ^(٦) وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئاً بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿ قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة .

(١) سورة الانعام آية ٥٣ .

(٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٤٠ تفسير سورة سبأ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .

(٥) سورة التوبة آية ٥٥ .

(٦) سورة المدثر الآيات من ١١ : ١٧ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴾ اى ليست هذه دليلا على محبتنا لكم . قال الامام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال (إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (١) .

وقوله تعالى ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ اى إنما يقربكم عندنا زلفى الايمان والعمل الصالح ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ اى تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ اى فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن النعمان بن سعد عن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (ان فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها) فقال أعرابي لمن هى ؟ قال - ﷺ - (لمن طيب الكلام ، واطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام) (٢) قوله تعالى ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ﴾ اى يسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ اى جميعهم محزيون بأعمالهم فيها يحسبهم ، وقوله تعالى ﴿ قل إن ربى يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ اى بحسب ماله فى ذلك من الحكمة يسطر على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدا وله فى ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره . كما قال تعالى ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ (٣) اى كما هم متفاوتون فى الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غنى موسع عليه فكذاك هم فى الآخرة هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات وهذا فى الغمرات فى أسفل الدرجات ، وأطيب الناس فى الدنيا كما قال - ﷺ - (قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه) (٤) رواه مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . وقوله تعالى ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه ﴾ اى مهما أنفقتم من شئ فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم فى الدين بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت فى الحديث (يقول الله تعالى : (انفق انفق عليك) (٥) وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما (اللهم أعط ممسكا تلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منقفا خلفا) (٦) وقال رسول الله - ﷺ - (انفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا) (٧) وقال إن أبي حاتم بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٨٥ مسند أبي هريرة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٠٩ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .

(٣) سورة الاسراء الآية ٢١ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٧٣٠ كتاب الزكاة باب فى الكفاف والقناعة رقم ١٢٥ - ١٠٥٤ .

- وانظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٦ أبواب الزهد رقم ٢٤٥٢ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٤١ تفسير سورة سبأ .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب فى المنفق والممسك رقم ٥٧ - ١٠١٠ .

(٧) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .

الله - ﷻ - : (ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض بعض الموسر على ما في يده حذار الانفاق) ثم تلا هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ (١) وروى (شرار الناس يبايعون كل مضطر إلا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه) (٢) وقال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم .

بعض مواقف الكفار في الدنيا والآخرة

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٣) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٥) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٧) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا أَتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٨) * قُلْ إِنَّمَا أَعْظِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٩) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٠) قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ (١١) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (١٢) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (١٣) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبا (طبعة الشعب) .

(٢) انظر المرجع السابق .

وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾
 وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ؕ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

معاني المفردات

(يصدكم) : يمنعكم ، (إفك) : كذب ، (مفترى) : مختلق لا أساس له ، (يدرسونها) :
 يقرءونها ، (معشار) : المعشار والعشر سواء ، وقيل المعشار عشر العشر أى واحد فى المائة ، وقيل هو
 عشر العشير والعشير عشر العشر أى واحد فى الألف ، (نكير) : المراد فكيف كان عقابى وعذابى ،
 (مثنى وفرادى) : المراد وحدانا وجماعات ، (من جنة) : من جنون ، (يقذف بالحق) : المراد يبين
 الحجة ويرمى بها الباطل ، (فزعوا) : الفزع الخوف والاضطراب ، (فلا فوت) : أى فلا هروب ولا
 نجاة ، (التناوش التناول بسهولة ويسر ، (ويقذفون) : يرمون ، (بأشياءهم) : جمع شيع الذى هو
 جمع شعية وهى الجماعة المتشعبة لمذهب أو رجل .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن حال النبى ﷺ مع قومه ليس بدعا من الرسل ، فحاله معهم كحال
 الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، فكلهم كذبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله ، ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم
 بأن كثرة الأموال والأولاد لا صلة لها بمحبة الله ولا سخطه - أردف ذلك ما يكون من حالهم يوم القيامة
 من التقرير والتأنيب بسؤال الملائكة لمعبوداتهم أمامهم . هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم
 كانوا يعبدون الجن والشياطين بوسوستهم لهم ، ثم بين أنهم فى ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا
 يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم ، ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها
 تكذبون ، ثم أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب وهو صدهم عن دعوة الرسول ﷺ
 بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفترى وإنه سحر واضح لا شك فيه ، وقد كان فيما حل بالأمم قبلهم
 مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ
 عزيز مقتدر ، ثم أُنذِرهم سوء عاقبة ما هم فيه ، وأوصاهم أن يشمروا عن ساعد الجد طلبا للحق
 متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكرون ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم
 يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة ، وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم فى دعوته ، فهو لا
 يطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مشوته عند ربه المطلع على كل شئ ، ثم أبان لهم أن الحق
 قد وضح ، وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور

الحق ﴿ فَمَا الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾^(١) وبعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم اصرروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول ، وأنى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك في مكتهم في دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتىلا ولا قطميرا من جزاء ما كانوا فيه من شك مريب في الحياة الأولى ، وتلك سنة الله في أشباههم من قبل .

التفسير

قوله تعالى ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .
هذا مشهد من مشاهد القيامة يحشر الله فيه الذين عبدوا من دونه أولياء ثم يسأل الملائكة المكرمين أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون وهذا سؤال تقرير يراد به افحام المشركين كما في قوله تبارك وتعالى : لعيسى ابن مريم : ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسك ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ﴾^(٢) وكما برىء عيسى من هؤلاء كذلك تبرأ الملائكة منهم حيث يقولون لرب العزة ﴿ سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أى شياطين الجن كما في قوله تعالى ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾^(٣) وكما جاء في قوله تعالى ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ﴾^(٤) .
وكما قال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾^(٥) .

وهكذا أظهرت الملائكة براءتهم من عبادة هؤلاء وأقرت أنهم كانوا يعبدون الشياطين أكثرهم بهم مؤمنون لذلك يقول تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون لو كان

(١) سورة الرعد جزء من الآية ١٧ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) سورة الأعراف جزء من الآية ٣٠ .

(٤) سورة الفرقان الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٥) سورة الاسراء الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون^(١) ثم استثنى الله الملائكة والصالحين من عباده مثل المسيح والعزير فقال : ﴿ إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيها اشتتت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذين كنتم توعدون ﴾^(٢) ثم يأتي اليوم الفصل في حق هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيقول تعالى ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ لأنكم قد جئتم إلينا لا حول لكم ولا قوة فأنتم ومن استنصرتهم بهم لا تملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾^(٣) .

ثم يأمر بالظالمين إلى النار قال تعالى ﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾^(٤) .

قوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ لقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يحكم الله على هؤلاء بالعذاب جزاء ما قدمت أيديهم ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا الشاعرة مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾^(٥) وفي هذا المشهد إخبار من الله تعالى أن الكفار يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله - ﷺ - ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ قال تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أى ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد - ﷺ - ، وقد كانوا يودون ذلك ، ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أى من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ وقد يطلق المعشار ويراد العشر أى ما يساوى واحدا في المائة أو ما يساوى واحدا في الألف .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، أى من القوة في الدنيا وكذلك قال قتادة والسدى وابن زيد كما قال تعالى : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم

(٢) سورة الانبياء الآيات : ١٠١ - ١٠٣

(٣) سورة الانعام آية : ٩٤

(١) سورة الانبياء الآيات : ٩٨ - ١٠٠

(٤) سورة الطور الآيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الصافات الآيات : ٣٥ - ٣٩

سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿١﴾ أى وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال ﴿فكذبوا رسلى فكيف كان نكير﴾ أى فكيف كان عقابى ونكالى وانتصارى لرسلى .

قوله تعالى ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ .

قال مجاهد ومحمد بن كعب والسدى وقتادة وغيرهم فى معنى هذه الآية قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أى إنما آمركم بواحدة وهى ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أى تقوموا قياما خالصا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا هل بمحمد من جنون ، فينصح بعضكم بعضا ﴿ثم تتفكروا﴾ أى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد - ﷺ - ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ .

قوله تعالى ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ قال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، أنه قال : صعد النبى - ﷺ - الصفا ذات يوم فقال (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ فقال (أرايتم لو أخبرتكم إن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى) قالوا بلى ؟ قال - ﷺ - (فإنى نذيركم بين يدي عذاب شديد) فقال أبو لهب تبا لك ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله عز وجل ﴿تبت يدا أبى لهب وتب﴾ (٢) وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه - رضى الله عنه - قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : (أيها الناس تدرن ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال - ﷺ -) (إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتهم فبعثوا رجلا يترأى لهم فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم) (٣) ثلاث مرات وبهذا الاسناد قال : قال رسول الله - ﷺ - (بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى) (٤) تفرد به الامام أحمد فى مسنده .

قال الشيخ المراكشى فى تفسير هذه الآية : أى قل لهم : إني أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالكذب عنادا واستكبارا بل اتشدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه ، وجدوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين ، لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل ، وتكونون قد انصفتم الحقيقة وأمطتم الحجب التى غشت أبصاركم ورائت على قلوبكم فلم تجعل للحق منفذا . وإنما طلب اليهم التفكير وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا لأن فى الازدحام تهويز الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف وفيما يشاهد كل يوم من

(١) سورة الأحقاف آية ٢٦

(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٣٧ تفسير سورة (تبت يدا أبى لهب) باب ٢

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .

الاضطراب وتبليبل الأفكار في الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة ما يؤيد صدق هذا ، ثم أبان لهم ان نتيجة الفكر ستؤدى بهم الى ان يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم لا يتصدى لا دعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لا يبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، وإما نبي مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه ، وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى فوجب عليكم ان تصدقوه في دعوته ، وقد قرننا بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفي التعبير بصاحبكم ايماء الى أنه معروف لهم مشهور لديهم فهو قد نشأ بين ظهرائهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنبيل وكرم الخلال مما لم يتهيا لأحد من أترابه ولداته .

قوله تعالى ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد . قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب ﴾ هذا أمر من الله تعالى لرسوله أن يقول للقوم : يا قوم لا أسألكم عليه اجرا ان أجرى إلا على الله ولا أسألكم على تبليغ الرسالة والنصح والأمر بالتوحيد جعللا أو مكافأة ، إنما رسالة ربي فالأجر لكم ان اتبعتم أمري ، فلكم سعادة الدنيا والآخرة ، وأنا لا أبتغى إلا ثواب الله وقد كان ذلك على لسان الأنبياء السابقين قال تعالى على لسان نوح ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ (١) وقال على لسان هود ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه اجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون ﴾ (٢) وقال على لسان صالح ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (٣) كذلك قال على لسان لوط وشعيب في سورة الشعراء وفى سورة سبا يقول لرسوله ومصطفاه ﴿ إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ أى هو العالم بما تكنه الصدور الرقيب الذى لا يغيب . ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ والقذف هو الرمى بشدة أى يقذف الباطل بالحق فإذا هو زاهق قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (٤) وقال ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (٥) فهو علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ولا بد لهذا الدين ان ينتصر له دعوة الحق ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أى لا يستطيع الباطل ان يبدىء شيئا أو يعيده إذ لا حياة فيه ، فقد اضمحل وزال وذهب ادراج الرياح .

الله اكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

(١) سورة هود آية ٢٩ .

(٢) سورة هود آية ٥١ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٤٥ .

(٤) سورة الأنبياء آية ١٨ .

(٥) سورة الاسراء آية ٨١ .

إن اهل الباطل لو اجتمعوا ليشيروا التراب على السماء فسوف يشيرونه على انفسهم وتبقى السماء
هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

فكم زالت رياض من رباها وكم بادت نخيل فى الروابي
ولكن نخلة الاسلام تنمو على مر العواصف والعوادي
ومجدك فى حمى الاسلام باق بقاء الشمس والسبع الشداد

قوله تعالى ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي ﴾ أى الخير كله
من عند الله وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ومن ضل فإنما
يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - لما سئل عن تلك المسألة فى المفوضة
أقول فيها برأى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه .
وقوله تعالى ﴿ إنه سميع قريب ﴾ أى سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه .
وقد روى النسائى ههنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين « انكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما
تدعون سميعا قريبا مجيبا » (١) .

قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأنى لهم
التناوش من مكان بعيد . وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما
يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ ولو ترى يا محمد إذ فرعوا من شدة
أهوال يوم القيامة ، وما سيلقونه من شدائد تجعل الولدان شيبا فلا فوت لهم ولا مهرب ولا ملجأ
﴿ يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ (٢) . وأخذوا من مكان
قريب ﴿ قبل أن يمعنوا فى الهروب الذى ظنوا أنهم يستطيعونه . ولأئمة التفسير فى هذا النص أقوال :
قال الحسن البصرى حين خرجوا من قبورهم وقال مجاهد وعطية العوفى وقتادة من تحت أقدامهم وعن
ابن عباس - رضى الله عنهما - والضحاك يعنى عذابهم فى الدنيا وقال عبدالرحمن بن زيد يعنى قتلهم يوم
بدر والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة الكبرى وإن كان ما ذكر متصل بذلك .
قوله تعالى ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أى إذا كان يوم القيامة قال الكافرون آمنا بالله ربا وبالاسلام ديننا
وبمحمد نبيا ورسولا كما فى قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا
وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٣) . ولهذا قال تعالى ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾
أى وكيف لهم تعاظم الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة وهى دار الجزاء لا
دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر - رقم ٤٤ - ٢٧٠٤ .

(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة السجدة آية ١٢ .

إلى قبول الايمان كما لا سبيل الى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد قال مجاهد ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ قال التناول لذلك . وقال الزهرى : التناوش تناولهم الايمان وهم فى الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى أما أنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال وتعاطوا الايمان من مكان بعيد وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وقوله تعالى ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أى كيف يتأتى لهم ذلك وكيف يخادعون أنفسهم بما قالوا وهم الذين كفروا فى الدنيا بكل ما آمنوا به فى الآخرة بعدما بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . قوله تعالى ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ قال بالظن ، فتارة يقولون عن الرسول - ﷺ - انه شاعر ، وتارة يقولون انه ساحر ، وأخرى يقولون أنه كاهن ، إلى غير ذلك من الأباطيل التى قالوها رجما بالغيب ويحسبون انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾ (١) لقد كذبوا بالبعث والنشور والمعاد ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ (٢) قال قتادة ومجاهد يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار وقوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ لأئمة التفسير فى النص أقوال .

قال الحسن البصرى والضحاك وغيرهما يعنى الايمان وقال السدى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ وهى التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقال مجاهد ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن انس - رضى الله عنهم - وهو قول البخارى وجماعة والصحيح انه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة فمنعوا منه .

قوله تعالى ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أى كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم بأس الله تمنوا ان لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ (٣) وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ أى كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة إياكم والشك والريبة فان من مات على شك بعث عليه ومن مات على يقين بعث عليه .

(١) سورة المجادلة الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الجاثية جزء من آخر الآية ٣٢

(٣) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

سورة فاطر

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية اجماعا ، عدد آياتها خمس وأربعون عند الأكثرين ، وعند الشاميين ست وأربعون ، وكلماتها سبعمائة وسبعون ، وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وثلاث وثلاثون .

معظم مقصود السورة :

بيان تخليق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتركيز النعمة ، والتحذير من الجن وعداوتهم ، وتسلية الرسول ، وإنشاء السحاب وإثارته وحوالة العزة إلى الله ، وصعود كلمة الشهادة ، وتحويل الانسان من حال إلى حال ، وذكر عجائب البحر ، واستخراج الحلية منه ، وتخليق الليل والنهار ، وعجز الاصنام عن الربوبية ، وصفة الخلائق بالفقر والفاقة ، واحتياج الخلق في القيامة ، وإقامة البرهان والحجة ، وفضل القرآن ، وشرف التلاوة ، وأصناف الخلق في ميراث القرآن ، ودخول الجنة من أهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، وأن عاقبة الكفر الخسران ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض عن تخلخل الأركان ، وأن العقوبة عاقبة المكر ، والإخبار بأنه لو عدل ربنا في الخلق لم يسلم من عذابه أحد من الأنس والجان .

المتشابهات :

قوله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح ﴾^(١) بلفظ الماضى ، موافقة لأول السورة ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل ﴾ لأنها للماضى لا غير وقد سبق قوله ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾^(٢) بتقديم (فيه) موافقة لتقدم ﴿ ومن كل تأكلون ﴾^(٣) وقد سبق قوله : ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب ﴾^(٣) بزيادة الباءات قد سبق .

قوله : ﴿ مختلفا ألوانها ﴾ ويَعْدُهُ ﴿ ألوانها ﴾ ثم (ألوانه) لأن الأول يعود إلى ثمرات والثانى يعود إلى الجبال وقيل حمر والثالث يعود إلى بعض الدال عليه (من) لأنه ذكر (من) ولم يفسره كما فسرهُ في قوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ فاختص الثالث بالتذكير .

قوله ﴿ إن الله بعباده خبير بصير ﴾ بالتصريح وبزيادة اللام وفى الشورى ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ لأن الآية المتقدمة فى هذه السورة لم يكن فيها ذكر الله مصرح باسمه سبحانه وتعالى وفى الشورى متصل بقوله ﴿ ولو بسط الله ﴾ فخص بالكناية ودخل اللام فى الخبر موافقة لقوله ﴿ إن ربنا

(١) سورة فاطر آية ٩ .

(٢) سورة فاطر من آية ١٢ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٥ .

لغفور شكور ﴿ وقوله ﴿ جعلكم خلائف في الأرض ﴾ على الأصل قد سبق ﴿ أو لم يسيروا في ﴾ سبق ﴿ على ظهرها ﴾ سبق .

قوله : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ ^(١) كرر ، وقال في الفتح : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ وقال في سبحان ﴿ ولا تجد لستنا تحويلا ﴾ التبديل تغيير الشيء عما كان عليه قبل مع بقاء مادة الأصل ، كقوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴾ ^(٢) وكذلك ﴿ تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ ^(٣) .

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر ، وسنة الله لا تبدل ولا تحول فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لما وصف الكفار بوصفين وذكر لهم عرضين وهو قوله ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾ ^(٤) وقوله : ﴿ استكبارا في الأرض ومكر السيء ﴾ .

وقيل : هما بدلان من قوله : ﴿ نفورا ﴾ فكما ثنى الأول والثاني ثنى الثالث ليكون الكلام كله على غرار واحد وقال في الفتح ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فاقصر على مرة واحدة لما لم يكن (التكرار موجبا) .

وخص سورة سبحان بقوله : ﴿ تحويلا ﴾ لأن قريشا قالوا لرسول الله - ﷺ - : (لو كنت نبيا لذهبت إلى الشام فانها أرض المبعث والمحشر فهم النبي - ﷺ - بالذهاب إليها فهيا اسباب الرحيل والتحويل فنزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآيات ، وهي : ﴿ وإن كادوا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ ^(٥) وختم الآيات بقوله ﴿ تحويلا ﴾ تطبيقا للمعنى .
مناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه في آخر سابقتها هلاك المشركين وانزالهم منازل العذاب لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء في قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ ^(٦) .

قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٧) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٦ .

(٣) سورة ابراهيم من الآية ٤٨ .

(٤) سورة فاطر من الآية ٣٩ .

(٥) سورة الاسراء آية ٧٦ .

(٦) سورة الأنعام آية ٤٥ .

الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣﴾ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٤﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ آتَاهُ اللَّهُ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٧﴾

معاني المفردات

(فاطر) : أصل الفطر الشق ، وقد شق العدم بإخراج السماء والأرض منه والمراد خلقها ابتداء ، (أولى أجنحة) : أصحاب أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع) : والمراد اثنين اثنين فعدل عن هذا التركيب إلى قوله مثنى ، وكذا ثلاث ورباع ، وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية . (ما يفتح) : المراد ما يرسل من رحمة ، (تؤفكون) : هذا اللفظ إن أخذ . الإفك بمعنى الصرف كان معناه : كيف تصرفون عن الإيمان إلى الكفر ، وإن قلنا مأخوذ من الإفك بمعنى الكذب كان المعنى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله ، (تغرّنكم) : تلهينكم ، (الغرور) : الشيطان ، (حزبه) : أصحابه المتحزبين له المجتمعين حوله ، (سوء عمله) : المراد عمله السيئ ، (حسنا) : صوابا ، (فلا تذهب نفسك) : فلا تتعاط أسباب ذهاب النفس أى هلاكها ، (حسرات) : جمع حسرة وهى هم النفس على فوات أمر بمعنى التلهف الشديد على الشيء الغائب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ .
لأئمة التفسير في قوله تعالى فاطر السموات والأرض أقوال : قال سفيان بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرته أى بدأتها وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - أيضا : ﴿ فاطر السموات

والأرض ﴿ اى بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك كل شيء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض .

وقد حمد الله ذاته فهو خالق السموات والأرض ومبدعها على غير نظام سابق ، كما حمد ذاته لانه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، كما حمد ذاته فى أول سورة الانعام لانه الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، كما حمد ذاته فى أول سورة الكهف على نعمة إنزال الكتاب الذى لم يجعل له عوجا ، كما حمد ذاته لانه مالك السموات والأرض فى سورة سبأ ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

وهنا يحمد ذاته لانه فاطر السموات والأرض ، وجاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ﴿ إن الله على شيء قدير ﴾ .

والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض فاللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبىون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك خاصمت وبك حاكمت وعليك توكلت وإليك أنبت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

ولك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، أحمداً على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعد قدرتك ، فيا الله عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك ، وعاملنا بإحسانك لا بميزانك واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وبالإجابة جدير قوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ . ﴿ جاعل الملائكة رسلا ﴾ أى بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أولى أجنحة ﴾ أى يطفرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعا ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أى منهم من له أكثر من ذلك . كما جاء فى الحديث أن رسول الله - ﷺ - (رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب)^(١) ولهذا قال جل وعلا ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، وقال الزهرى وابن جريج فى قوله تعالى ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ يعنى حسن الصوت .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
الحديث فى مسند احمد ج ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود .

بحث في الملائكة

الصفات الخلقية وما يتعلق بها

في مادة الخلق

قال رسول الله - ﷺ - في الحديث الذي ترويه السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضى الله عنها - . (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم)^(١) رواه مسلم .

فبين - ﷺ - أن المادة التي خلقوا منها هي النور .

متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أب البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾^(٢) والمراد بالخليفة آدم - عليه السلام - وأمرهم بالسجود له حين خلقه . ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾^(٣) .

عظيم خلقهم

قال الله تعالى في ملائكة النار : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(٤) .

عظم خلق جبريل (أمين الوحي)

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان من الدرواليواقيت)^(٥) قال ابن كثير في هذا الحديث : إسناده جيد . وقال سبحانه في وصف أمين الوحي جبريل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾^(٦) والمراد بالرسول الكريم هنا جبريل ، وذو العرش : رب العزة سبحانه وتعالى .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب في أحاديث متفرقة رقم ٦٠ - ٢٩٩٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) سورة التحريم آية ٦ .

(٥) الحديث في مسند أحمد ج ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود . انظر صحيح البخاري ج ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) سورة التكوين الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

عظم خلق حملة العرش

روى أبو داود عن جابر عن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام)^(١) .
ورواه ابن أبي حاتم وقال (تحقق الطبر) قال محقق المصابيح إسناده صحيح . وذكره الألباني في سلسلة الاحاديث الصحيحة .

للملائكة أجنحة :

كما أخبرنا سبحانه ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك قال تعالى ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ وقد سبق ذكر الحديث التي يخبر فيها الرسول - ﷺ - أن لجبريل ستمائة جناح .
جمالهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى في جبريل : ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى ﴾^(٢) قال ابن عباس ذو مرة : ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن ، وقيل ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر .
وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك قال تعالى في قصة يوسف ﴿ فلما رأيته أكبره وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾^(٣) .

تفاوتهم في الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة في الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان وبعضهم له ثلاثة وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة . ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾^(٤) سورة الصافات .

وقال في جبريل ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾^(٥) أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله . وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ففى صحيح البخارى عن رفاعه بن رافع : أن جبريل جاء النبي - ﷺ - فقال (ما تعدون من شهد بدرًا فيكم ؟ قلت . خيارنا ، قال . وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة)^(٦) .

(١) الحديث في سنن أبي داود ج ٥ ص ٩٦ كتاب السنة رقم ٤٧٢٧ .

(٢) سورة النجم الأيتان ٥ ، ٦ .

(٣) سورة يوسف آية ٣١ .

(٤) سورة الصافات آية ١٦٤ .

(٥) سورة التكويد الأيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٦) الحديث في مسند احمد ج ٣ ص ٤٦٥ مسند رافع بين خديج . انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ١٠٣ باب قصة غزوة بدر باب شهود الملائكة بدرًا .

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

ولقد ضل في هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث ، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم واكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله . قال تعالى وهو يحكى هذه الخرافة ويناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ﴾ ^(١) سورة الصافات وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ ^(٢) سورة الزخرف .

لا يأكلون ولا يشربون

فقد أخبر سبحانه أن الملائكة جاءوا إبراهيم في صورة بشر فقدم لهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه فأوجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم فزال خوفه واستغرابه . قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تحف وبشروه بغلام عليم ﴾ ^(٣) سورة الذاريات . وفي آية أخرى قال سبحانه ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تحف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ ^(٤) سورة هود .

لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى في وصف ملائكته : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ^(٥) سورة الانبياء .

ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفي الآية الأخرى : ﴿ ... فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ ^(٦) تقول العرب : سئم الشيء : أى مله .

(١) سورة الصافات الآيات من ١٤٩ - ١٥٦ .

(٢) سورة الزخرف آية ١٩ .

(٣) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ - ٢٨ .

(٤) سورة هود الآية رقم ٧٠ .

(٥) سورة الانبياء الآية رقم ٢٠ .

(٦) سورة فصلت آية : ٣٨ .

منازلهم :

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾^(١) .

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيّطت بهم ، ووكلت إليهم ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾^(٢) ويكثر نزولهم في مناسبات خاصة كليلة القدر ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾^(٣) .

عددهم :

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم الا الذى خلقهم ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾^(٤) سورة المدثر .

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله - ﷺ - في البيت المعمور الذى في السماء السابعة : (فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)^(٥) رواه البخارى ومسلم .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك)^(٦) فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك .

وإذا تأملت النصوص الواردة في الملائكة التى تقوم على الإنسان علمت مدى كثرتهم - فهناك ملك موكل بالنظفة ، وملك لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكى لهدايته وإرشاده .

اسماؤهم :

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل واليك الآيات والأحاديث النبوية التى ورد فيها أسماء بعض الملائكة .

(١) سورة الشورى آية ٥ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة القدر آية رقم ٣ ، ٤ .

(٤) سورة المدثر جزء من الآية ٣١ .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٩ كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله رقم ٢٦٤ - ١٦٤ .

- انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٤ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب في شدة حر جهنم رقم ٢٩ - ٢٨٤٢ .

١ ، ٢ جبريل وميكائيل : قال تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (١) .

٣ - اسرافيل
ومن الملائكة اسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل وميكائيل واسرافيل هم الذين يذكروهم الرسول - ﷺ - في دعائه كلما استيقظ من الليل (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) (٢) .

٤ - مالك
ومنهم مالك خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ (٣) .
٥ - رضوان :

قال ابن كثير : (وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحا به في بعض الأحاديث) .
٦ ، ٧ - منكر ونكير

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول - ﷺ - منكر ونكير ، وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر .

٨ ، ٩ هاروت وماروت :

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماروت) قال تعالى ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ (٤) .

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثها فتنه للناس في فترة من الفترات ، وقد نسجت حولها في كتب التفسير أساطير كثيرة لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة ، فيكتفى في معرفة أمرهما . بما دلت عليه الآية .

عزرائيل

جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ولا يوجد في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم (قاله ابن كثير في البداية والنهاية) .
رقيب وعetid :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعetid استدلالا بقوله تعالى ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٥) وما ذكره غير

(١) سورة البقرة الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه . رقم ٧٧٠ - ٢٠٠ .

(٣) سورة الزخرف آية ٧٧ .

(٤) سورة البقرة من الآية ١٠٢ .

(٥) سورة ق الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنها اسمان للملكين .
هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ^(١) قال ابن كثير هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا فى حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت . وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخر بالديمومة والبقاء ، ويقول سبحانه لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ ^(٢) .

ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾ ^(٣) وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا مالا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخلقية

الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ بأيدى سفرة . كرام بررة ﴾ ^(٤) أى القرآن بأيدى سفرة : أى الملائكة لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم) . وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله - تعالى - وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم ، وقد وصفهم بأنهم ﴿ كرام بررة ﴾ أى خلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .
روى الامام أحمد بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأه . هو عليه شاق له أجران) ^(٥) .
استحياء الملائكة

من أخلاق الملائكة التى أخبرنا الرسول - ﷺ - بها : الحياء فى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة أن الرسول - ﷺ - كان مضجعا فى بيتها كاشفا عن فخذه أو ساقه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث . ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، فتحدث

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .

(٢) سورة غافر من الآية ١٦ .

(٣) سورة القصص من الآية ٨٨ .

(٤) سورة عبس آية ١٥ ، ١٦ .

(٥) الحديث فى مسند احمد ج ٦ ص ٤٨ مسند عائشة (رضى الله عنها) .

ثم استأذن عثمان فجلس الرسول - ﷺ - وسوى عليه ثيابه ، فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل ابوبكر فلم تهتش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك - فقال : (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)^(١) . قدراتهم

قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم فقد أرسل الله جبريل إلى مريم في صورة بشر واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا^(٢) .

وابراهيم - عليه السلام - جاءت الملائكة في صورة بشر ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن

حقيقة أمرهم .

وجاءوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه ، يقول ابن كثير : تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وقد كان جبريل يأتي الرسول - ﷺ - في صفات متعددة ، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي ، (صحابي كان جميل الصورة) وتارة في صورة أعرابي . وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتي كذلك ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ، وفي الحديث أنه سأل عن الايمان والاحسان والساعة وأماراتها . وقد أخبر الرسول ﷺ فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم^(٣) .

ورأت عائشة الرسول - ﷺ - واضعا يده على معرفة فرس دحية الكلبي يكلمه فلما سألت عن ذلك قال - ﷺ - (ذاك جبريل وهو يقرئك السلام)^(٤) أخرجه أحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات بإسناد حسن .

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا ، (أنه لما هاجر تائبا جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكموا فيه ملكا جاءهم في صورة آدمي يقول عليه الصلاة والسلام (فجاءهم ملك في

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٦٦ كتاب فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه رقم ٣٦ - ٢٠٤١ .

(٢) سورة مريم الآيات ١٦ - ١٩ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام رقم ١ - ٨ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رضي الله عنها رقم ٩٠ - ٢٤٤٧ .
- انظر مسند احمد ج ٦ ص ١٢٦ مسند عائشة (رضي الله عنها) .

صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له (١) ولا بد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك في صورة آدمى والقصة في صحيح مسلم باب التوبة .
عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٩) ألف ميل في الثانية الواحدة . أما سرعة الملائكة فهي فوق ذلك ، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر ، كان السائل يأتي إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة - سبحانه وتعالى - واليوم لو وجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

علمهم

والملائكة عندهم علم وفيهم علمهم الله إياه ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبثوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (٢) فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشاف سنن الكون والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى ولكن الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ (٣) .
اختصاص الملائكة بالأعلى :

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ففي سنن الترمذي ومسنند أحمد عن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : (أتاني الليلة ربي - تبارك وتعالى - في أحسن صورة فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات وما في الأرض فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : نعم في الكفارات والدرجات)
والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات واسباغ الوضوء في المكاره .

قال : صدقت يا محمد ! ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإن تغفر لي وترحمني وتتوب علي وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثرت قتلته . رقم ٤٦ - ٢٧٦٦ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٣) سورة الانفطار آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

والدرجات : إفشاء السلام واطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام^(١) .
قال ابن كثير في هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ومن جعله يقظة فقد غلط وهو في السنن من طرق وهذا الحديث رواه الترمذى من حديث جهضم بن عبد الله اليمامى وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن في قوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى الى إلا أنا أنا نذير مبين ﴾^(٢) .
فإن الاختصاص المذكور في الحديث قد فسرهُ الرسول - ﷺ - والاختصاص المذكور في القرآن فسرته الآيات بعده ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . . ﴾^(٣) الآيات .

فالاختصاص المذكور في القرآن كان في شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه .

منظمون في كل شئونهم :

الملائكة منظمون في عبادتهم وقد حثنا الرسول - ﷺ - على الاقتداء بهم في ذلك فقال : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) ؟ قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال : (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون في الصف)^(٤) وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة .
وفي يوم القيامة يأتون صفوفًا منتظمة ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ ويقفون صفوفًا بين يدي الله تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾^(٥) والروح جبريل .

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر في صحيح مسلم ومسند أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال : (أتى باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)^(٦) .

(١) الحديث في مسند أحمد ج ١ ص ٣٦٨ مسند ابن عباس .

(٢) سورة ص الآيتان ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) سورة ص الآيتان ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٤) الحديث في مسند أحمد ج ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .

(٥) سورة النبأ آية ٣٨ .

(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٨ كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . رقم ٣٣٣ - ١٩٧ .
- انظر مسند أحمد ج ٣ ص ١٣٦ مسند أنس بن مالك .

عبادة الملائكة

نظرة في طبيعة الملائكة :

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ليس لديهم القدرة على العصيان ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(١) فتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة جبلة لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم . ولعل هذا هو السبب الذي دعا فريقا من العلماء الى القول بأن الملائكة ليسوا بمكلفين وأنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسوا بمكلفين بنفس التكاليف التي كلف بها أبناء آدم أما القول بعدم تكليفهم مطلقا فهو قول مردود فهم مأمورون بالعبادة والطاعة . ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(٢) وفي الآية إنهم يخافون ربهم والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾^(٣) .

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله ، ولكنهم عباد مكرمون قال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾^(٤) .

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون وعلى احتمال ان بعضهم تعدى طوره فإن الله يعذبه جزاء تمرده ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين ولا يعترضون على أمر من أوامره بل هم عاملون بأمره مسارعون مجييون ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - لجبريل (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟) قال : فنزلت : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾^(٥) .

(١) سورة التحريم آخر الآية ٦ .

(٢) سورة النحل آية ٥٠ .

(٣) سورة الأنبياء آخر آية ٢٨ .

(٤) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) انظر سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٧٧ رقم ٥١٦٧ . انظر مسند احمد ج ١ ص ٢٣٤ مسند ابن عباس .

نماذج من عبادتهم :

الملائكة عباد الله مكلفون بطاعته وهم يقومون بالعبادة والتكاليف يسر وسهولة وسنورد هنا بعض العبادات التى حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .
التسبيح :

الملائكة يذكرون الله تعالى وأعظم ذكرهم التسبيح يسبحه تعالى حملة عرشه ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ (١) . كما يسبحه عموم الملائكة : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ (٢) وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا فى الليل ولا فى النهار ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٣) وكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون فى الحقيقة . وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ (٤) وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر . عن أبى ذر قال : سئل رسول الله - ﷺ - : أى الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده) (٥) .

صلاتهم :

عن رسول الله - ﷺ - قال (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف) (٦) وفى القرآن عن الملائكة ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ (٧) وهم يقومون ويركعون ويسجدون فى مشكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال : (بينما رسول الله - ﷺ - فى أصحابه إذ قال لهم : أسمعون ما أسمع قالوا : ما نسمع من شئ قال : إني لأسمع أطيظ السماء وما تلام ان تتط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم) (٨) .

حجهم :

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون إليها هذه الكعبة هى التى أسماها الله تعالى : البيت المعمور وأقسم به فى سورة الطور ﴿ والبيت المعمور ﴾ (٩) .
قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ فى حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون الفا لا

(١) سورة غافر آية ٧ .

(٢) سورة الشورى جزء من الآية ٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٠ .

(٤) سورة الصافات الايتان ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله . رقم ٨٤ - ٢٧٣١ .

(٦) الحديث فى مسند احمد ج ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .

(٧) سورة الصافات آية ١٦٥ .

(٨) الحديث فى سنن ابن ماجه - ٢ ص ١٤٠٢ كتاب الزهد رقم ٤١٩٠ .

(٩) سورة الطور آية ٤ .

يعودون إليه آخر ما عليهم) ^(١) يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ولهذا وجد ابراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسندا ظهره الى البيت المعمور لأنه باني الكعبة الأرضية والجزء من جنس العمل) وذكر ابن كثير ان البيت المعمور بحيال الكعبة أى فوقها لواقع لواقع عليها وذكر أن فى كل سماء بيتا يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة وهذا الذى ذكره ابن كثير من ان البيت المعمور بحيال الكعبة مروي عن على بن أبى طالب أخرج بن جرير من طريق خالد بن عرعة أن رجلا قال، لعلى رضى الله عنه ما البيت المعمور؟ قال (بيت فى السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة من فوقها حرمة فى السماء كحرمة البيت فى الأرض يصلى فيه كل يوم سبعون الفا من الملائكة ولا يعودون فيه أبدا) ^(٢) .

قال فيه الشيخ ناصر الدين الألبانى (الأحاديث الصحيحة) ورجاله ثقات غير خالد بن عرعة وهو مستور ثم ذكر أن له شاهدا مرسلأ صحيحا عن الرسول - ﷺ - عن رواية قتادة قال : ذكر لنا أن النبى - ﷺ - قال يوما لأصحابه (هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : فإنه مسجد فى السماء تحته الكعبة لوخر لخر عليهم) ^(٣) .

ثم قال المحقق (الألبانى) وجلة القول ان هذه الزيادة (حيال الكعبة) ثابتة بمجموع طرقها .

خوفهم من الله وخشيتهم له :

ولما كانت معرفة الملائكة برهبهم كبيرة كان تعظيمهم له وخشيتهم له عظيمة قال الله فيهم : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ ^(٤) .

يبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة وقال رعدة شديدة خوفا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل - عليه السلام - فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد) ^(٥) وفى معجم الطبرانى الاوسط بإسناد حسن عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (مررت ليلة أُسرى بى بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالى من خشية الله تعالى) ^(٦) والجلس : كساء ييسط فى أرض البيت) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الايمان باب الاسراء والمعراج رقم ٢٥٩ - ١٦٢ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٩ ، ١٠ تفسير سورة الطور .

(٣) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ١٠ تفسير سورة الطور قوله تعالى ﴿ والبيت المعمور ﴾ .

(٤) سورة الانبياء آخر آية ٢٨ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير - سورة سبأ ج ٣ ص ٥٣٧ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥ تفسير سورة الاسراء .

الملائكة والإنسان

الملائكة وآدم

سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمبراهه فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد وسفك دماء وعصيان وكفر فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكماً لا يعلمونها ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١).

سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم حين يتم خلقه وتنفخ فيه الروح ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٢) وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ (٣).

توجيه الملائكة لآدم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحتك وتحية ذريتك فذهب فقال السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله) قال (فزادوه ورحمة الله) (٤) متفق عليه .

غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفي آدم لم يعرف أولاده كيف يفعلون به فأعلمتهم الملائكة .
ففي مستدرك الحاكم ومعجم الطبراني الأوسط بإسناد صحيح عن أبي - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - (لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترا وأحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده) (٥)
وقد ثبت في صحيح الأحاديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبي عامر الذي استشهد في معركة أحد فقد قال الرسول - ﷺ - لأصحابه بعد مقتل حنظلة (إن صاحبكم تغسله الملائكة ، يعني حنظلة) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائلة وهو جنب فقال رسول الله - ﷺ - (لذلك غسلته الملائكة) (٦) رواه الحاكم .

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) سورة ص الآيتان ٧٠ ، ٧١ .

(٣) سورة ص آية ٧٢ .

(٤) الحديث في صحيح مسام ج ٤ ص ٢١٨٣ - ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفتها باب يدخل الجنة اقوام رقم ٢٨ - ٢٨٤١ .

(٥) الحديث في كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ص ٥٤٥ كتاب التاريخ باب ذكر آدم عليه السلام .

(٦) الحديث في كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٠٤ باب ذكر مناقب حنظلة ابن عبد الله .

الملائكة وبنو آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة فهم يقومون عليه عند خلقه ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ويأتونه بالوحي من الله ويراقبون أعماله وتصرفاته وينزعون روحه إذا جاء أجله وستناول ذلك بشيء من التفصيل .

دورهم في تكوين الإنسان

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك) (١) .

وفي صحيح البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد) (٢) .

وفي الصحيحين أيضا عن أنس بن مالك عن النبى - ﷺ - قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكا فيقول : (أى رب : نطفة : أى رب : علقه ، أى رب : مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه) (٣) . حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (٤) .

وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه - خلوا عنه .

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك ورائك إلا شيء أذن الله فيه فيصيه وقال رجل لعلى ابن أبي طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال (أى على) : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه إن الأجل جنة حصينة) .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٧ كتاب القدر . باب كيفية الخلق الأدمى رقم ٣ - ٢٦٤٥ .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية خلق الأدمى رقم ١ - ٢٦٤٣ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٨ كتاب القدر باب كيفية خلق ابن آدم رقم ٥ - ٢٦٤٦ .

(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ ، ١١ .

والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾^(١) فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له .

يلغون وحي الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه ﴾^(٢) .

قال ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾^(٣) وقد يأت بالوحي غير جبريل - وهذا قليل - كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبي - ﷺ - سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك أنزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما بنى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته)^(٤) . وفي التاريخ لابن عساكر بإسناد صحيح عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال (أتاني ملك فسلم على نزل من السماء لم ينزل قبلها فبشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)^(٥) وفي المسند وسنن الترمذي بإسناد صحيح عن أبي بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : (أتاني جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل استرده ، فقلت زدني ، فقال اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل استرده ، فقلت : زدني كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف كلها شاف كاف)^(٦) .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبي :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولا أو نبيا فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم كما أرسله إلى أم اسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها ورأى الصحابة جبريل في صورة أعرجي ، وأرسل الله ملكا إلى ذلك الرجل الذي زار أخا له في الله يبشره بأن الله يحبه لحبه لأخيه وهذا كثير وإنما المراد التنبيه . كيف كان يأتي الوحي الرسول - ﷺ - :

سأل الحارث بن هشام - رضي الله عنه - الرسول - ﷺ - فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

(١) سورة الانعام آية ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية ٩٧ .

(٣) سورة الشعراء الأيتان ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين باب فضل فاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٢٥٤ - ٨٠٦ .

(٥) الحديث في تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج ٤ ص ٩٨ مسند حذيفة بن اليمان .

(٦) الحديث في مسند أحمد ج ٥ ص ١٢٢ مسند أنس بن مالك عن أبي بن كعب .

فقال الرسول - ﷺ - : (أحيانا يأتيني مثل صلصة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قاله وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعني ما يقول)^(١) .

فجبريل كان يأتي الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو في حالته الملكية وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية الى البشرية وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك في صحيح البخاري أن الرسول - ﷺ - قال : (بينما أنا امشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني) والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء وهاتان المرتان مذكورتان في سورة النجم : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ﴾^(٢) .

لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي من الله تعالى فقد كان يأتيه في كل عام في رمضان في كل ليلة من لياليه فيدارسه القرآن) والحديث صحيح أورده البخاري في صحيحه^(٣) .

إمامته للرسول

وقد أم جبريل الرسول - ﷺ - كي يعلمه الصلاة كما يريد الله تعالى :
ففي صحيح البخاري أن الرسول - ﷺ - قال : (نزل جبريل فأمني فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس مرات)^(٤) .
وعن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : (أمني جبريل عند البيت مرتين ، فصلي بي حين زالت الشمس وكانت قدر الشراك ، وصلي بي العصر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلي بي المغرب حين أفطر الصائم ، وصلي بي العشاء حين غاب الشفق ، وصلي بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد صلي بي الظهر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلي بي العصر حين كان ظل الشيء مثليه وصل بي المغرب حين أفطر الصائم ، وصل بي العشاء الى ثلث الليل ، وصل بي الفجر فأسفر ثم التفت إلى وقال : يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين)^(٥) رواه

(١) انظر صحيح البخاري ج ٤ ص ١٣٦ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة والحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨١٦ ، ١٨١٧ كتاب الفضائل باب عرق النبي رقم ٨٧ - ٢٣٣٣ .

(٢) انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج ٨ ص ٦٠٤ تفسير سورة النجم .

(٣) الحديث في صحيح البخاري ج ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٤) الحديث في صحيح البخاري ج ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٥) الحديث في مسند احمد ج ١ ص ٣٣٣ مسند ابن عباس .

انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ١٩٣ كتاب الصلاة باب أوقات الصلاة .

الامام أحمد ولم يعلمه كيفية الصلاة عمليا وأوقاتها فحسب بل علمه الوضوء ففى مسند أحمد ومستدرک الحاكم عن زيد بن حارثة ان الرسول - ﷺ - قال (أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى فعلمنى الوضوء والصلاة فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه) (١).

رقيته للرسول ﷺ

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال قال رسول الله - ﷺ - (أتانى جبريل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم قال : بسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر كل ذى نفس وعين حاسد .. بسم الله أرقيك والله يشفيك) (٢).

أعمال أخرى

ومن ذلك انه حارب مع الرسول - ﷺ - فى بدر والخندق وصحب الرسول - ﷺ - فى الاسراء وغير ذلك .

تحريك بواعث الخير فى نفوس العباد :

وكل الله بكل انسان قرينا من الملائكة وقرينا من الجن ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة) قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياى ولكن الله أعانى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير) (٣) ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله قيضه الله له ليهديه ويرشده وقرين الانسان من الملائكة وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه ، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن للشيطان لمة بآدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ (٤) .

قال ابن كثير بعد سوجه لهذا الحديث : هكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما جميعا .

ويقول رسول الله - ﷺ - (إذا آوى الانسان الى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك : اختم بخير ويقول الشيطان : اختم بشر ، فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه (يعنى النوم) طرد الملك الشيطان

(١) الحديث فى المستدرک للحاكم ج ٣ ص ٢١٧ كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب زيد الحب بن حارثة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧١٨ كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى رقم ٣٩ - ٢١٨٥ .
- الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٥٨ مسند أبى سعيد الخدرى انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٢٢٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٩ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٦٧ ، ٢١٦٨ كتاب صفات المنافقين واحكامهم رقم ٦٩ - ٢٨١٤ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٢٨٨ كتاب التفسير - تفسير سورة البقرة رقم ٤٠٧٣ .

وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ! ويقول الشيطان افتح بشر ! فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعدما أماتها ولم يمتهها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه^(١) ذكره الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر .

هذه الأحاديث توجهنا الى الاكثار من الأعمال الخيرة التى تصلح نفوسنا وتقرب الملائكة منا ففى قرب الملائكة منا خير عظيم فقد كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله - ﷺ - أجود بالخير من الريح المرسلة)

حفظ اعمال ابن آدم

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾^(٢) وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين لا يفارقانه يحصيان عليه أعماله وأقواله ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾^(٣) ومعنى قعيد أى مترصد ورقيب عتيد : أى مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت .

والظاهر أن الملائكة الوكيلة بالإنسان ، تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال لا يتركون شيئا لقوله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل شيء صدر منه ولذلك فإن الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين ﴿ يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾^(٤) وفى مسند الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن إن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث^(٥) .

وذكر ابن كثير فى تفسيره عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ثم قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكا كريما أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ

(١) الحديث فى كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥٤٨ كتاب الدعاء . باب الذكر عند الاضطجاع والدعاء عند اليقظة .

(٢) سورة الانفطار الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة ق الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٤) سورة الكهف آية ٤٩ .

(٥) الحديث فى مسند احمد ج ٣ ص ٤٦٩ مسند باب بن الحارث الحزن .

السيئات ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾^(١) .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت . . شربت ذهبت . . جئت رأيت . . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر والقي سائره) وذلك قوله تعالى ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله .

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات :

في معجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن أبي أمانة أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء فإن ندم واستغفر الله منها القاهها والا كتبت واحدة)^(٢) .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ فالآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة .

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه بقول الرسول - ﷺ - : (قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا)^(٣) وفي الحديث الآخر المتفق عليه أيضا (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة [وهو أبصر به] فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها فاكتبوها له حسنة . إنما تركها من جرائي)^(٤) .

شبهة :

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(٥) فالجواب : إن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى فهو وإن خفى عن البشر فلا يعلم أحدهم ما في ضمير أخيه فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما في الصدور وهو الإرادة والقصد أما بقية الأمور كالاقتادات فلا دليل على كونها تعلمها .

(١) سورة الاسراء الايتان ١٣ ، ١٤ .

(٢) انظر المعجم الكبير للطبراني ج ٨ ص ٢١٨ رقم ٧٧٦٥ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ٢٠٣ - ١٢٨ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت . وإذا هم بسيئة لم تكتب رقم ٢٠٥ - ١٢٩ .

(٥) سورة غافر آية ١٩ .

دعوة العباد إلى فعل الخير :

في صحيح البخارى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبى قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا)^(١) .
وذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رواية أخرى عن أبى الدرداء وفيها (وما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا غربت شمسه الا وبجنبتها ملكان يناديان)^(٢) فذكر مثل حديث أبى هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم :

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ففي البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - انه سمع النبى - ﷺ - يقول : (إن ثلاثة من بنى اسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى أراد الله ان يتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذى قدرني الناس فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال البقر فأعطى ناقة عشراء (أى حامل) فقال : بارك الله لك فيها فأتى الأقرع : فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني الذى قدرني الناس فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال : فأى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك قال أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا فأنج هذا وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم .
ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى .

فقال : الحقوق كثيرة فقال : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقدرك الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر .

فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .
وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته الله عز وجل

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب المسك والمنفق رقم ٥٧ - ١٠١٠ .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٦٦ ، ٧٧ باب الترغيب فى الاتفاق فى وجوه الخير .. الخ

فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبك (١) .

الملائكة تنزع روح الانسان :

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم قال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (٢) والذين يقبضون الارواح اكثر من ملك ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (٣) وينزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعا شديدا عنيفا بلا رفق ولا هوادة ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٤) وقال ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٥) وقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (٦) أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رفيقا .

تبشيرهم المؤمنين عند النزاع :

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن فإن الملائكة تنزل عليه تبشره وتبته ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ (٧) وهى تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٨) .
موسى يفتأ عين ملك الموت :

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقاها قال : (فرجع الملك إلى الله فقال : إنك أرسلتنى الى عبد لك لا يريد الموت وقد فقا عيني قال : (فرد الله إليه عينه وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة (وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة) قال : ثم مه ؟ قال ثم تموت قال فالآن من قريب (٩) .

(١) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٦ ص ٥٠٠ باب (٥١) باب حديث ابرص أوعى وأقرع فى بنى اسرائيل .

- انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٠٠٧٦ ، ٠٠٧٧ كتاب الزهد والرقائق رقم ١٠ - ٢٩٦٤ .

(٢) سورة السجدة آية ١١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٦١ .

(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .

(٥) سورة الأنفال آية ٥٠ .

(٦) سورة محمد آية ٢٧ .

(٧) سورة فصلت الآية ٣٠ ، ٣١ .

(٨) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .

(٩) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٣ كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام رقم ١٥٨ - ٢٣٧٢ .

وملك الموت إنما جاء موسى في صورة انسان كما في رواية صحيحة في المسند وهذا الذي فعله موسى لأن الأنبياء يخبرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية لأن عقولهم لا تستسيغها وقد نسوا أن أول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك في مطلع سورة البقرة فإذا صح الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ (١).

سؤالهم العبد في القبر وما يكون منهم في المحشر والجنة والنار :

فهناك منكر ونكير اللذان يسألان العبد في قبره عن ربه ورسوله ودينه ، ومنهم ملائكة ينعمون العباد في قبورهم ، وآخرون يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين في يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل في الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار في النار . وسلامهم على المؤمنين .

محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض) (٢).

تسديد المؤمن :

روى الترمذى وابن ماجه أن الرسول - ﷺ - قال : (من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسده) (٣).

صلاتهم على المؤمنين

قال تعالى ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ (٥) والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبي العالية وقال غيرد : الصلاة من الله عز وجل الرحمة ولا منافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم .

نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

معلم الناس الخير !

روى الطبرانى والترمذى بإسناد صحيح عن أبي أمامة أن الرسول - ﷺ - قال : (إن الله

(١) سورة آل عمران آية ٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ١٧٣ ، ١٧٤ كتاب التوحيد . الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبدا رقم ١٥٧ - ٢٦٣٧ .

(٣) الحديث في سنن ابن ماجة ج ٢ ص ٧٧٤ كتاب الأحكام باب ذكر القضاة : رقم ٣٢٠٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

وملائكته ، حتى النملة ، في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير (١) (صحيح الجامع)

الذين يؤمنون المساجد للصلاة :

في صحيح مسلم (أن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صل عليه ،
واللهم ارحمه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه) (٢) .

الذين يصلون في الصف الأول :

في سنن أبي دواد وابن ماجه وسنن الإمام احمد عن البراء - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ -
قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) (٣) .

الذين يمكنون في مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود في سننه والنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ -
قال : (الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ، ما لم يحدث ، أو يقيم : اللهم
اغفر له ، اللهم ارحمه) (٤) .

الذين يسدون الفرج بين الصفوف

في سنن ابن ماجه وسند احمد ومستدرك الحاكم بإسناد حسن عن عائشة أن الرسول - ﷺ - قال :
(إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة) (٥)
(صحيح الجامع) .

الذين يتسحرون

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن
رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين) (٦) (صحيح الجامع) .

الذين يصلون على النبى

روى أحمد فى سننه ، والضياء فى المختارة عن عامر بن ربيعة بإسناد حسن أن رسول الله - ﷺ -

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٥٤ أبواب العلم رقم ٢٨٢٦ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٩ كتاب المساجد ومواقع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة رقم ٢٧٢ - ٦٤٩ .

(٣) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٧ كتاب إقامة الصلاة . انظر مسند احمد ج ٤ ص ٢٦٩ مسند النعمان بن

بشير .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٤٣ كتاب الصلاة باب الترغيب فى الجلوس فى المسجد وانتظار الصلاة .

(٥) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٥ كتاب إقامة الصلاة .

(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٣٤٥٨ .

قال : (ما من عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى على فليقل العبد من ذلك أو يكثر)^(١) (صحيح الجامع) .

الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان في صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله - ﷺ - قال : (ما من امرئ مسلم يعود مسلماً إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه فى أى ساعات النهار كان ، حتى يمسي ، وأى ساعات الليل كان ، حتى يصبح)^(٢) (صحيح الجامع) .

التأمين على دعاء المؤمنين

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الاجابة . ففى سنن ابن ماجه عن أبى الدرداء عن النبى - ﷺ - قال . (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب عند رأسه ملك يؤمن على دعائه . كلما دعا له بخير قال : آمين ولك بمثله)^(٣) . ولما كان الدعاء المؤمن عليه حرياً بالاجابة فإنه لا ينبغى للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر .

ففى صحيح مسلم عن ام سلمة قالت : (لاتدعو على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)^(٤) .

استغفارهم للمؤمنين :

قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾^(٥) .

قال سبحانه ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلمنا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾^(٦) .

شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنتهم :

ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى - تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنتهم إلى السماء الدنيا الحديث)^(٧) .

(١) الحديث فى مسند احمد ج ٣ ص ٤٤٥ مسند عامر بن ربيعة عن أبيه .

(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٤ ص ٢٦٨ باب ذكر استغفار الملائكة لعائد المريض . رقم ٢٩٤٧ .

(٣) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٩٦٦ رقم ٢٨٩٥ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب فى إغماض الميت والدعاء له إذا جضر رقم ٧ - ٩٢٠ .

(٥) سورة الشورى آية ٥ .

(٦) سورة غافر الآيتان ٧ ، ٩ .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٦٩ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل مجالس الذكر رقم ٢٥ -

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)^(١) .
وفى مسند الامام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعا (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)^(٢) أى تتواضع له .

فالأعمال الصالحة تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد فى حالة عالية من السمو الروحى لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ومصافحتهم كما فى الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - (لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة)^(٣) (صحيح الجامع) .
تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يؤمنون الجمع الأول فالأول ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الامام طورا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر)^(٤) .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى عن رفاعه بن رافع الزرقى قال (كنا يوما نصلى وراء النبى - ﷺ - فلما رفع رأسه من الركعة ، قال (سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف : قال من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها)^(٥) ف هؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين اللذين يسجلان صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لكونهم بضعة وثلاثين ملكا .

تعاقب الملائكة فينا

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ويشهدون الجمع والجماعات يتعاقبون فينا فطائفة تأتى ، وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٢٦٩٩ - ٣٨ .

(٢) الحديث فى مسند احمد ج ٤ ص ٢٦٩ مسند صفوان بن عسال .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر رقم ١٢ ، ١٣ - ٢٧٥٠ .

(٤) انظر مسند احمد ج ٣ ص ٨١ مسند أبى سعيد الخدرى .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ١٤٩ - ٦٠٠ .

فينسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، فيقول كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون (١) .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ (٢) وقرآن الفجر أى صلاة الفجر كما قال المفسرون .

تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يُقرأ القرآن ، فعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن أسيد ابن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده (الجرن) إذ جالت (وثبت) فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى (ابنه) فقامت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأس فيها أمثال السرج عرجت فى الجوح حتى ما أراها ، فقال ، فغدوت على رسول الله - ﷺ - فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله - ﷺ - : (اقرأ يا ابن حنظل) قال : فقرأت ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله - ﷺ - : (اقرأ يا ابن حنظل) قال : فقرأت ، ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله - ﷺ - : (اقرأ يا ابن حنظل) قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجوح حتى ما أراها فقال رسول الله - ﷺ - : (تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستر منهم) (٣) (رواه البخارى ومسلم) .

يلفون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن لله ملائكة سياحين يلفونى عن أمتى السلام) (٤) .
تبشيرهم المؤمنين

فقد حملوا البشرى إلى ابراهيم بأنه سيرزق بذرية صالحة قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾ (٥) .
وبشرت زكريا ﴿ فنادته الملائكة وهم قائم يصلى فى المحراب أن الله يشرك بيحيى ﴾ (٦) .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٩ ص ١٧٤ كتاب التوحيد .
الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما .
رقم ٢١٠ - ٦٣٢ .

(٢) سورة الاسراء آية ٧٨ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . رقم ٢٤٢ - ٧٩٦ .

(٤) الحديث فى مسند احمد ج ١ ص ٤٥٢ مسند عبد الله بن مسعود .

(٥) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ - ٢٨ .

(٦) سورة آل عمران آية ٣٩ .

وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين ، بل قد تبشر المؤمنين ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال (زار رجل أخاه في قرية أخرى فأرصد الله على مדרجته (طريق) ملكا ، فلما أتى عليه ، قال أين تريد ؟ قال : أريد أخا لي في هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله عز وجل قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)^(١) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (أتاني جبريل ، فقال ، يا رسول الله أهذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي قد أتتك ، فاقراً عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببیت في الجنة من قصب ، لا صخب فيها ولا نصب)^(٢) .

الملائكة والرؤيا في المنام :

روى البخارى في صحيحه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما قال : (كان الرجل في حياة النبی - ﷺ - إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله - ﷺ - فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله - ﷺ - ، وكنت غلاما شابا ، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله - ﷺ - فرأيت في النوم كأن ملكين اخذاني فذهبا بي إلى النار . فإذا هي مطوية كطي البثر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، قال فلقينا ملك آخر فقال لي : لا ترع) (أى لا تخف)^(٣) .

يقاتلون مع المؤمنين ويشبتونهم في حروبهم

قال تعالى ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾^(٤) وقال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾^(٥) .

وروى البخارى بسنده أن رسول الله - ﷺ - قال في يوم بدر (هذا جبريل أخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب)^(٦) وقد بين سبحانه الحكمة والغاية من هذا الاعداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال أعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾^(٧) وقال

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة باب فضل الحب في الله . رقم ٣٨ - ٢٥٦٧ .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٨٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ٧١ - ٢٤٣٢ .

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٠ باب فضائل اصحاب النبی - ﷺ - باب مناقب عبد الله بن عمر .

(٤) سورة الأنفال آية ٩ .

(٥) سورة آل عمران الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) الحديث في صحيح البخارى ج ٥ ص ١٠٣ كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدر . وكذلك غزوة أحد ص ١٢٠ ج ٥ أيضا .

(٧) سورة الأنفال آية ١٢ .

تعالى ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (١) (آل عمران) وقد حاربت الملائكة في مواقع أخرى ، ففي غزوة الخندق أرسل الله ملائكته . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ (٢) والجنود التي لم يروها هي الملائكة وبين في الصحاح وفي غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - يغتسل ، فقال للرسول - ﷺ - وعلى ثنایا جبريل النقع (الغبار) (أوضعتم سلاحكم ، فإننا لم نضع سلاحنا بعد ، فقال إلى أين فأشار إلى بني قريظة) (٣) .

حمايتهم للرسول ﷺ

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قال : فقل نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطآن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب ، قال : فأق رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليظاً على رقبته . قال فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه ، قال فقل له مالك ، فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - (لو دنا مني لا ختطفته الملائكة عضوا عضوا) (٤) .

حمايتهم ونصرهم لصالحى العباد وتفريج كربهم

ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبی - ﷺ - من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجراً يتجر بمال له . ولغيره يضرب به في الآفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقبه لص مقنع في السلاح فقال له ضع ما معك فإنى قاتلك قال فما تريد من دمي ؟ فشأنك والمال قال أما مالك فلى ولست أريد إلا دمك قال أما إذا أبيت فذرني أصلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد ، أسألك بعزك الذى لا يرام وبملكك الذى لا يضام وبنورك الذى ملأ أركان عرشك ان تكفينى شر هذا اللص ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى - ثلاث مرات - فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال قم فقال من أنت بأبى أنت وأمى ، فقد أغاثنى الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقة ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقل لى دعاء مكروب فسألت الله

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٩ .

(٣) الحديث في صحيح البخارى ج ٥ ص ١٤٢ كتاب المغازى باب مرجع النبی - ﷺ - من الأحزاب ومخرجه الى بني قريظة .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٥٤ كتاب صفات المنافقين واحكامهم باب قوله إن الانسان ليطغى . رقم ٣٨ - ٢٧٩٧ .

أن يوليني قتله قال الحسن فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب (١).

شهود الملائكة لجنائز الصالحين

قال الرسول - ﷺ - في سعد بن معاذ (هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه) رواه النسائي عن ابن عمر بإسناد صحيح (٢).

اظلالها للشهيد بأجنحتها

في صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما قتل أبى جعلت اكشف الثوب عن وجهه وابكى ، وبنهونى ، والنبي - ﷺ - لا ينهاني فجعلت عمى فاطمة تبكى ، فقال النبي - ﷺ - : (تبكين أو لا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه) (٣).

حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال

فقى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : (على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال) (٤) وفيه أيضا ليس من بلد الا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق (٥).

نزول النبي عيسى بصحبة ملكين :

(ينزل النبي عيسى بن مريم في آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (المهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس وزعفران) واضعا كفيه على أجنحة ملكين) (رواه مسلم في صحيحه والترمذى في سنه) (٦).

المجايب

- (١) ابن ابى الدنيا كتاب المجانين في الدعاء .
- (٢) الحديث في سنن النسائي في ج ٢ ص ٨٢ كتاب الجنائز باب ضمة القبر .
- (٣) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٩١ باب في الجنائز .
- (٤) الحديث في صحيح البخارى ج ٣ باب حرم المدينة . باب لا يدخل المدينة الدجال ص ٢٨ .
- (٥) الحديث في صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٨ باب حرم المدينة .
- (٦) الحديث في صحيح مسلم كتاب الفتن وأشرط الساعة بمعناه ج ٤ ص ٢٢٢١ رقم ٢٨٩٧ .
- الحديث في سنن الترمذى بمعناه ج ٣ ص ٣٤٤ ابواب القدر باب ما جاء في نزول عيسى ابن مريم .

واجب المؤمن تجاه الملائكة

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذي يعبد الله ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسيء اليهم ويؤذيهم .

البعد عن الذنوب والمعاصي

أعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيه أن يخلص المرء دينه لربه ، ويتجنب كل ما يغضبه .

ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يعصى فيها الله تعالى أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه ، كالأنصاب والتماثيل والصور ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران .

روى البزار بأسناد صحيح عن بريدة - رضي الله عنه - أن الرسول - ﷺ - قال : (ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران والمتضمخ بالزعفران ، والجنب)^(١) .

وقال ابن كثير في البداية ثبت في الحديث المروي في الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب) وفي رواية (لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس)^(٢) (البداية والنهاية) .

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم

ثبت في الأحاديث الصحيحة إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة ، والأقذار والأوساخ روى البخارى ومسلم أن رسول الله - ﷺ - قال : (من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقرب من مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)^(٣) . وقد بلغ الأمر بالرسول - ﷺ - أن أمر بالذى جاء إلى المسجد ورائحة الثوم أو البصل تنبث منه - أن يخرج إلى البقيع (وهذا ثابت في صحيح مسلم)^(٤) .

النهي عن البصق عن اليمين في الصلاة

عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق عن أمامه فإنه إنما

(١) الحديث في زوائد البزار ج ٣ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ رقم ٢٩٢٩ وقال البزار : لا نعلمه يروى عن بريدة إلا من هذا الوجه ولا نعلم رواه عن يوسف إلا عبد الله .

(٢) الحديث في صحيح البخارى ج ٧ ص ٢١٥ باب التصاوير .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراتا ونحوه رقم ٥٦٤ - ٧٤ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب من أكل ثوما أو بصلا أو كراتا أو نحوها . رقم ٥٦٧ - ٧٨ .

يناجى الله مادام فى مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا ، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها^(١) .

موقف الملائكة من الكفار والفساق

وضحنا فيما سبق موقف الملائكة من المؤمنين وقد اتضح من خلال ذلك موقفهم من الكفرة ، فهم لا يحبون الكفرة الظالمين المجرمين ، بل يعادونهم ويحاربونهم ، ويزلزلون قلوبهم كما حدث فى معركة بدر ، والاحزاب .

انزال العذاب بالكفار

عندما كان يكذب الرسول ويصر قومه على التكذيب كان الله ينزل فى كثير من الأحيان بهم عذابه ، وكان الذى يقوم بالتعذيب أحيانا الملائكة .

اهلاكهم قوم لوط

قال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببيعد ﴾^(٢) روى ابن كثير فى تفسيره عن مجاهد قال : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن^(٣) .
لعن الكفرة

قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾^(٤) ولا تلعن الملائكة الكفرة فحسب بل قد تلعن من فعلوا ذنوبا معينة ومن هؤلاء .

لعن الملائكة المرأة التى لا تستجيب لزوجها

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (إذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح)^(٥) .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ١ ص ١١٣ كتاب الصلاة باستقبال القبلة .

(٢) سورة هود آية ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) الحديث فى تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٢ تفسير سورة هود - طبعة الشعب - .

(٤) سورة البقرة آية ١٦١ .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها .

لعنهم الذي يشير الى أخيه بحديدة
 روى مسلم عن أبي هريرة قال قال أبو القاسم (من أشار الى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ،
 وان كان أخاه لأبيه وأمه)^(١) (لما فيه من ترويع لأخيه) .

لعنهم من سب أصحاب الرسول - ﷺ -
 أخرج الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن الرسول - ﷺ - قال : (من سب أصحابي فعليه
 لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)^(٢) .

لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله
 في سنن النسائي عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : (من قتل عمدا ففقد يديه ، فمن
 حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)^(٣) فالذي يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل
 القاتل عمدا فعليه هذه اللعنة فكيف بالذي يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟ !

رؤية الملائكة

لا يستطيع بنو آدم أن يروا الملائكة ، لأن الله لم يعط أبصارهم القدرة على رؤيتهم .
 ولم ير الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول - ﷺ - فإنه رأى جبريل مرتين في
 صورته التي خلقه الله عليها كما سبق ، ولا يستطيع البشر رؤيتهم إلا إذا تمثل الملك في صورة بشر .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٠ كتاب البر والصلة والآداب . باب النهي عن الإشارة بالسلاح الى مسلم رقم
 ١٢٥ - ٢٦١٦ .

(٢) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ١٤٢ رقم ١٢٧٠٩ .

(٣) الحديث في سنن النسائي كتاب الحدود باب من قتل بحجر أو سوط ج ٨ ص ٣٥ .

(لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة)

والله لا يرسل رسله من الملائكة لأن طبيعة الملائكة مخالفة لطبيعة البشر ، فاتصالهم بالملائكة ليس سهلاً ميسوراً .
قال تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾^(١) .

فلو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً .
وعلى فرض أن الله اختار رسله إلى عموم البشر من الملائكة فإنه لا ينزلهم بصورهم الملائكية ، بل يجعلهم يتمثلون في صفة رجال يلبسون ما يلبس الرجال كي يتمكن الناس من الأخذ عنهم .
﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾^(٢) .

وقد أخبر تعالى أن طلب الكفرة رؤية الملائكة ومجيء رسول من الملائكة إنما هو تعنت وليس طلباً للهداية ، وعلى احتمال حدوثه فإنهم لن يؤمنوا قال تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾^(٣) .

الملائكة وبقية المخلوقات :

حملة العرش

العرش أعظم المخلوقات محيط بالسماوات وفوقها ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾^(٤) ، ويحمله من الملائكة ثمانية ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾^(٥) .

ملك الجبال :

وللجبال ملائكة . وقد أرسل الله ملك الجبال إلى عبده ورسوله محمد - ﷺ - يستأمره في إهلاك أهل مكة كما ورد في صحيح البخاري ومسلم . عن عائشة أنها قالت للنبي : (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟) .

(١) سورة الإسراء آية : ٩٥

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٨ - ٩

(٣) سورة الأنعام آية ١١١

(٤) سورة طه آية : ٥

(٥) سورة الحاقة من الآية : ١٧

قال : (لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا محموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (موضع قرب مكة) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت فإذا منها جبريل . فناداني فقال : إن الله - عز وجل - قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا متى) فقال النبي - ﷺ - (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا)^(١) .

الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق

يقول ابن كثير : (في البداية والنهاية) وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب - جل جلاله - .

والملائكة موكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ **والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا** ﴾^(٢) .
﴿ **والنازعات غرقا * والناشطات نشطا * والساجحات سبحا * فالسابقات سبقا * فالمدبرات أمرا** ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا** ﴾^(٤) .

فكل هذه الآيات حديث عن الملائكة حال قيامها بتدبير شؤون السموات والأرض .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب بدء الخلق » باب : « إذا قال أحدكم آمين » ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه ، وانظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب : « ما لقى النبي - ﷺ - من أذى المشركين والمنافقين » ج ٣ ص : ١٤٢٠ - ١٤٢١ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة حديث رقم ١٧٩٥/١١١ غير أنه ورد فيه بعد قول ملك الجبال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك .. الخ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١ - ٢ - ٣ .

(٣) سورة النازعات : ١ - ٤ .

(٤) سورة الذاريات : ١ - ٤ .

المفاضلة بين الملائكة والبشر

قال الإمام ابن تيمية (شيخ الإسلام) : أن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا ، وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه ، وتجلس لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .
والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الملائكة الأعلى ، منزهون عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .
قال ابن القيم : (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل) .
(من كتاب عالم الملائكة الأبرار - عمر سليمان الأشقر) .

الأمر كله لله

قال تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

على كل مؤمن أن يعلم علم اليقين بل عين اليقين ، أنه لا تهب في هذا الكون نسمة هواء ، ولا تطرف طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذنه - جل جلاله - فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، قال الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله - ﷺ - فدعاني المغيرة فكتبت إليه إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول إذا انصرف من الصلاة : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)^(١) .

وسمعه ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات :

وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال :
إن رسول الله - ﷺ - كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : (سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)^(٢) .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن المغيرة ، وانظر ص ٢٥٥ .
(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، ج ١ ص ٣٤٧ حديث رقم ٤٧٧/٢٠٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي سعيد الخدري . وانظر أحاديث الباب .

وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسُكِ اللَّهُ بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾^(١).

وقال الإمام مالك رحمه الله عليه قال أبو هريرة - رضي الله عنه - (إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية :

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢).

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾.

هذا خطاب علوي من الله العلي الأعلى إلى البشرية جمعاء وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقول الله فيه لعباده : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ والله - تعالى - لا يريد بالاستفهام طلب الفهم فهو العليم بكل شيء لكن وراء الاستفهام من المعاني ما وراءه ، فالله - تعالى - ينكر على هؤلاء أن يعبدوا غيره وهو صاحب الخلق والرزق ، والاستفهام الانكارى يفيد النفي أى : لا خالق ولا رازق إلا الله فكيف تعبدون غيره ، وكيف تنصرفون عن عبادته ، وهو المالك المتصرف صاحب الخلق والأمر لا ينقصه نائل ، ولا يشغله سائل ، الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع وإرادته . ثم يخاطب الله - تعالى - نبيه ومصطفاه مخففاً عنه ما يلاقيه من تكذيب هؤلاء الجاحدين وهو الصادق الأمين فيقول :

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾^(٣).

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾^(٤). إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى واعلم أن مرجع الأمر كله لله يحكم بينهم والله عاقبة الأمور وإليه المصير والمآب .

(١) سورة يونس من الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة فاطر من الآية : ٢ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ومن الآية : ٣٦ .

(٤) سورة فصلت من الآية : ٤٣ .

قال تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾^(١) . وقال تعالى : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير . هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفي على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وهذا خطاب آخر من خالق الناس ورب الناس وملك الناس وإله الناس إلى الناس يخبرهم سبحانه فيه :

أن كل ما وعد به عباده على لسان أنبيائه هو حق اليقين وعين اليقين ، فالله حق ولقاؤه ووعدته حق وقوله الحق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق وقوله الحق : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾^(٣) وإذا كان ذلك فأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ولا تغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها ولعبها وهوها ، فالدنيا إذا حلت أو حلت وإذا جلت أو جلت وإذا كست أو كست وكم من ملك رفعت له علامات فلما علامات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴾^(٤) .

كما لا يغرنكم الشيطان بغروره لكي يوقعكم في شباكه وشراكه ومصايد ومكايدته ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ تلك حقيقة يقررها خالق الأكوان ومبدع الإنسان ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾^(٥) يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليرهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾^(٦) .

(١) سورة الحج من الآية : ٥٦ .

(٢) سورة غافر من الآية : ١٢ والآيات : ١٣ - ١٧ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ٧٣ .

(٤) سورة المنافقون الآيات : ٩ - ١١ .

(٥) سورة يس الآيات : ٦٠ - ٦١ .

(٦) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

فلتكن عداوته لكم معلومة لديكم فله حزب وللرحمن حزب .

قال تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾^(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾^(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾^(٣) .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون للكافرين عذاب شديد وأن يكون للمؤمنين مغفرة وأجر كبير قال تعالى : ﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

مغفرة لذنوبهم وأجر كبير لما قدموا من الصالحات .

﴿ إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾^(٤) .

أما جزاء الكافرين فنار تلظى ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لا بشئ فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً . وكل شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾^(٥) .

(١) سورة المجادلة الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

(٤) سورة النبأ الآيات : ٣١ - ٣٦ .

(٥) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّ اللَّهُ يَضِلَّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ فَلَا تُدْهِبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

أي : مَنْ كَانَ هَكَذَا كَالْكَفَّارِ وَالْفَجَّارِ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا سَيِّئَةً وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَعْتَقِدُونَ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسِنُونَ صَنَعًا أَيْ أَفَمَنْ كَانَ هَكَذَا قَدْ أَضَلَّهُ اللَّهُ أَلَّكَ فِيهِ حِيلَةٌ ؟ لَا حِيلَةَ لَكَ فِيهِ ﴿ فَإِنْ أَلَّ اللَّهُ يَضِلَّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ ﴾ أي : بِقُدْرِهِ كَانَ ذَلِكَ ﴿ فَلَا تُدْهِبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ أي . لَا تَأْسَفْ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ حَكِيمٌ فِي قُدْرِهِ إِنَّمَا يَضِلُّ مَنْ يَضِلُّ ، وَيَهْدِي مَنْ يَهْدِي ، لَمَّا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ وَالْعِلْمِ التَّامِّ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

رَوَى ابْنُ حَاتِمٍ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الدِّيلَمِيِّ قَقَالَ :

أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ فِي حَائِطٍ بِالطَّائِفِ يُقَالُ لَهُ الْوَهْطُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ : (إِنْ أَلَّ اللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ اهْتَدَى ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ مِنْهُ ضَلَّ فَلِذَلِكَ أَقُولُ جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى مَا عَلَّمَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -) (١) .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١٠﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُهُ ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِنَبْتِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧٦ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعبد الله بن عمرو .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾
 إِن تَدْعُهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
 يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ *

معاني المفردات

- ﴿ فشير سحابا ﴾ : فترعجه وتحركه .
- ﴿ العزة ﴾ : المراد العز والجاه .
- ﴿ يصعد ﴾ : صعود الكلم الطيب فيه تجوز والمراد : قبول الله له أو علمه به .
- ﴿ يور ﴾ : يهلك ويضيع .
- ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ : أي يزداد في عمره .
- ﴿ فرات ﴾ : شديد العنوبة يقال : فرت الماء فروة عذب .
- ﴿ أجاج ﴾ : شديد الملوحة يقال : أج الماء أجوجا إذا اشتدت ملوحته .
- ﴿ حيلة ﴾ : ما يتحلى به من سوار أو خاتم .
- ﴿ مواخر ﴾ : تمخر الماء أي : تشقه شقاً في إقبالها وإدبارها .
- ﴿ قطمير ﴾ : هو لفافة النواة أي : القشرة الرقيقة التي تكون على النواة .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم ، في ذلك اليوم أردف ذلك بيان أن هذا اليوم لا ريب فيه وضرب المثل الذي يدل على تحققه لا محالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ﴾ ^(١) .

وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة ذكر دليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف أطوارها فقد كانت تراباً ، ثم نطفة ثم وضعت في الأرحام ، إلى أن صارت بشراً سوياً ، ومنها ما يمد في عمرها ، ومنها ما يختار قبل ذلك كما تدل عليه المشاهدة وكل ذلك يسير على الله .

وبعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجري في الأقاليم والأمصار والبراري والقفار يسقى منه الإنسان والحيوان ، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ، ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحماً طرياً فيه لذة للأكلين ، وهذان ليل ونهار ضياء وظلام يدخل أحدهما في الآخر ، فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا في قصر ذاك فيعتدلان ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، وسخر الشمس والقمر ، والنجوم الثابت والسيارات ، كل يجري بمقدار معين ، وعلى نهج ثابت لا يتغير وكل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى نقيرو ولا يسمعون لكم دعاء ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتهم واستشفعتم بهم ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فشير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

هذا دليل على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، فكما أن الله - تعالى - أرسل الرياح فسيرت السحب فساق تلك السحب إلى الأرض الموات وأحيها بالمطر وصيرها جنة خضراء ، كذلك يحيى الله موات الأجسام بعدما رمت وبلت .

قال أبو رزين : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال - ﷺ - : « يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً » قلت بلى ، قال - ﷺ - (كذلك يحيى الله الموتى)^(١)

ونحو الآية قوله - جل شأنه - : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾^(٢)

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١١ فقد ورد الحديث بعدة روايات لأبي رزين .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .

زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴿١﴾ .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى أنه على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يور . والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

يخبر الله تعالى : أن من كان يريد العزة في الدنيا والآخرة فليطع الله ورسوله فإن العز كل العز في طاعة الله ورسوله ، والذل كل الذل في مخالفة ما أمر به الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ (٤) .

وقال - جل شأنه - : ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم ﴾ (٥) .
وقال تبارك اسمه حكاية عن المنافقين :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (٦) .

وللأئمة - رحمهم الله تعالى - في هذا النص أقوال :
قال مجاهد : (من كان يريد العزة) بعبادة الأوثان فإن العزة لله جميعاً . وقال قتادة : (من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً) أي : فليتعزز بطاعة الله - عز وجل - .

(١) سورة الحج الآيات : ٥ - ٧ .

(٢) سورة فصلت الآية : ٣٩ .

(٣) سورة ق الآيات : ٧ - ١١ .

(٤) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ - ١٣٩ .

(٥) سورة يونس الآية : ٦٥ .

(٦) سورة المنافقين آية : ٨ .

وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي (فإن العزة لله جميعاً) وحكاها ابن جرير .
 وقوله - تبارك وتعالى - : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء .
 قال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله
 - هو ابن مسعود رضي الله عنه - : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله
 - تعالى - إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ،
 تبارك الله ، أخذهم ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من
 الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحبى بهن وجه الرحمن - عز وجل - ثم قرأ عبد الله - رضي الله
 عنه - : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)^(١) .

أما قوله تعالى : ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ فقد روى في تفسير هذا النص أقوال للأئمة
 الأبرار :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : الكلم الطيب ذكر الله - تعالى -
 يصعد به إلى الله - عز وجل - والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله - تعالى - في أداء فرائضه
 حمل عمله ذكر الله - تعالى - يصعد به إلى الله - عز وجل - ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد
 كلامه على عمله فكان أولى به ، وكذا قال مجاهد :

العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال أبو العالية :

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا
 يقبل قول إلا بعمل قوله تعالى : ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو
 يور﴾ .

قد يكون المراد بهؤلاء الذين يمكرون بالناس مكر السيئ فيظهرون لهم خلاف ما يبطنون ،
 ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر كما أنه قد يكون المراد بهم المشركين ، والمعنى يعم
 هؤلاء وأولئك ، وقد حكم الله - تعالى - عليهم بالعذاب الشديد وأن مكرهم يور فإنما يمكرون
 بأنفسهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، ومكرهم هذا يظهر أمام الناس زيفهم وفسادهم .

قوله تعالى : ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا
 تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ قال
 ابن كثير أى : ابتداء خلق أيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴿ثم جعلكم
 أزواجاً﴾ أى : ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها . ﴿وما
 تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أى : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ج ٢٢ ص ٨٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن المخارق عن
 أبيه .

﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾^(١).

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) لأئمة التفسير فيها أقوال : قال ابن كثير : أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل ، وهو عنده في الكتاب الأول (وما ينقص من عمره) الضمير عائد على الجنس لا على العين ، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله - تعالى - لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له - فذلك قوله تعالى :

﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الثمال بن مزاحم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وما ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال مجاهد : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغاً ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله - تعالى - سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله - تعالى - في كتابه . قال النسائي بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه) رواه البخاري ومسلم^(٢) . وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : ذكرنا عند رسول الله - ﷺ - فقال : (إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة

(١) سورة الأنعام من الآية : ٥٩ .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب البر والصلة » باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ج ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة وأخرى لأنس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والأداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطعها » ج ٤ ص ١٩٨٢ حديث رقم ٢٥٥٧/٢٠ ، ٢٥٥٧/٢١ عن أنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

وانظر سنن أبي داود « كتاب الزكاة » باب « صلة الرحم » ج ٢ ص ٣٢١ حديث رقم ١٦٩٣ عن رواية لأنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر ^(١) وقوله عز وجل ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

وقال الشيخ في تفسير هذه الآية :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي : والله خلق الناس من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهي آخرأ إلى الماء والتراب ، منهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم ، بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى :

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي : ولا تحمل من أنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هي صاحبة السلطان في هذا العالم لم يتم التوازن في العدد بين الزوجين ، فيفنى الإنسان والحيوان ونحو الآية قوله : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ﴾ . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ^(٢) .

﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ عَمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمَرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي : لا أحد يقضي له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له ، وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل ، وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت ، والوباء والحرب . ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : أن ذلك النظام البديع للعالم - هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٌ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

أي : ما يعتدل البحرين فيستويان : أحدهما : عذب سائغ شرابه يجري في الأنهار السارية بين

(١) انظر كنز العمال « كتاب النكاح » ج ١١ ص ٤٩٢ حديث رقم ٤٥٦٠٨ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر (طب - عن أبي الدرداء) .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ - ٩ .

الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، وثانيهما : ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ أي : ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطري ، فضلاً من الله ومنه .

﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وتستخرجون الدر والمرجان من الملح الأجاج ، ومن العذب الفرات ، وتجري السفن في كل منهما تشقه شقا بجيازيهما حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر ، فتدفع عنكم المحمصة وتسد العوز .

﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ لعلكم تشكروه - سبحانه - على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك في البحر والشمس والقمر في مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح في تلك العوالم الشاسعة - أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر ، فقال تعالى :

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ .

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي : يدخل الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي : وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلاً منه في النهار ، ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم ، لا يقصران دونه ، ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ أي : ذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذي لا تصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم ، له الملك التام ، والسلطان المطلق ، والقهر والجبروت ، وكل من في السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ أي : والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئاً ولو كان حقيراً ، بل هم ملك لخالق القوى والقدر .

ثم أكد ما سلف مبيناً حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله تعالى :

﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

هذه الآية دليل على إبطال عبادة غير الله ، فلا يملك الضر والنفع إلا الله .

ولا يجب المضطر إذا دعاه ولا يكشف السوء عما ناداه إلا الله ، ولا يقبض ولا يسط إلا

الله ، ولا يحيى ويميت إلا الله ، ولا يعز ويذل إلا الله ، أما ما دونه فلا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ومن ثم فإن القرآن يتحدى المشركين فيقول لهم : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾^(١) يعني : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها ، ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي : لا يقدرّون على شيء مما تطلبون منها ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي : يتبرعون منكم كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾^(٢) وكقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾^(٣) .

وكقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبة لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾^(٤) وكقوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وأبأهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فيما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾^(٥) .

وكقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون . قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون . ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . فعमित عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾^(٦) .

وكقوله تعالى : ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ، فالיום لا يملك بكم

(١) سورة الأحقاف الآيات : ٥ - ٦ .

(٢) سورة مريم الآيات : ٨١ - ٨٢ .

(٣) سورة البقرة الآيات : ١٦٥ - ١٦٧ .

(٤) سورة الفرقان الآيات : ١٧ - ١٩ .

(٥) سورة القصص الآيات : ٦٢ - ٦٦ .

لبعض نفعاً ولا ضرراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿١١﴾ .
 وقوله تعالى : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه
 مثل خبير بها قال قتادة يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

الله هو الغني الحميد

قال تعالى :

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
 وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
 رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ
 الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا
 الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا
 أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
 وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

معاني المفردات

﴿ الفقراء ﴾ : المحتاجون إلى الله ، ﴿ لا تزر وازرة ﴾ : المراد لا تحمل نفس وزرة أي : آثمة
 ﴿ وزر أخرى ﴾ : حمل أخرى ، ﴿ تزكى ﴾ : تطهر ، ﴿ أمة ﴾ : الأمة الجماعة الكثيرة ،
 ﴿ وبالزبر ﴾ : الكتب المكتوبة ، ﴿ نكير ﴾ أي : عقابى على أعمالهم .

المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام
 والأوثان لا يملك شيئاً ولا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ، أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة ،
 بأنه لا افتقار إلا إليه ولا إتكال إلا عليه ، فهو الذي تجب عبادته وحده ، لأنه النفع والضرر بيده لا
 شريك له ، ثم بين أنه يوم القيامة لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا تستطيع دفع ضررها ولو كانت
 ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والانذار إنما تجدى نفعاً لدى من يخشى الله ويخاف عقابه وأن
 من يتزكى فنفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردّها إليه . ثم ذكر أن الهداية بيده
 - سبحانه - يمنحها من يشاء ، وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ،
 وأن الله لم يترك أمة سدى ، بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعي ونجا ، ومنهم من استكبر
 وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال في الدنيا والنار في العقبى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنعم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم
 ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

يخبر - سبحانه وتعالى - بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها يديه ، فقال
 تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنعم الفقراء إلى الله ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات
 وهو - تعالى - الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال - عز وجل - : ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي :
 هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول ويقدره ويشعره .

﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم
 وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ذلك على الله العزيز ﴾ ويشرح هذه الآيات
 هذا الحديث القدسي الذي رواه الحبيب المصطفى محمد ﷺ - عن رب العزة .

عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)^(١) (رواه مسلم) .

قال ابن رجب الحنبلي في تفسير هذا الحديث الجليل :

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً) يعني : أنه منع نفسه سبحانه - من الظلم لعباده كما قال - عز وجل - : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾^(٢) ، وقال : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾^(٣) ، وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾^(٤) .

وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يعني : أنه - تعالى - حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم ، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره وثبت في الصحيح قول النبي - ﷺ - : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)^(٥) .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - أنه قال : (إن الظلم ظلمات يوم القيامة)^(٦) .

- (١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ حديث رقم ٢٥٧٧/٥٥ فقد ورد الحديث برواية عن أبي ذر .
- (٢) سورة ق من الآية : ٢٩ .
- (٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦ .
- (٤) سورة يونس من الآية : ٤٤ .
- (٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الحج » الخطبة أيام منى ج ٢ ص ٢١٥ من رواية لابن عباس من خطبة الرسول - ﷺ - يوم النحر .
- (٦) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٦ حديث رقم ٢٥٧٨/٥٦ من رواية عن جابر .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحته عليه)^(١) .

وقوله : ﴿ يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ﴾ .

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - تعالى - في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم ، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله . وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا ، ومن لم يتفضل عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾^(٢) ، وقال تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾^(٤) . وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل فقال لقومه :

﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾^(٥) .

فإن من تفرد بخلق العبد وهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا وبمغفرة ذنوبه في الآخرة مستحق أن يفرد بالالهية والعبادة والسؤال والتضرع والتذلل والاستكانة له . وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالحهم دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة لأنه هو الغني وهم الفقراء المحتاجون إليه - سبحانه .

وقوله : ﴿ يا عبادي أنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفي فتفنعوني ﴾

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب المظالم والغصب » باب « من كانت له مظلمة » ج ٣ ص ١٧٠ من رواية أبي هريرة مع اختلاف في الألفاظ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ١٧ .

(٣) سورة فاطر آية : ٢ .

(٤) سورة هود من الآية : ٦ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٨٣ .

يعنى أن العباد لا يقدرّون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضرراً ، فإن الله - تعالى - في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه ، وإنما هم ينتفعون بها ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها قال الله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾^(١) . وقال تعالى : ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾^(٢) . وكان النبي - ﷺ - يقول في خطبته : (ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ، ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً) قال الله - عز وجل - ﴿ وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً ﴾^(٣) ، وقال حاكياً عن موسى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾^(٤) وقال : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾^(٥) ، وقال سبحانه : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾^(٦) . والمعنى أنه - تعالى - يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض وطلبها حتى أعي وأيس منها واستسلم للموت وأيس من الحياة ثم غلبته عينه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح ، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبه لنفعهم ودفع الضر عنهم فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده .

قال الفضيل بن عياض - رضي الله عنه - مامن ليلة اختلط ظلامها وأرخت الليل سربال سترها إلا نادى الجليل - جل جلاله - : من أعظم مني جوداً والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب أكلوهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي واتفضل على المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم استجب إليه ، أم من ذا الذي سألتني فلم أعطه ، أم من ذا الذي أناخ ببالي فنحيته أنا الفضل ومنى الفضل ، أنا الجواد ومنى الجود ، وأنا الكريم ومنى الكرم ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي العبد ما يسألني وأعطيته مالم يسألني ، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني ، فأين إلى غيره يهرب الخلائق وأين عن بابه يلتجئ العاصون ؟ (أخرجه أبو نعيم)^(٧) .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٧٦ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .

(٣) سورة النساء من الآية : ١٣١ .

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٨ .

(٥) سورة آل عمران من الآية : ٩٧ .

(٦) سورة الحج من الآية : ٣٧ .

(٧) انظر حلية الأولياء ج ٨ ص ٩٢ ، ٩٣ فقد ورد الحديث .. ثنا هناد بن السرى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : ... الحديث .

وقوله بعد هذا (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) هو إشارة إلى أنه - سبحانه - ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على أتقى قلب رجل منهم ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم فإنه - سبحانه - وتعالى - الغني بذاته عمن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان - وقوله : (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر) .

فالمراد بهذا ذكر كمال قدرته - سبحانه - وكال ملكه وإن ملكه وخزائنه لا تنفذ ولا تنقص بالعطاء ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سأله في مقام واحد وفي ذلك حث الخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : (يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أفرايتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يفيض ما في يمينه)^(١) .

وقوله : (لم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر) لتحقيق أن ما عنده لا ينقص ألبتة كما قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئاً ، وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلاً فإنه لا ينقص البحر ألبتة .

وهكذا طعام الجنة وما فيها فإنه لا ينقص كما قال تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾

وقد جاء : كلما نزعت ثمرة عاد مكانها مثلاً وروى مثلاً فهي لا تنقص أبداً ويشهد بذلك قول النبي ﷺ - في خطبة الكسوف « ورأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا »^(٢) . (خرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما) .

وقوله : ﴿ يا عبادي . إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ﴾ يعني أن سبحانه

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله » ج ٩ ص ١٥٠ فقد ورد الحديث في رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر صحيح البخاري باب الصلاة في كسوف الشمس ، باب صلاة الكسوف جماعة ج ٢ ص ٤٦ ، فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن عباس .

وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٥٨ ، ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله ابن مسعود .

يحصي أعمال عباده ثم يوفيه إياها بالجزاء عليها ، وهذا كقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(١)

وقوله : ﴿ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومُنْ إِلَّا نَفْسَهُ ﴾ إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير استحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه ، فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته أعانه ووفقه لطاعته ، وكان ذلك فضلاً منه ورحمة وإذا أراد خذلان عبد وكله إلى نفسه وخلي بينه وبينها فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتباع هواه وكان أمره فرطاً ، وكان ذلك عدلاً منه ، فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول فما بقي لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل .

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً قيماً في قوله الله - عز وجل - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

فضل في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه : قال رحمه الله : بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه ، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل ذاتي للفقير . فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلّة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجبت غناه . كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :
« والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلّة ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك ، إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغنى بذاته » .

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً ، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً .

الفقر فقران :

إذا عرف هذا الفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو عام لا خروج لير ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذمّاً ولا ثواباً ولا عقاباً ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً . .

والفقر الثاني : فقر اختياري وهو نتيجة علمين شريفيين أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني معرفته بنفسه ، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان انتجتا فقراً هو عين غناه وعنوان سعادته وفلاحه .

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين ، فمن عرف ربه بالغنى المطلق ، عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقدر التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل ، فالحمد لله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة ، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوراً محسوساً لكل أحد ، ومعلوم أنه هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها ، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى ، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئها وفاطره .

فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً ، وخلع عليه ملابس إنعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بنى جنسه ، وسخر له الخيل والإبل وسلطه على دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء والتحليل على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظن المسكين أن له نصيباً من الملك وادعى لنفسه ملكاً مع الله سبحانه ، ورأى نفسه لغير تلك العين الأولى ، ونسى ما كان فيه من حالة الاعداء والفقر والحاجة ، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره ، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله - ﷺ - بصق في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ يا ابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد (صوت) فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأني أوان الصدقة ﴾^(١) ومن هاهنا خذل من خذل ووفق من وفق . فحجب المخدول عن حقيقته ونسى نفسه فنتى فقره وحاجته وضرورته إلى ربه ، فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة . قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾^(٢) . وقال تعالى :

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾^(٣) فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ولهذا كان من دعائه - ﷺ - : (أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين ولا إلى أحد من خلقك) .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ حديث يسر بن جحاش عن النبي - ﷺ - فقد ورد الحديث بلفظه وجاء فيه بلفظ

(بنى آدم » بدلاً من « يا ابن آدم » .

(٢) سورة العلق الآيتان : ٦ - ٧ .

(٣) سورة الليل الآيات : ٨ - ٩ .

وكان يدعو : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) يعلم - ﷺ - أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئاً ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾^(١) فضرورته - ﷺ - إلى ربه وفاقه إليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ، ومنزلته عنده . وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الدعاء ، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه - ﷺ - (من كتاب طريق المهجرتين وباب السعادتين) ، وقال رحمه الله في كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

ومن منازل : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾^(٢) منزلة « الفقر » هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم وأعلاها وأرفعها ، بل هي روح كل منزلة وسرها ولبها وغايتها .
وحقيقة « الفقر » وكاله كما قال بعضهم - وقد سئل : متى يستحق الفقير اسم : الفقير ؟ - فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقليل له : وكيف ذاك ؟ فقال : إذا كان له فليس له . وإذا لم يكن له فهو له .

وهذه من أحسن العبارات عن معنى « الفقر » الذي يشير إليه القوم . وهو أن يصير كله لله - عز وجل - لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه فمتى بقى عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول .

ثم فسر ذلك بقوله : « إذا كان له فليس له ، أي : إذا كان لنفسه فليس لله ، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله .

فحقيقة الفقر لا تكون لنفسك ، ولا يكون لها منك شيء ، بحيث تكون كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء منافع للفقر .

وهذا « الفقر » الذي يشيرون إليه ! لا تنافيه الجدة ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبياءه في ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل - عليه السلام - كان أبا الضيفان . وكانت له الأموال والمواشي .

وكذلك سليمان وداود - عليهما السلام - وكذلك كان نبينا محمد - ﷺ - كما قال الله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾^(٣) . فكانوا أغنياء في فقرهم . فقراء في غناهم .

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(٣) سورة الضحى آية : ٨ .

فالفقر الحقيقي : دوام الافتقار إلى الله في كل حال وأن يشهد العبد - في كل ذرة من ذراته -
الظاهرة والباطنة - فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه .
فالفقر ذاتي للعبد ، وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالاً ، وإلا فهو حقيقة .
وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم : الفقير لا تسبق
• همته خطوته .
يريد أنه ابن حاله ووقته . فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه .

وقيل : أركان الفقر أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه .
وقال الشبلي : حقيقة الفقر ألا يستغنى بشيء دون الله .
وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه .
وقيل بعضهم : أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله : دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال ،
وملازمته السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .
والفقر له بداية ونهاية ، وظاهر وباطن فبدايته : الذل ، ونهايته : العز . وظاهره : العدم ،
وباطنه : الغنى كما قال رجل لآخر : فقر وذل ؟ فقال : لا ، بل فقر وعز . فقال : فقر وثراء ؟ قال :
لا بل فقر وعرش ، وكلاهما مصيب .
واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله - مع التخليط - خير من دوام الصفاء مع
رؤية النفس والعجب مع أنه لا صفاء معهما .
وإذا عرفت معنى « الفقر » علمت أنه عين الغنى بالله ، فإن الاستغناء به هو عين الافتقار
إليه .

درجات الفقر

الدرجة الأولى : فقر الزهاد : وهو قبض اليد على الدنيا ضبطاً أو طلباً . وإسكات اللسان عنها
مدحاً أو ذمماً . والسلامة منها طلباً أو تركاً . وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه .
قوله : (قبض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلباً) يعني : يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت
له ، فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها ، وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها ، فلا يطلب
معدومها . ولا ييخل بموجودها .

وأما « تعطيلها عن اللسان » فهو لا يمدحها ولا يذمها . فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل على
محبتها ورغبته فيها ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وإنما اشتغل بزمها حيث فاتته .

وأما (تعطيل القلب منها) فبالسلامة من آفات طلبها وتركها . فإن لتركها آفات ولطلبها آفات . والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة ، لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها .
ومن آفات الترك : تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه ، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك .

ومن آفات تركها ، وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو ، وهذا يقابل الزهد فيها وتركها ، كما أن كسرة الأخذ وذلته وتواضعه : يقابل الأخذ التارك . ففي الأخذ آفات ، وفي الترك آفات .

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك وهو لا يحصل إلا بفقه في الفقر .
وقوله رحمه الله .. (فهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه) يعني تكلم فيه أرباب السلوك وفضلوه ومدحوه .

قال : « الدرجة الثانية » الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال . ويقطع شهور الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات .

يريد بالرجوع إلى السبق : الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنة وجوده ، وأن العبد - وكل مافيه من خير - فهو محض وجود الله وإحسانه ، وليس للعبد من ذاته سوى العدم ، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه ، فإذا شهد هذا وأحضره قلبه ، وتحقق به ؛ خلصه من رؤية الأعمال فإنه لا يراها إلا من الله وبالله . وليست منه هو ولا به .
واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله . ويخلصه منها : شهود السبق ، ومطالعة الفضل .

وقوله : (ويقطع شهود الأحوال) .

لأنه إذا طالع سبق فضل الله : علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره ، فهو محض جوده . فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً ، كما لم يشهد له عملاً . فقد جعل عدته للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله .

وكذلك قوله : « يمحص من أدناس مطالعة المقامات » هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال ، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال ومطالعة المقامات : فمطالعة الفضل يتمحص من هذا الدنس .

والفرق بين الحال والمقام : أن « الحال » معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ، ولا اكتساب ، ولا تعمد . و « المقام » يتوصل إليه بنوع كسب وطلب . فالمقام يحصل ببذل الجهود ، وأما الحال : فمن عين الجود .

قال : « والدرجة الثالثة : الاضطرار . والوقوع في يد التقطع الوجداني أو الاحتباس في بيداء قيد التجريد . وهذا فقر الصوفية » .

« الاضطرار » شهود كمال الضرورة والفاقة علماً وحالاً .

ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني : حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار . فهي منقطعة عن الأغيار ، وحدانية في نفسها والوقوع في يدها : الاستسلام والاذعان لها . والدخول في رقها .

« وأما الاحتباس في بيداء قيد التجريد »

فهو تجريد المرذانية أن يشهد معها غيرها ، وهو الغناء عن شهود السوى . وسمى ذلك « احتباساً » لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار . وجعل للتجريد قيداً . وهو التقيد بشهود الحقيقة .

وجعل القيد بيداء لوجهين .

أحدهما : أن الأغيار تبید فيه وتنعدم . ولا يكون معه سواه .

والثاني : نسعته وفضائه . فصاحب شهوده : في بيداء واسعة ، وإن احتبس في قيد شهوده .

وقوله : وهذا فقر الصوفية .. قد يفهم منه : أن التصوف أعلى عنده من الفقر . فإن هذه الدرجة الثالثة - التي هي أعلى درجات الفقر عنده هي من بعض مقامات الصوفية .. انتهى .

في تقسيم الغنى إلى عال وسافل والله هو الغني الحميد

ولما كان الفقر إلى الله - سبحانه - هو عين الغنى به ، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به ، وأذلهم له أعزهم ، وأضعفهم بين يديه أقواهم ، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله ، وامقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله ، كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إلا إليه متلازمين متناسبين .

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو مرسوم بسمة الخلق والصنع وغنى العبد أمر نسبي إضافي عارض له ، فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته ، فهو غنى به فقير إليه ، ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته ، فهو الغنى بذاته عما سواه وهو الأخذ الصمد الغنى الحميد .

والغنى قسمان :

غنى سافل ، وغنى عال . فالغنى السافل الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . وهذا أضعف الغنى ، فإنه غنى بظل زائل ، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها ، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها ، وكأن الغنى بها كان حلماً

فانقضى ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذي هو ظل زائل وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون ، وإياه يطلبون وحوله يحومون ، ولا أحب إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده .

وهذا الغنى مخوف بفقرين : فقر قبله ، وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما . فحقيق بمن نصح نفسه ألا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه ، بل إذا حصل له جعله سبباً لغناه الأكبر ووسيلة إليه ، ويجعله خادماً من خدمه لا مخدوماً له ، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبد لها لغير مولاه الحق ، أو يجعلها خادمة لغيره .

الغنى العالي :

أما الغنى العالي فقال شيخ الإسلام : (هو على ثلاث درجات) :
الدرجة الأولى : غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسألته للحكم ، وخلاصته من الخصومة .

الدرجة الثانية : غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب . وسلامتها من الحظوظ وبرائها من المراءاة .

والدرجة الثالثة : الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب :

الأولى : شهود ذكره إياك .

والثانية : دوام مطالعة أوليته .

والثالثة : الفوز بوجوده .

وإنما قدم شيخ الإسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس ؛ لأن كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه ، وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب ، وصلاح النفس متقدم على إصلاحها . هكذا قيل ؛ وفيه ما فيه ، لأن صلاح كل واحد منهما . مقارن لصلاح الآخر .

ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم . وقد قال النبي ﷺ - : (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب)^(١) والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الأمراء والرعية خلعاً تناسبها ، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والاختبات .

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار ، وعلى الوجه خلع المهابة والنور والبهاء ، وعلى اللسان خلع الصدق والقول السديد والحكمة النافعة ، وعلى العين خلع الاعتبار في النظر والغض عن

(١) أنظر صحيح مسلم « كتاب المسافة » باب « أخذ الحلال وترك الشبهات » ج ٣ ص ١٢١٩ ، ١٢٢٠ حديث رقم ١٠٧ /

١٥٩٩ ، فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل عن النعمان بن بشير .

المحارم ، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده ، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوة وأيد . وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ ، فغدا العبد وراح يرقل في هذه الخلع ويجر لها في الناس أذياً وأرداناً . فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه . فإذا استغنى سرى الغنى منه إلى النفس .

فقوله في الدرجة الأولى وهي غنى القلب : (إنه سلامته من السبب) أي : من الفقر إلى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون إليه والثقة به ، فمن كان معتمداً على سبب غناه واثقابه لم يطلق عليه اسم الغنى ، لأنه فقير إلى الوسائط ، بل لا يسمى صاحبه غنياً إلا إذا سلم من علة السبب استغناء بالمسبب ، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تديره .. فبذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله - سبحانه - . فمن كملت له السلامة من علة الأسباب ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسألة - أي : بالانقياد لحكمه - حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تديره ورحمته وحكمته .

ولا يتم الغنى بتدبير الله - سبحانه - لعبده إلا بالمسألة لحكمه بعد الوقوف على حسن تديره ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه

فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ، ومن كان فقيراً إلى حظ من الحظوظ - يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه - لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إلى وليه وقيومه ومتولى تديره ، فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب ، ومن علة منازعته لأحكام الله - سبحانه - ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه مفوضاً إليه لا يفتقر إلى غيره ، ولا يسخط شيئاً من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه ، فتكون مخاصمته لله وبالله ، ومحاكمته إلى الله كما كان - ﷺ - يقول في افتتاح صلاة الليل :

(اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت ، وإليك حاكمت) . فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه ، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه وقد قالت السيدة عائشة : (ما انتقم رسول الله - ﷺ - لنفسه قط) وهذا لتكميل عبوديته . ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت ، وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر .

وقال تعالى : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾^(١) . ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ .

أي : وإن طلبت نفسي مثقلة بالأوزار والذنوب - إن طلبت - غيرها ليحمل بعض ما عليها فلن يكون ذلك فهي التي تحمل أوزارها وحدها .

غداً توفي النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وهذه الآية تشبيه بالأم التي حملت وأثقلت وأخذت تشعر بآلام الحمل فإن غيرها لا يستطيع أن يحمل عنها بعض آلامها ولو كان ذا قربى ولو كان أباهاً أو ابنها كل مشغول بنفسه وحاله .

قال عكرمه في قوله - تعالى - : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب ، سل هذا لم كان يغلق بابه دوني . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار .

وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني ، أي والد كنت لك فيشني خيراً فيقول له : يا بني ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها فما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل ما بتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجه فيقول : يا فلانة - أو يا هذه ، أي زوج كنت لك فتشني خيراً فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لي لعل أنجو بها مما ترين .

قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾^(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾^(٣) . رواه ابن أبي حاتم رحمه الله عن أبي عبد الله الزهراني عن حفص بن عمر عن

(١) سورة العنكبوت من الآية : ١٢ .

(٢) سورة لقمان من الآية : ٣٣ .

(٣) سورة عبس الآيات : ٣٤ - ٣٧ .

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء ، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه فهذه كلها آثار ذكره لك . ثم إنه - سبحانه - ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس ، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك وتعرف بها إليك وتحبب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء ، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده .

فإذا شهد العبد ذكر ربه - تعالى - له ووصل شاهده إلى قلبه شغله ذلك عما سواه ، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء . فهو يحصل له بشعوره بذكره إسناده له - غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له ، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد وقد قال - ﷺ - فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ﴿ **إِنْ ذَكَرْنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ ذَكَرْتَهُ فِي مَلَأْ خَيْرِ مِنْهُمْ** ﴾ ^(١) فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره له حتى جعله ذاكراً ، وشعور العبد بكللا الذكرين يوجب له غنى زائد على إنعام ربه عليه وعطاياه له .

والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته ، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم ، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم ، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم .

والدرجة الثانية من درجات الغنى بالله - عز وجل - : شهود أوليته - سبحانه - ، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى مما قبله ، والغنى به أتم من الغنى المذكور لأنه من مبادئ الغنى بالحقيقة ، لأن العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره ، وهو الاله الحق الكامل في أسمائه وصفاته ، الغنى بذاته عما سواه ، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده ، فهو معبود محمود حي قيوم له الملك وله الحمد في الأزل والأبد . لم يزل موصوفاً بصفات الجلال . منعوتاً بنعوت الكمال ، وكل شيء سواه فإنما كان به ، وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره ، فهو القيوم الذي قيام كل شيء به ، ولا حاجة به في قيومته إلى غيره بوجه من الوجوه . فإذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى في وجوده من لم يكن ، وبقي من لم يزل ، وأضمحلت الممكنا في وجوده الأزلى الدائم بحيث صارت كالظلال التي يسطها ويمدها ويقبضها فيستغنى العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى به عن فاقاته وحاجاته .

وإنما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لأن الشهود الذي قبله فيه شائبة مشيرة إلى وجود العبد ، وهذا الشهود الثاني سائر الموجودات كلها سوى الأول - تعالى - قد اضمحلت وفنيت فيه

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « الحث على ذكر الله - تعالى - ج ٤ ص ٢٠٦١ حديث

رقم ٢٦٧٥/٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة :

- وصارت كأوليتها وهو العدم - فأفتتها أولية الحق - سبحانه - . فبقى العبد محوياً صرفاً وعدماً محضاً ، وإذا كانت أنيته (الأنا) مشخصة مشاراً إليها ، لكنها لم نسبت إلى أولية الحق - عز وجل - اضمحلت وفنيت وبقي الواحد الحق الذي لم يزل باقياً ، فاضمحل ما دون الحق - تعالى - في شهود العبد كما هو مضمحل في نفسه ، وشهد العبد حينئذ أن كل شيء ما سواه باطل ، وأن الحق المبين هو الله وحده ، ولاريب أن الغنى بهذا الشهود أنتم من الغنى بالذي قبله ، وليس هذا مختصاً بشهود أوليته - تعالى - فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب - سبحانه - يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها . فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعملهم به الصادق المصدوق ، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الدليل بين يدي الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمة وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه ، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ويشهد نزول الأمر والمراسيم الألهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف من الأمانة والاحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس - إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه ، فمراسمه نافذة كما يشاء ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾^(١) .

فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به .

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال ، بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلاً ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من فراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء . وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها ، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر .

ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هي عنده كلها كصوت واحد ، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى ديبب الثملة السوداء على الصخراء الصماء في الليلة الظلماء . ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل ، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية يحرس حركاتها وسكناتها ويتقن أنها بمرأى منه - سبحانه - ومشاهدة لا يغيب عنه شيء .

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس ، وأنه - تعالى - هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه ، وأنه بكمال قيومته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو شهادة أن لا إله إلا هو ، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال .

فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلي له ويسجد ، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله فهو المطاع وحده على الحقيقة ، والمألوه وحده وله الحكم وحده . فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال . وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها ، وكل غنى لغيره فقر وفاقة ، وكل عز لغيره ذل وصغار ، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله - جل جلاله - فإن هذا الاسم هو الجامع ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه ، فيقال : الرحمن ، الرحيم ، العزيز ، الغفار ، من أسماء الله ، قال تعالى :

﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾^(١) ، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها ، وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته ، فمن اتسع قلبه لمشهد الألوهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق ، وصار من أغنى العباد .

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب - سبحانه - : الفوز بوجوده ، هذا الغنى أعلى درجات الغنى ، لأن الغنى الأول والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجه إليه ، ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة ، واستغنى القلب بذلك ، وجعل له أيضاً أنوار الشعور بكفالاته وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضاً . وأما هذا الغنى الثالث الذي هو الغنى بالحق - فهو من آثار وجود الحقيقة ، وهو إنما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات ، وإنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عهدما يطلع فجر التوحيد ، فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسبه فينقطع ضباب الوجود الفاني وتشرق شمس الوجود الباقي فينقطع لها كل ضباب ، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور على عظمة الذات كما كشف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات

صفات الذات :

فإذا كل أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يغني القلب والنفس ، فما ظنك بما تكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام ، فهذا غنى لا يناله الوصف ولا يدخل تحت الشرح فيستغنى العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم ، فياله من فقر ينقضي ومن غنى يدوم ومن عيش ألد من المنى ، فلا تستعجز نفسك عن البلوغ إلى هذا المقام فينبك وبينه صدق الطلب ، وإنما هي عزمة صادقة ونهضة حر من لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون .

وقد جاء في أثر إلهي يقول الله - عز وجل - :

﴿ ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء ﴾ فمن طلب الله بصدق وجده ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء ، فأصبح حراً في غنى ومهابة على وجهه أنواره وضيأؤه .

وإن فاته مولاه - جل جلاله - تباعد ما يرجو وطال عناؤه ، ومن وصل إلى هذا الغنى قرت به كل عين لأنه قد قرت عينه بالله والفوز بوجوده ، ومن لم يصل إليه انقطعت نفسه عن الدنيا حسرات وقد قال - ﷺ - : (من أصبح والدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشئت عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع)^(١) ، فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي ، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله - سبحانه - أكبر همه ، فهذا من باب التنبيه والأولى - انتهى .

المسئولية الفردية

قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تركي فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ .

هذا حكم قضى به الله - سبحانه وتعالى - وفيه يتجلى منطق العدالة الإلهية فليس هناك نفس تحمل وزر نفس أخرى ، بل من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

(١) انظر اتحاف المتقين ج ٦ ص ٣٩٠ وانظر ج ١٠ ص ٨ فقد وردت فيهما عدة روايات لهذا المعنى عن أنس وابن عباس وعبد الله بن عمرو وزيد بن ثابت وأقربها إلى الحديث الذي معنا ما رواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس ، وما جاء في الترمذي أيضاً

غنى النفس :

قوله في غنى النفس : (إنه استقامتها على المرغوب وسلامتها من الحظوظ ، وبراءتها من المراءاة) يريد استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه ، وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويبغضها وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيماً لله - سبحانه - وأمره وإيماناً به واحتساباً لثوابه ، وخشية من عقابه . لا طلباً لتعظيم المخلوقين له ومدحهم ، وهرباً من ذمهم ، وطلب للجاه والمنزلة عندهم فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد عنه وأنه أفقر شيء إلى المخلوق . فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها . لأنها إذا أذعنت منقاداً لأمر الله طوعاً واختياراً ومحبة وإيماناً واحتساباً ، بحيث تصير لذاتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي - ﷺ - يقول : (يا بلال أرحنا بالصلاة)^(١) ، وقال : (حب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة)^(٢) ، فقرة العين فوق المحبة : فجعل النساء والطيب مما يحبه . وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه ، فكيف لا تكون قرة العين ، وكيف تقر عين المحب بسواها . فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأني فقر يخشى معه ، وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه ؟ .

فيما يغنى القلب ويسد الفاقة

وهذه الاستقامة : ترقىها إلى الدرجة الثالثة من الغنى ، وهو الغنى بالحق - تبارك وتعالى - عن كل ما سواه ، وهي أعلى درجات الغنى . فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله - عز وجل - إياك قبل ذكرك له ، وأنه - تعالى - ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك ، فقد رزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً البتة وذكرك - تعالى - بالإسلام فوقك له واختارك له دون من خذله ، قال تعالى : ﴿ هو سميعٌ عليمٌ من قبل ﴾^(٣) فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط . وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره ، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاه لم يكن إليه سبيل ، ومن الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوم ؟ ومن لذي ذكرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها ، وأوقعها في قلبك ، وبعث دواعيك وأحصى عزماتك الصادقة عليها ، حتى تبت إليه وأقبلت عليه ، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها ؟ .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٦٤ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٨ ، فقد ورد الحديث بروايتين عن أنس بلفظ : « حب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة » .

(٣) سورة الحج من الآية : ٧٨ .

الحكم بن إبان عن عكرمة . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهي الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ﴾ أي : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ . إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبْرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله - تعالى - لذوي البصائر المؤمنين كما ضربه للذين في قلوبهم أكنة وعلى أبصارهم غشاوة من الكافرين . كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) وكما في قوله - جل شأنه - : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وكما في قوله جل شأنه :

﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زِينٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

فالمؤمن هو البصير الحي ، والكافر هو الأعمى الميت وبين هؤلاء وأولئك بون شاسع لا يستويان ولا يجتمعان .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَسْمَعُ مِنْ يَشَاءُ ﴾ أي : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتبت عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين . ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله - تعالى -

(١) سورة هود الآية : ٢٤ .

(٢) سورة غافر الآية : ٥٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

إليهم النذر وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾^(١) .
 وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾^(٢) الآية والآيات في هذا كثيرة .
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهى المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات .
 ﴿ وَبِالزَّبْرِ ﴾ وهى الكتب .
 ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى : الواضح البين .
 ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أى : بالعقاب والنكال .
 ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيماً شديداً بليغاً .. والله أعلم .

من دلائل التوحيد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

معاني المفردات

﴿ جدد ﴾ : جمع جدة وهى الطرائق المختلفة الألوان .
 ﴿ وغرابيب سود ﴾ : أصل اللفظ وسود غرابيب ، والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه كلون الغراب أسود غريب .
 ﴿ لن تبور ﴾ : لن تغنى ولن تضيع .

(١) سورة الرعد من الآية : ٧ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٣٦ .

المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التي أعرض عنها المشركون عناداً واستكباراً ، أردف ذلك ذكر ما يروونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان ، لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور .

إن اختلاف المخلوق دليل على إجادة الخالق ، إذ أن ما الطبيعة لا يختلف ولا يتخلف فلو كانت الحياة التي نعيشها على ظهر هذا الكوكب صدرت عما يسمى بالطبيعة كما يدعى الذين في قلوبهم مرض الالحاد لكانت وجهاً واحداً لا يختلف عن غيره ولكن لما كان هذا الكون قد صدر عن إله عليم مريد قادر فقد اختلف في أشكاله وألوانه وأنواعه ، قال تعالى :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾^(١) .

وقال عز من قائل : ﴿ وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾^(٢) .

وقال جل جلاله : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾^(٣) .

فانظر إلى الرياض والحدائق والحقول كيف تنوعت أنواع الأزهار وروائحها واسأل نفسك من الذي وزع هذه الألوان عليها ، ثم انظر إلى الحدائق وما اشتملت عليه من أشجار الفواكه ، من الذي

(١) سورة الروم الآية : ٢٢ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٢ .

(٣) سورة الرعد الآية : ٤ .

سقاها ذلك السكر السائل ، وانظر إلى الحقول وما اشتملت عليه من الحبوب من الذي منحها خصائصها ومن الذي جعل النبات الحريف بجانب الفاكهة الحلوة بحيث لا يبغي هذا على ذاك ، ثم تأمل بعد ذلك عظمة الخالق في قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾^(١) نعم اختلفت ألوانها وطعومها وروائحها مع أن الأرض واحدة والماء واحد والهواء واحد إنها الحجة الدامغة والبرهان الساطع على علم الخالق وإرادته وقدرته ، وكما وقع الاختلاف في الثمرات كذلك وقع في عالم الجبال ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ أي : خلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمرة ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً .

ومنها غرابيب سود . قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وكذلك وقع الاختلاف في الانسان والحيوان ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد ، وصقالية وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاختِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين . ولهذا قال بعد هذا ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير .

وروى أيضاً عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً ، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن حبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله - عز وجل - . وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية .

وقال الإمام مالك : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد ابن صالح المصري معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية وأما العلم الذي فرض الله - عز وجل - أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم من أئمة المسلمين - فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : (نور) يريد به منهم العلم ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثوري عن أبي حيان عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ، عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله - تعالى - ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض ، والعالم بأمر الله وليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله - عز وجل - .

وكفى العلماء فخراً وشرفاً أنهم شهدوا لله بالوحدانية فسلكهم الله في مصاف الملائكة قال سبحانه : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾^(١) .

كما وصفهم برقة القلوب وخشوع البصائر لله قال تعالى :

﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذ يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعاً ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ عزيز لا يغلب بل ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾^(٣) .

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله .. ﴾^(٤) . ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ﴾^(٥) .

﴿ غفور ﴾ عظيم المغفرة فهو غافر الذنب لمن يتوب ، قابل التوب لمن يؤوب ، شديد العقاب إذا اسودت القلوب . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٠٧ والآيتان : ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٦١ .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٨٨ وجزء الآية : ٨٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢ وجزء الآية : ١٣ .

كلمة عن العلم والعلماء ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

فضيلة العلم :

شواهدا من القرآن قوله - عز وجل - : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾^(١) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثالث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً . وقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾^(٢) قال ابن عباس - رضي الله عنهما - للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام .

وقال عز وجل : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾^(٤) .

وقال عز وجل : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾^(٥) ، بين سبحانه أن أعظم قدر الآخرة يعلم بالعلم .

وقال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾^(٦) .

وقال تعالى : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾^(٧) . رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله سبحانه .

وقال تعالى في معرض الامتنان : ﴿ خلق الإنسان . علمه البيان ﴾^(٨) .

وأما الأخبار عن رسول الله - ﷺ - فقد قال :

(١) سورة آل عمران آية : ١٨ .

(٢) سورة المجادلة من الآية : ١١ .

(٣) سورة الزمر من الآية : ٩ .

(٤) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .

(٦) سورة العنكبوت من الآية : ٤٣ .

(٧) سورة النساء من الآية : ٨٣ .

(٨) سورة الرحمن الآيتان : ٣ - ٤ .

(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)^(١) ، وقال - ﷺ - (العلماء ورثة الأنبياء)^(٢) ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال - ﷺ - : (يستغفر للعالم ما في السموات والأرض)^(٣) ، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل الملائكة بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .
وقال - ﷺ - : (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي)^(٤) (الترمذي وقال حسن صحيح) . فانظر كيف جعل العالم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة .
وروى عنه - ﷺ - أنه قال : (يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)^(٥) .
وأما الآثار فقد قال علي بن أبي طالب لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق .
وقال علي أيضاً : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف عنه .

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
فقر بعلم تعيش حياً به أبداً
على الهدى لمن استهدى أدلاء
والجاهلون لأهل العلم أعداء
الناس موتى وأهل العلم أحياء

وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قيل : فمن

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « من يرد الله به خير يفقهه في الدين » فقد ورد الحديث بلفظه عن يونس عن ابن شهاب ج ١ ص ٢٧ وانظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر ج ٢ ص ٢٣٤ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

وانظر سنن الترمذي « أبواب العلم » باب « إذا أراد الله بعد خيراً فقهه في الدين ج ٤ ص ١٣٧ حديث رقم ٢٧٨٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر مجمع الزوائد كتاب العلم « باب العلم بالتعلم » ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب فضل الفقه على العبادة من ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

وانظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب في فضل العلماء ومجالستهم .. ج ١ ص ١٢٦ فقد ورد الحديث .

(٣) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لأبي الدرداء .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٠٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد الحديث عن أبي أمامة غير أنه جاء بلفظ « أدناكم » بدلاً من « أدنى رجل من أصحابي » .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب « ذكر الشفاعة » ج ٢ ص ١٤٤٣ حديث رقم ٤٣١٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عثمان بن عفان .

السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ولم يجعل ابن المبارك غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم .

فضيلة العلم

أما الآيات في ذلك :

قال تعالى : ﴿ فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾^(١) .

وقال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾^(٢) .

وأما الأخبار فقوله - ﷺ - : (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة)^(٣) . (البخاري) .

وقال - ﷺ - : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)^(٤) . (أخرجه الترمذي) .

وقال - ﷺ - : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)^(٥) .

وأما الآثار : فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ذلت طالباً فعززت مطلوباً . وقال الحسن البصري : (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها) (ابن عبد البر) .

وقال ابن المبارك : (عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة) وقال أبو الدرداء : (لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة ، وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير منهم ، وقال أيضاً كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك .

(١) سورة التوبة آية : ١٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « العلم قبل القول والعمل » .

وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » حديث ص ٢٨٢٣ ج ٤ ص ١٥٣ ، فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي الدرداء وفيه لفظة « يتغني » بدلاً من « يطلب » وانظر : ج ١٣٧ باب « فضل طلب العلم » فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب « في طلب العلم » ج ١ ص ١٢٠ فقد ورد الحديث عن روايات لأبي سعيد الخدري ، وفيه يحيى بن هشام السمسار كذاب ، ولابن عباس وفيه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد ضعيف جداً ، وللحسين بن علي وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت ضعيف جداً .

وقال عمر : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي : (العلم أفضل من النافلة) .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله تعالى : ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾^(١) والمراد هو التعليم والإرشاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِيُبَيِّنُوا لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾^(٢) وهو إيجاب للتعليم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٣) وهو تحريم لكتان العلم .

كما قال تعالى في الشهادة : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾^(٤)

وأما الأخبار فقوله - ﷺ - : لعلي بن أبي طالب :

(لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)^(٥) (الصحيحين) .

وقال - ﷺ - : (إن الله - عز وجل - لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيهم إياه

ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالاً إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون . (متفق عليه)^(٦) .

وقال - ﷺ - : (من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)^(٧) (أبو داود)

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٤٦ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب « دعاء النبي إلى الإسلام » ج ٤ ص ٥٨ عن رواية لسهل بن سعد - رضي الله عنه - من حديث طويل .

(٦) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « كيف يقبض العلم » ج ١ ص ٣٦ فقد ورد الحديث برواية عبد الله بن عمرو ابن العاص مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في ذهاب العلم » فقد ورد الحديث برقم ٢٧٩٠ ج ٤ ص ١٣٩ برواية لعبد الله بن عمرو بن العاص مع اختلاف في بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب العلم » باب « رفع العلم وقبضه » ج ٤ ص ٢٠٢٨ ، فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله ابن عمرو بن العاص : ٢٦٧٣/١٣ .

(٧) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في كتمان العلم » ج ٤ ص ١٣٨ حديث رقم ٢٧٨٧ برواية عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه .

وقال - ﷺ - : (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً^(١)) (الترمذي) .

وقال - ﷺ - : (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير)^(٢) (الترمذي وقال حسن صحيح) .

وقال - ﷺ - : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به ..)^(٣) (مسلم) .

وقال - ﷺ - : (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير)^(٤) (متفق عليه) .

وقال - ﷺ - : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)^(٥) (مسلم) .

وأما الآثار : قال ابن عباس : (معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر) ، وقال بعض العلماء :

العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فليُنظر كيف يدخل .

وقال الحسن البصري : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة إلى حد الإنسانية .

وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وما هو ؟ قال :

أن تضعه فيمن يحسن عمله ولا يضيعه .

وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم قيل : وكيف

ذلك قال : لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب الزهد » باب « ما جاء في هوان الدنيا على الله » ، ج ٣ ص ٣٨٤ حديث رقم ٢٤٢٤ من رواية لأبي هريرة ، وقال هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد هذا الحديث عن أبي أمامة الباهلي . ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » ج ٣ ص ١٢٥٥ ، فقد ورد الحديث ١٦٣١/١٤ من رواية لأبي هريرة بلفظ « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٧٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة برواية مسلم .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « الاغتباط في العلم والحكمة » ج ١ ص ٢٨ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود .

وانظر صحيح مسلم كتاب « صلاة المسافرين » ج ١ ص ٥٥٩ ، فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود حديث ٨١٦/٢٦٨ .

(٥) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « إن الدال على الخير كفاعله » ج ٤ ص ١٤٨ حديث ٢٨١٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه برواية عن أبي مسعود البصري (عقبه بن عمرو) .

وقيل : أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم نشره .
 وقال معاذ : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلقتهم وبأجنحتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيطان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها) .

لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الإبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله - عز وجل - وبه يعبد ، وبه يوعد ، وبه يوحد ، وبه يمجّد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله حسن التوفيق .

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :
 الوظيفة الأولى :

تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذا العلم عبادة القلب ، وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله - تعالى - وكما قال لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن ، وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن جنائب الأخلاق وأنجاس الأوصاف .

والقلب بيت هو منزل الملائكة ، ومهبط أثرهم ، ومحل استقرارهم ، والصفات الرديئة مثل : الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب وأخواتها كلاب ناجحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور العلم لا يقذفه الله - تعالى - في القلب إلا بواسطة الملائكة . وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار .

فإن قلت : كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم ؟ فبهيات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة ، الجالب للسعادة ، فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة ، وهل رأيت من يتناول سمّاً مع علمه بكونه سمّاً قاتلاً ، إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . فإنما العلم الخشية .

الوظيفة الثانية :

أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة .

الوظيفة الثالثة :

ألا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفضيل ، ويدعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبي : (صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنها يا ابن عم رسول الله - ﷺ - فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا - ﷺ -) الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم (١) .

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبر على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين حماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب إلا مشهور أو خامل ، وضرواة سباع النار بالجهال - بالله - تعالى - أشد من ضرواة كل سبع ، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان .

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٢) .

الوظيفة الرابعة :

أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء ما كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه .

الوظيفة الخامسة :

ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال بالانفكاك عن عداوة وذلك

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم « کتاب معرفة الصحابة » ذکر مناقب زيد بن ثابت ج ٣ ص ٤٢٣ فقد ورد الحديث

عن ابن عباس ، وقال : صحيح الاسناد على شرط مسلم .

(٢) سورة ق الآية : ٣٧ .

العلم بسبب جهله ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى : ﴿ وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾^(١) .

وقال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله - تعالى - أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله - تعالى - .

الوظيفة السادسة :

ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ، ويبتدىء بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة .

الوظيفة السابعة :

ألا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج .

الوظيفة الثامنة :

أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما : شرف الثمرة ، والثاني : وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخرة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف ، ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة الدليل وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظته الثمرة الأولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين .

وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله - عز وجل - وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة :

أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله - سبحانه - وتعالى - والترقي إلى جوار الملأ الأعلى ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وممارسة السفهاء ومباهاة الأقران .

الوظيفة العاشرة :

أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهمل ولا يهتمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة ، وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان ، فالأهم ما يبقى أبد الآباد ، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً ، والبدن مركباً ، والأعمال سعيّاً إلى المقصد ، ولا مقصد إلا لقاء الله - تعالى - ففيه النعيم كله .

بيان وظائف المرشد المعلم

الوظيفة الأولى :

الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله - ﷺ - : (إنما أن لكم مثل الوالد لولده)^(١) (أبو داود والنسائي) بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من انقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب .

فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه . ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التراحم ، والعاذلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾^(٢) وداخلون في قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾^(٣) .

الوظيفة الثانية :

أن يقتدي بصاحب الشرع - صلوات الله عليه وسلامه - فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله - تعالى - وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم ، لأن التقرب إلى الله

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الطهارة » باب « كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة » ج ١ ص ١٨ حديث رقم ٨ عن

أبي هريرة بلفظ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم .. الخ » .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٠ .

(٣) سورة الزخرف الآية : ٦٧ .

- تعالى - بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فممنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله ، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل : ﴿ وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (١).

الوظيفة الثالثة :

ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله - تعالى - دون الرياسة والمباهاة والمنافسة . وقد رؤي سفيان الثوري - رحمه الله - حزينا فقليل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً .

الوظيفة الرابعة :

وهي من دقائق صناعة التعليم : أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، وينبهك على هذا قصة آدم وحواء - عليهما السلام - وما نها عنه فما ذكرت القصة لتكون سماً ، بل لتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد مزج التفتن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الوظيفة الخامسة :

أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ؛ كمعلم اللغة إذ عاداته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عاداته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وإن ذلك مجرد سماع ونقل وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه .. فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب ، بل المتكفل يعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعي التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الوظيفة السادسة :

أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء في ذلك بسيد العلماء وإمام الأتقياء بسيد البشر - ﷺ - حيث يقول : (نحن معاشر الأنبياء

أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم^(١) (أبو داود) وروى أنه قال - ﷺ - :
(ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم)^(٢) .

الوظيفة السابعة :

إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن الله - سبحانه - في كمال عقله ، وأشدّهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددتها ويملاً قلوبهم من الرغبة والرغبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن الكريم ولا يحرك عليهم شبهة ، فإنه ربما تعلق الشبهة بقلبه ويعسر عليها جلها فيشقى ويهلك ، وبالجمله لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الوظيفة الثامنة :

أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سهم مهلك سخر الناس به واهتموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش على الطين ، والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ، ولذلك قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الأدب » باب « في تنزيل الناس منازلهم » ج ٥ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظ « أنزلوا الناس

منازلهم .. وهو من رواية يحيى بن العيمان ، قال أبو داود : حديث يحيى مختصر .

وانظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٢ فقد ورد الحديث بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن

ننزل الناس منازلهم ، ونكلم الناس على قدر عقولهم » .

قال العراقي : حديث أبي داود ، وحديث الاتحاف هما حديثان مستقلان وليسا حديثاً واحداً .. الخ (انظر الاتحاف ج ١

ص ٣٤٢) .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(١) ولذلك كل وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزله عالم كثير ويتقدون به ، ومن سن سنة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علي - رضي الله عنه - قصم ظهري رجلان :
عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه ، والله أعلم .

علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة ، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وقصدي بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعيم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها .

قال - ﷺ - : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه)^(٢) .
وعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء وتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار)^(٣) . (ابن ماجه بإسناد صحيح) .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر - بإسناد جيد - عن النبي - ﷺ - قال : (لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فليل وما ذلك ؟ فقال من الأئمة المضلين)^(٤) .
وفي الحديث المتفق عليه عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله - ﷺ - : (يؤتي بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت أمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية)^(٥) .

(١) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » الباب السادس في آفات العلم : ج ١ ص ٣٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن رواية لأبي هريرة .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ حديث رقم ٢٥٤ فقد ورد الحديث عن جابر مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر الحديث ٢٥٩ (المرجع نفسه) فقد ورد الحديث من رواية لحذيفة وهو أقرب للحديث الذي معنا حيث الاختلاف يسير .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٤٥ فقد ورد الحديث من روايتين عن أبي تميم الحبشي لأبي ذر أقي مع اختلاف يسير في الألفاظ .

وانظر اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٣٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والدقائق » باب « عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ حديث رقم ٢٩٨٩/٥١ ، فقد ورد الحديث عن أسامة بن زيد مع اختلاف في بعض الألفاظ .

وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله - عز وجل - : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(١) لأنهم مجدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا الله - سبحانه - ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٢) : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣) .

وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤) .

فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله - تعالى - فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أي : سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث بالشهوات . قال عيسى بن مريم : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع .

والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أحسن حالاً ، وأشد عذاباً من الجاهل ، وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة الذين قال الله فيهم : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٥) . ولهم علامات ومن علاماتهم :

ألا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العلم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكذورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها ، وصفاء نعيمها ، وجلالة ملكها ، ويعلم أنهما متضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفف الأخرى .

قال عمر - رضي الله عنه - إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب .

وقال مالك بن دينار : قرأت في الكتب السالفة أن الله - تعالى - يقول : إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه .

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٥ .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٩ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ - ١٧٦ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم .

وكان يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله - يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم ، قصوركم قصيرة ، وبيوتكم كسروية ، وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال - عز وجل - في علماء الدنيا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾^(١) .

وقال تعالى في علماء الآخرة : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾^(٣) .

وقال تعالى في قصة قارون : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾^(٤) . فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا .

ومن علامات علماء الآخرة

ألا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشئ مالم يكن هو أول عامل به قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾^(٥) .

وقال تعالى : ﴿ كِبَرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٦) .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٧ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩ .

(٣) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٤) سورة القصص الآيتان : ٧٩ - ٨٠ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٦) سورة الصف آية : ٣ .

وقال تعالى في قصة شعيب : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله .. ﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾^(٢) . ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾^(٣).

وقال رسول الله - ﷺ - : (مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم : فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ونهى عن الشر ونأتيه)^(٤) (أخرجه ابن حبان عن أنس) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عباد الأوثان .

وقال حاتم الأصم - رحمه الله - : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً	إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تفصحهم بالوعظ مجتهداً	فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها	وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فمن علامات علماء الآخرة أنهم يقولون ما يفعلون .

ومن علامتهم : أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقييل والقال .

ومن علاقتهم : أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقييح فعلهم فالداخل عليهم إما أن

(١) سورة هود من الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٢ .

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٨ .

(٤) انظر صحيح ابن حبان « كتاب الإبراء » باب « ذكر وصف الخطباء .. الخ » ج ١ ص ١٣٥ حديث رقم ٣٥ من رواية أنس بن مالك بلفظ « رأيت ليلة أسرى بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمتك ، يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون . » وانظر ص ٣٦٩ من المرجع نفسه فقد ورد الحديث بلفظه .

يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه ، أو يسبكت عن الإنكار عليهم فيكون مدهاناً لهم ، أو بتكلف في كلامه كلاماً لمرضايتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح ، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : (إنه أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرأون القرآن ويقولون : نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قريبهم إلا الخطايا)^(١) (رواه ابن ماجه ورجاله ثقات) .

وقال سعيد ابن المسيب - رحمه الله - : إذا رأيت العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة ، لا تغشى أبواب السلاطين ، فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين وكان يقال العلماء إذا علموا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا طلبوا فإذا طلبوا هربوا .

فعلماء الآخرة لا يدخلون على السلاطين ولا يخالطوهم

ومن علاماتهم : ألا يكون سارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحتزراً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلي أفتى ، وإن سئل عما لا يشك فيه قال لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾^(٢) .

ولما سئل رسول الله - ﷺ - عن خير البقاع في الأرض وشرها : قال : (لا أدري حتى ينزل عليه جبريل - عليه السلام - فسأله فقال : (لا أدري إلى أن أعلمه الله - عز وجل -) (إن خير

(١) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ حديث رقم ٢٥٥ عن رواية لابن عباس فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الإسراء آية : ٣٦ .

البقاع المساجد وشرها الأسواق^(١) (أخرجه أحمد والبخاري وصححه من حديث ابن عمر) .
 وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن
 تسع ، وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان في الفقهاء
 من يقول : لا أدري أكثر ممن يقول أدري ، منهم : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن
 حنبل ، والفضل بن عياض . وقد كان ابن عيينه يقول : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف
 العلماء ، وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - إذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد ، وكان ابن عمر
 - رضي الله عنهما - يقول : سلوا سعيد بن المسيب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ، ومعرفة
 طريق الآخرة ، وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة ، فإن المجاهدة تفضي
 إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، فإن اليقين هو رأس مال
 الدين ، عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله - ﷺ - : (اليقين الإيمان كله)^(٢) (البيهقي بإسناد حسن) .

وقد قال - سبحانه وتعالى - عن أئمة الدين : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا
 وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾^(٣) فوصف علماء الآخرة وأئمة الدين بالصبر واليقين .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته
 وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله
 - تعالى - وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في
 السكينة والذلة والتواضع وقد قيل : ما لبس الله عبداً لبسه أحسن من خشوع في سكينة ، فهي لبسة
 الأنبياء وسيم الصالحين والصديقين والعلماء ، وأما التهافت في الكلام والتشديق والاستغراق في
 الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله
 - تعالى - وشديد سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العناء
 ثلاثة : كما قال سهل التستري - رحمه الله - : عالم بأمر الله - تعالى - لا بأيام الله وهم المفتون في
 الحلال والحرام ، وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله - تعالى - لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم « کتاب العلم » باب « خیر البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق » ج ١ ص ٩٠ فقد
 ورد عن ابن عمر الحديث بلفظه .

(٢) انظر حلیة الأولیاء وطبقات الأصفیاء للأصفهانی ج ٥ ص ٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٧٣ .

عموم المؤمنين ، وعالم بالله - تعالى - وبأمر الله تعالى وبأيام الله - تعالى - ، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم .

وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة ، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه ، وقال عمر - رضي الله عنه - تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم .

وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة .

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - :

لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها ، وأوامرها وزواجرها ، وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجلاً يؤتي أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمة لا يدري ما أمره وما زاجره ، وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل .

وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله - عز وجل - : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد .

فأما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾^(٢) .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ وَاخْفُضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) ، وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ﴾^(٤) ، وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾^(٥) .

ولما تلا رسول الله - ﷺ - قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

(١) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩٩ .

(٣) سورة الحجر من الآية : ٨٨ .

(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .

(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .

فقيل له : ما هذا الشرح ؟ فقال : (إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال - ﷺ - نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله)^(١) (أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن سعود) .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسرها . ويشوش القلوب ويبيج الوسواس ويشير الشر ، فإن أصل الدين التوقي من الشر .
ولأن الأعمال الفعلية قريبة ، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله - تعالى - بالقلب واللسان ، وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب ميسيس الحاجة إليه ، وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة .

وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفرجات في الحكومات والأقضية ، ويتبعون في وضع صور تنقض الدهور ولا تقع أبداً وإن وقعت لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلزمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع منهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إثارةً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله - سبحانه - ، وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق وجزاؤه من الله ألا يتتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقرين . وذلك هو الخسران الممين ، ولقد كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأقربهم هدياً من الصحابة - رضي الله عنهم - اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ، والصفات الخفية الغامضة في شهوات النفس ، وقد قيل : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان ، وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله - ﷺ - كانوا يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ، وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وكان حذيفة - رضي الله عنه - أيضاً قد خص بعلم المناقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة - رضي الله عنهم - يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يسأل عن المناقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر - رضي الله عنه - إذا دعى إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر ، فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة ؛ لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله - تعالى - .

(١) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ص ٤٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد .
وعلى الجملة ، فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق ، فإن الحق مر ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر ، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ، فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسي الشدائد ليكون فطرة عند الموت .

ومن علامات الآخرة : أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة - رضي الله عنهم - وليكن حريصاً على التفطيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم ، أكان في التدريس والتصنيف ، والمناظرة ، والقضاء ، والولاية ، وتولى الأوقاف ، والوصايا ، وأكل مال الأيتام ، ومخالفة السلاطين ، ومجاملتهم في العشرة ، أم كان في الخوف والحزن والتفكير والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الأثم وجليله ، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن .

وأعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة ، وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . وفي الحديث المشهور (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد)^(١) (متفق عليه) . وقال ابن عباس : الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها قال تعالى : ﴿ وذُرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَاً ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾^(٣) فكل ما أحدث بعد الصحابة - رضي الله عنهم - مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو .

فهذه علامات علماء الآخرة : ألا يطلب الدنيا بعلمه ، وألا يخالف فعله قوله ، وأن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع ، وأن يتعد عن مخالطة السلاطين والأمراء ، وألا يكون مسارعاً إلى الفتيا ، وأن يكون اهتمامه بمراقبة القلب ، وأن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، وأن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ، وأن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور . فهذه علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة فيها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين : إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به ، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الأفضية » باب « نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور » ج ٣ ص ١٣٤٣ حديث رقم ١٧١٨/١٧ من رواية عن عائشة غير أنه ورد بلفظ « في أمرنا » بدلاً من « في ديننا » .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٧٠ .

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨ .

بدلت آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين ، فنسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ، ولا يغره بالله الغرور .

(مختصر من كتاب إحياء علوم الدين ، باب العلم ، للإمام الغزالي) .

تجارة لن تبور

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ .

هذه سوق من أسواق الآخرة إنها تجارة لن تبور ، لأنها مع الله ومثلها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾^(١) .

ومثل هذه التجارة أيضاً قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾^(٢) .

وهناك أسواق خاسرة نعوذ بالله منها قال الله - تعالى - في شأنها :
﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾^(٣) وقال :
﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾^(٤) .
وقال : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾^(٥) .

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣ .

(٢) سورة التوبة الآيات : ١١١ - ١١٢ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٨٦ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٧٥ .

ما أعظم التجارة إذا كانت مع الله ، وما أعظم مصيرها وشأنها لأن ذلك المصير هو الخلود في الجنة ، والتجارة مع الله من وجوه كثيرة .

منها : تلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق سراً وعلناً ، إلى غير ذلك من وجوه لا تحصى ومقامات لا تستقصى ، فمن عاش فيها سلك مدارج الأنوار ، ووقف على حقائق الأسرار ، وعاش في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن هذه تجارة ضمن الله لها الربح وعدم البوار قال تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي : ثوابهم في الآخرة ويزيدهم فوق الثواب من فضله ، فهو صاحب النعم والآلاء ، فقد كانوا في الدنيا رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، حافظوا على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فجزاهم الله أحسن ما عملوا وزادهم من فضله ﴿ إنه غفور شكور ﴾ غفور واسع المغفرة يستر العيوب ويفرج الكروب ﴿ شكور ﴾ عظيم الشكر يعطي الجزيل ويهب الكثير ويمجر القلب الكسير ، ويغفر الزلات ، ويقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضي له الحاجات .

قال قتادة : كان مطرف - رحمه الله - إذا قرأ هذه الآية يقول :
هذه آية القراء .

في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

فضيلة القرآن :

قال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾^(١) ، وقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾^(٢) .

وفي الصحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله - ﷺ - :
(أقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شافعاً لصاحبه)^(٣) .

(١) سورة المزمل من الآية : ٤ .

(٢) سورة ص من الآية : ٢٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « فضل قراءة القرآن وسورة البقرة فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبي أمامة يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شافعاً لأصحابه ، أقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران .. الخ .

وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله - ﷺ - : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(١) (البخاري) .

وعن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : (أهل القرآن أهل الله وخاصته)^(٢) (أخرجه الحاكم) .

وأما الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : أقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن .

وقال ابن مسعود : أقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول : الم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف .

وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم . وقال أيضاً : من قرأ القرآن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقال أبو هريرة : « إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه القرآن ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين .

وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له أحد حاجة إلا إلى الخلفاء ممن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه .

وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال الحسن : والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة .

(في ذم تلاوة الغافلين)

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه ، وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر . وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس ينامون ، وبهاره إذا

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ج ٦ ص ٢٣٦ فقد ورد الحديث من رواية لعثمان - رضي الله عنه - فقد ورد بلفظه .

(٢) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٦ ، فقد ورد الحديث عن أنس بلفظ : قال : قال رسول الله - ﷺ - : إن الله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يا رسول الله ، قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته « وقال قد روى هذا الحديث عن أنس من ثلاثة أوجه هذا أمثلها .

الناس يفرطون ، وبخزونه إذا الناس يفرحون ، ويبكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يجتالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً .

وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول : ألا لعنة الله على الظالمين ، وهو ظالم لنفسه ، ألا لعنة الله على الكاذبين ، وهو منهم .

آداب الصلاة :

آداب ظاهرة وهي عشرة :

الأول : في حال القاريء : وهو أن يكون على الوضوء ، واقفاً على هيئة الأدب والسكون ، إما قائماً وإما جالساً ، مستقبل القبلة مطرقاً رأسه ، غير متربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر ، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه .

وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال ، فإن قرأ على غير وضوء وكان مضجعاً في الفراش فله أيضاً ولكنه دون ذلك في الأجر . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضجعاً .

الثاني : في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار : فمنهم من يختم القرآن في اليوم واللييلة مرة ، وبعضهم مرتين ، ومنهم من يختم في الشهر مرة ، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول الرسول - ﷺ - : (من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه)^(٢) (أصحاب السنن) .

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت ، وأمر النبي - ﷺ - عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (أن يختم القرآن في كل سبع)^(٣) (متفق عليه) .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٩١ .

(٢) انظر سنن الترمذي « أبواب القراءات » ج ٤ ص ٢٢٦ حديث رقم ٤٠١٦ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ : « لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » بتقديم لفظه « لم يفقه » .
وانظر الحديث ٤٠٢٠ نفس المرجع ص ٢٦٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « في كم يقرأ القرآن » ج ٦ ص ٢٤٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وكذلك كان جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - يختمون القرآن في كل جمعة كعثمان ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - .

الثالث : في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة - رضي الله عنهم - القرآن أحزاباً . فروى أن عثمان بن عفان كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن الرحيم ويختم ليلة الخميس .

الرابع : في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه .

الخامس : الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن ، فالمقصود من القراءة التفكر ، والترتيل معين عليه ، ولذلك نعتت أم سلمة - رضي الله عنها - .

قراءة رسول الله - ﷺ - فإذا هي نعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً^(١) (الترمذي حسن صحيح) .

وقال ابن عباس : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هزومة .

وأعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر ، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهزيمة والاستعجال .

السادس : البكاء : البكاء مستحب مع القراءة ، فعن سعد ابن أبي وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - : (اتلو القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا)^(٢) (إسناده جيد) وقال - ﷺ - : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)^(٣) (البخاري) .

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » ج ٤ ص ٢٥٤ باب « ما جاء كيف كانت قراءة النبي - ﷺ - » فقد ورد الحديث رقم ٣٠٩١ من رواية يعلى بن مملك : « أنه سأل أم سلمة زوج النبي - ﷺ - عن قراءة النبي - ﷺ - وصلاته .. الخ » وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن أبي مكيلة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذري باب الترغيب في تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ج ٢ ص ٦١٠ ، ٦١١ فقد ورد الحديث عن سعد بن أبي وقاص بلفظ « إن هذا القرآن نزل يحزن فإذا قرأتموه فإن لم تبكوا فتابكوا وتغنوا به فمن ليتغن بالقرآن فليس منا » .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به » ج ٩ ص ١٨٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .. وزاد غيره ويجهر به .

ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليك على فقد الحزن والبكاء ، فإن ذلك أعظم المصائب .

السابع : أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد ، ويشترط في سجود التلاوة شروط الصلاة في ستر العورة ، واستقبال القبلة ، وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث .

الثامن : أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(١) .

وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسييح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإذا مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخون استعاذ ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه ، فيقول : سبحان الله ، استغفر الله ، نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا ، اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله ﷺ - كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ، ولا بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية تنزيه إلا سبح^(٢) (مسلم) .

التاسع : في الجهر بالقراءة : ولا شك في أنه لا بد أن يجهر له إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته ، فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ، ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الأسرار ما روى أنه - ﷺ - قال : (فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية)^(٣) (أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه) .

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله - ﷺ - عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلي إن كنت تريد الله - عز وجل - بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغفوا

(١) سورة النحل الآية : ٩٨ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » ج ٤ ص ٩١ . فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « صليت مع رسول الله - ﷺ - فكان لا يمر بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » .

انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » باب ٢٠ ج ٤ ص ٢٥٢ حديث ٣٠٨٦ ، فقد ورد الحديث عن عقبة بن عامر بلفظ قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الجاهر بالقرآن كالجهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالسر بالصدقة » وقال : هذا حديث حسن غريب .

عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته ، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف ، وهو يومئذ أمير المدينة .

ويدل على استحباب الجهر ما روي في الصحيحين من حديث عائشة : أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله - ﷺ - (رحم الله فلاناً .. الحديث)^(١) .

فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه ، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته - أيضاً - تتعلق بغيره ، فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف إليه مسمعه ، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله . ولهذا نقول : قراءة القرآن في المصحف أفضل ، إذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه .

العاشر : تحسين القراءة وترتيبها : بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة .

قال - ﷺ - : (زينوا القرآن بأصواتكم)^(٢) (أبو داود) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن)^(٣) . متفق

عليه .

وقال : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)^(٤) .

وقال - ﷺ - : (من أراد أن يقرأ القرآن غصاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم

عبد)^(٥) أي عبد الله بن مسعود (أخرجه أحمد) .

(١) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » باب « في ظاهر آداب التلاوة » ج ٤ ص ٤٩٣ ، فقد ورد الحديث من رواية عن عائشة .

(٢) انظر المستدرک علی الصحيحین للحاکم کتاب « فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٧١ ، فقد ورد الحديث بلفظه من البراء بن عازب بعدة روايات .

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب « التوحيد » باب قول النبي - ﷺ - الماهر بالقرآن مع الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم » ج ٨ ص ١٩٣ ، فقد ورد الحديث عن رواية لأبي هريرة مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب « التوحيد » باب « قول الله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم .. الخ ﴾ » فقد ورد الحديث في ج ٨ ص ١٨٨ من رواية لأبي هريرة . وزاد غيره « ويجهر به » .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٤٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بلفظ « أحب » بدلاً من « أراد » ولم يرد فيه لفظ « طرياً » .

واستمع - ﷺ - إلى قراءة أبي موسى فقال : (لقد أوتي هذا من مزامير آل داود)^(١) فبلغ ذلك أبا موسى فقال :

(يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً) (متفق عليه) .

وقد كان عمر يقول لأبي موسى - رضي الله عنهما - : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال : يا أمير المؤمنين ، الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة .

في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة : فهم أصل الكلام ، ثم التعظيم ، ثم حضور القلب ، ثم التدبر ، ثم التفهم ، ثم التخلي عن موانع الفهم ، ثم التخصيص ، ثم التأثير ، ثم الترقى ، ثم التبرى .

فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله - سبحانه وتعالى - ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .

الثاني : التعظيم للمتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلام الله - عز وجل - غاية الخطر فإنه تعالى قال : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾^(٢) . وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محبوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ، ويقول : هو كلام ربي هو كلام ربي ، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم . ولن تحضره عظمة المتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليه والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نعمته وسطوته ، أن أنعم بفضله ، وإن عاقب فبعده ، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، وهذا غاية العظمة والتعالي فبالفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « حسن الصوت بالقراءة » ج ٦ ص ٢٤١ ، فقد ورد الحديث عن أبي موسى

بلفظ : عن أبي موسى أن النبي - ﷺ - قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود .

وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٦ حديث ٢٣٦ فقد ورد الحديث برواية لأبي موسى .

(٤) سورة الواقعة الآية : ٧٩ .

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس وقيل في تفسير قول الله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾^(١) أي : بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن معظم الكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره ، وهو متنزه ومتفرج ، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ، فقد قيل : إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير ورياضاً .
الرابع : التدبر . قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾^(٢) .

فالتدبر وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن عن نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القراءة التدبر ، ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن ، قال علي - رضي الله عنه - : لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها .

إذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام .

عن أبي ذر قال : (قام رسول الله - ﷺ - بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)^(٣) .

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾^(٤) .

الخامس : التفهم :

وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله - عز وجل - وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار . أما صفات الله - عز وجل - كقوله تعالى : ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .. ﴾^(٥) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموقنين .

(١) سورة مريم من الآية : ١٢ .

(٢) سورة ص الآية : ٢٩ .

(٣) مسند أحمد ١٤٩/٥ .

(٤) سورة الجاثية الآية : ٢١ .

(٥) سورة الحشر الآية : ٢٣ .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله - عز وجل - إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته فإذا قرأ : ﴿ أفرايتم ما تحرثون ﴾ . ﴿ أفرايتم ما تمثنون ﴾ . ﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون ﴾ . ﴿ أفرايتم النار التي تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل في المنى وهو نقطة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والكذب والمجادلة كما قال تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم .. ﴾ (٢) .

وأما أحوال الأنبياء فإذا منها أنهم كيف كذبوا وضربوا فليفهم منه صفة الاستغناء لله - عز وجل - فلو أنه أهلك جمعهم لم يؤثر في ملكه شيئا وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله - عز وجل - وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهم منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النعمة وتنفذ فيه القضية .

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

السادس : التخلّي عن موانع الفهم .

فإن أكثر الناس منعوا عن فهم لأسباب وحجب اسدها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب القرآن .

وحجب الفهم أربعة : أولها أن يكون الهم منصرف إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان . وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني القرآن فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف .

ثانيها : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) سورة يس الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .

الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصره ومشاهده فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه الشيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد شيوخك وآبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله .

ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه وهو كالخبث على المرأة فيمنع جليلة الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الاكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تحلى المعنى فيه ، فالقلب مثل المرأة والشهوة مثل الصداة ومعانى القرآن مثل الصور تتراءى فى المرأة ، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرأة .

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً وأعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل وحسب وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضا من الحجب العظيمة .

السابع : التخصيص .

وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن يعتبر به . ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾^(١) .

وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض .

وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى : ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾^(٢) .

الثامن : التأثير . وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا

(١) سورة يوسف الآية : ١١١

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط - ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ^(٢) . ذكر أربعة شروط حيث أقصر ذكر شرطاً خاصاً فقال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ^(٣) . فالاحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حالة الخشية والحزن ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكائه وقل ضحكته ، وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته .

ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود اقرأ على قال : فافتتحت بسورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ ^(٤) رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي : حسبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية .

التاسع : الترقى

وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله - عز وجل - لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله - عز وجل - واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتعلق والتضرع والابتهاال . الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله - عز وجل - يراه ويخاطبه بالطاقة ويناحيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم .

الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصوراً لهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مُستغرق بمشاهدة المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره .

وهذه درجة المقربين وقبلها درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذه الدرجات فهو درجات الغافلين .

العاشر : التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله - عز وجل - بهم . وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً واشفاقاً .

(مختصر من إحياء علوم الدين باب فصل قراءة القرآن وأدابه الظاهرة والباطنة)

(١) سورة طه الآية : ٨٢

(٢) سورة العصر الآيات : ١ - ٣

(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٦

(٤) صحيح البخارى - فضائل القرآن : ٦ / ٢٤١

وعد وعيد

قال تعالى :

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

تفسير المفردات

﴿ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ﴾ اعطيناه بلا تعب ولا مشقة كما يعطى الميراث ، ﴿ اصْطَفَيْنَا ﴾ : اخترنا واشتقاه من الصفو وهو الخلوص من شوائب الكدر ، ﴿ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الظلم تجاوز الحد ، ﴿ مُقْتَصِدٌ ﴾ : متوسط ، ﴿ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ سبق غيره وبده يعمل الخير ، ﴿ أَسَاوِرَ ﴾ : جمع اسورة وهي حلية تلبس في اليد ، ﴿ كَفُورٌ ﴾ : كثير الكفر ، ﴿ يَصْطَرِخُونَ ﴾ : يستغيثون في النار بصوت عال ، والصراخ الصوت العالي والصارخ والمستغيث والمصرخ المغيث ، ﴿ نَعْمِرْكُم ﴾ : نجعلكم تعمرون .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، مقتصد ، سابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأنهم يحلون فيها من أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ويقولون حيثنأ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ويقولون إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب ، وبعد أن بين مالعبادة الذين أورثوا الكتاب من النعم في دار السرور التي قال في مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها هجر مسته سراء
أردف ذلك ذكر ما لأضدادهم من النعمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وجور لا يدوم .

وبعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويرفع العذاب عنهم أردف ذلك بيان أنه محيط بالأشياء علماً فلو كان لهم نصير في وقت ما لعلمه .

إلا أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلدون في العذاب وقد ظلموا في أيام معبودات أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب ﴾ المقصود بالذى أوحينا إليك هو القرآن العظيم والخطاب هنا موجه إلى الرسول الكريم ﷺ هو الحق مصدقا لما بين يديه وذلك لقوله تعالى : ﴿ الله لا اله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ (١).

وكقوله جل شأنه : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه ﴾ (٢).

(١) سورة آل عمران الآيات : ٢ - ٤ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

والقرآن حق مطلق وصدق مطلق قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾^(١).

وقال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾^(٢).

وقال جل شأنه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾^(٣).

قوله تعالى : ﴿ إن الله بعباده خير بصير ﴾ .

أى : عالم بدقائق الأشياء بصير مطلع على ماتكنه الصدور فقد أحاط بكل شئ علما وأحصى كل شئ عددا ، قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

في هذه الآية إخبار منه - عز وجل - عن القائمين بهذا الكتاب الذين شرفهم الله - تعالى - بحمل الرسالة حيث قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ .

وكفى باصطفاء الله لهم شرفا وقدرًا ومجدا ونبلا وبرًا وفضلا .

ثم قسمهم تعالى إلى ثلاثة أقسام حيث قال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾^(٤). قال : هم أمة - محمد ﷺ - ورثهم ﷺ - تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وروى أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : ﴿ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ﴾^(٥).

قال ابن عباس - رضى الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ .

(١) سورة الأسراء الآية : ١٠٥

(٢) سورة الأنعام الآية : ٦٦

(٣) سورة الزمر الآيتان : ١ ، ٢

(٤) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨

(٥) المعجم الكبير للطبراني ١١ / ١٨٩ رقم ١١٤٥٤

﴿ مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فاما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ^(١).

وروى الحافظ أبو القاسم بسنده عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) الآية

قال : قال رسول الله ﷺ (كلهم من هذه الأمة) ^(٢)

وروى ابن جرير بسنده عن أنس مسعود - رضى الله عنه - قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلاث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلاث يحاسبون حسابا يسيرا وثلاث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله - عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم - تبارك وتعالى - فتقول الملائكة هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئا فيقول الرب عز وجل أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله - رضى الله عنه - هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ ^(٣).

وروى أبو داود الطيالسي عن عقبة بن صهبان الهنأى قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - عن قول الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية ﴾ فقالت لى : يا بنى هؤلاء فى الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثل ومثلكم قال فجعلت نفسها معنا وهذا منها - رضى الله عنها - من باب المضم والتواضع وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها فى النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على يعنى الباقر - رضى الله عنهما - عن قول الله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ فقال : هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام فى هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة فإنهم كما قال الإمام أحمد - رحمه الله - حدثنا محمد بن يزيد حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء - رضى الله عنه -

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٨

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١ / ١٣١ رقم ٤١٠

(٣) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨

(٤) مسند أبو داود الطيالسي ٦ / ٢٠٩ رقم ١٤٨٩

وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أى أخى قال حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال لا قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم قال رضى الله عنه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سلك طريقا يطلب فيها علما سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وأنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر^(١) ، وقد تقدم فى أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان ولا أبالى ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أى : ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم لا يقدر قدره .

وبعد ذلك جاء بيان ذلك الفضل مفصلا فى قوله تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ المقصود بعدن الإقامة يدخلونها يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين . ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ - أنه قال (تبلغ الحلية من المؤمن من حيث يبلغ الوضوء) ، وذلك كما فى قول تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ لأنهم امتثلوا لأمر الله فى الدنيا فلم يلبسوه لأنه كان محظورا عليهم فالبسهم الله تعالى إياه فى الجنة وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (من لبس

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٦

(٢) سنن أبى داود - كتاب العلم - باب الحث على طلب العلم ، وتحفه الأخوذى كتاب العلم أيضا - باب فى فضل الفقه على العبادة ٧ / ٤٥٠ رقم ٢٨٢٢ وسن أبى ماجة المقدمة - باب فى فضل العلماء والحث على طلب العلم ١ / ٨١ رقم ٢٢٣

(٣) سورة الكهف الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة وقال هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة . قال تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيهاحرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾^(١).

لا تركزن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيش الآخرة

روى ابن أبي حاتم بسنده عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال : إن أبا أمامة - رضى الله عنه - حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة مكلفة بالدر وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة وعليهم تاج كتاج الملوك شباب جرد مرد مكحولون »^(٢).

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ أى ما كنا نحذره من الهموم والخوف وما من شك فى أن هذه نعمة ما تدانيها نعم بعد الإيمان بالله ورسوله قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتاهاهم من عملهم من شيء ، كل أمرىء بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾^(٣) وقد قالوا أيضا فى موضع آخر : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبؤا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾^(٤) وإنما جاء الحق هنا وفى هذا المقام بالذات لأن فيه القضاء يقتضى الحمد لذا جاءت سورة الأنعام بعد سورة المائدة لأن فى آخر المائدة فصل القضاء وفى أول الأنعام الحمد قال تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم لله ملك السموات والأرض وما فىن وهو على كل شيء قدير ﴾^(٥) ثم قال تعالى فى أول سورة الأنعام : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ﴾^(٦) وهنا حمدوا الله الذى أذهب عنهم الحزن وقضى لهم بالجنة ونعيمها .

(١) سورة الحج الايتان ٢٣ ، ٢٤

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٢٦/٧ طبعة دار الفكر

(٣) سورة الطور الآيات : ١٧ - ٢٨

(٤) سورة الزمر الآية : ٧٤

(٥) سورة المائدة الايتان : ١١٩ ، ١٢٠

(٦) سورة الأنعام الآية : ١

وفى سورة الأعراف يقول تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزغنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار ﴾^(١)

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)^(٢).

قوله تعالى : ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ قال ابن عباس وغيره غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحلنا دارا لمقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد لله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات والأرض وملء ما فيها وملء ما شاء من شئ بعد لقد أدخلهم دار المقامة الدائمة من فضله لا بأعمالهم فإن الأعمال مهما عظمت وكثرت فإن نعمة الجنة والإقامة فيها نعمة لا تدانيها الأعمال وكثرتها ولذلك فإنهم يدخلونها بفضل الله ويتقاسمون درجاتها بأعمالهم قال تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهن أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾^(٣) .

جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة) قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال (ولا أنا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة منه وفضل) ومن نعم الله تعالى عليهم فى دار الخلد أنهم لا يمسهم فيها نصب أى إعباء ولا لغوب أى تعب والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم أى لا يمسنا فيها أى نصب ولا أى لغوب قليلا كان أم كثيرا ، لقد ولت الدنيا بهمومها وكربها وهم الآن فى دار السلام ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ﴾ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم ﴿^(٤)﴾ .

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا - به متشابها وهم فيها مطهرون وهم فيها خالدون ﴾^(٥)

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ ، ٤٣

(٢) الكامل لابن عدى ١٥٨٢/٤

(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٩

(٤) البخارى - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ١٢٣/٨

ومسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ١٣٩/٨ رقم ١٤٠

(٥) سورة يس الآيات :

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٥

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
طوأعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طيتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ .

هذا وعيد يأتي بعد الوعد وفيه بيان الحال الأشتياق ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ (١) .

وجاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ أما أهل النار الذي هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ﴾ (٢) .

وقال عز وجل : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (٣) فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك قال الله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ كما قال : تعالى ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٤) وقال سبحانه : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ (٥) وقال : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لا بشئ فيها أحقبا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ هذا منطق العدالة الإلهية أي : نجزي هذا الجزاء كل كفور جحود فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٢٨ - ٣٠

(٢) صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار ١٧٢/١ رقم ١٨٥ وابن ماجه في الزهد - باب ذكر الشفاعة ١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٩

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٧٧ ، ٧٨

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٧٦

(٥) سورة الاسراء الآية : ٩٧

(٦) سورة هم الآيات : ٢١ - ٣٠

ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ ﴿٢﴾ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿٣﴾ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿٤﴾ ﴿٥﴾ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴿٨﴾. ثم بين الله حالهم فى النار فقال تعالى : ﴿٩﴾ إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴿١٠﴾ إنهم يستغيثون يقولون : ﴿١١﴾ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ﴿١٢﴾ ولكن هيهات لقد كنتم فى الدنيا لاهين عابثين وكانت الدنيا دار عمل ولا حساب أما الآخرة فدار حساب ولا عمل قال تعالى : ﴿١٣﴾ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسثوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العاديين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴿١٤﴾

وقال تعالى : ﴿١٥﴾ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذبوا بلى الله حتى إذا جاءتهم الساعة

(١) سورة يونس الآية : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية : ١١١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٠

(٥) سورة الزخرف الآية : ٧٦

(٦) سورة الكهف الآية : ٢٩

(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

بغثة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴿١﴾.

وقال جل شأنه : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ﴿٢﴾.

وقال تعالى : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ﴿٣﴾.

وهنا يقول لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ أى لقد أعطيناكم العمر في الدنيا بحيث من أراد أن يتذكر كان له ذلك ولكنكم اتخذتم الدنيا لها ولعبا وغرتمكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ﴿ وجاءكم النذير ﴾ وقد جاءكم النذير وأرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم وأنزلنا إليكم كتابا يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم فذوقوا جزاء ما قدمت أيديكم فما للظالمين من نصير ولا معين ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم باذنون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع بعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿٤﴾.

ثم يثبت الله تعالى علمه الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض فيقول سبحانه : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ . فلا أحد يعلم الغيب إلا الله : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ﴿٥﴾ فقد علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين وهو الذى

(١) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٣١

(٢) سورة الحج الآيات : ١٩ - ٢٢

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٣ - ٢٠

(٥) سورة النمل الآية : ٦٥

يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴿١﴾.

بل إن علمه قد بلغ ما هو أدق وأعمق أنه عليم بذات الصدور وما تنطوي عليه النفوس ﴿٢﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿٣﴾ وقد علم ما انطوت عليه صدور هؤلاء من الجحود والكفر لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا .

﴿٤﴾ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدكم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرار ﴿٥﴾.

مواقف وعبر :

قال تعالى :

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٩﴾ اسْتَكَبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٥٩ ، ٦٠

(٢) سورة نوح الآيات ٥ - ٩

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١١﴾ وَلَوْ يَوَازِخُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿١٢﴾

معاني المفردات :

﴿ خلائف ﴾ : جمع خليفة . ﴿ مقتا ﴾ : غضبا شديدا . ﴿ شرك ﴾ : شركة . ﴿ غرورا ﴾ : باطلا . ﴿ نزولا ﴾ : من الزوال أى يمنعها منه . ﴿ جهد أيمانهم ﴾ : طاقتها وغايتها . ﴿ نفورا ﴾ : أعراضا وتباعدا عن الهدى . ﴿ يحيق ﴾ : يحيط . ﴿ ينظرون ﴾ : ينتظرون . ﴿ يعجزه ﴾ : ليسبقه ويفوته .

المناسبة وإجمال المعنى :

بعد ما بين - سبحانه - أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ما هو فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم . أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض ﴿ فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾ ثم أكد هذا بأمره ﷺ أن يقول لهم ما يضطرهم إلى الإعراف بوحدانيته وعدم اشراك غيره معه ، وبعد أن ذكر - سبحانه - تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام ، وبكتهم على هذا أشد التبكيت ، وضرب لهم الأمثال ، ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ، أردف ذلك ذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقيين لها ، ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا فقالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذى لا محيص عنه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم وسنته لا تبدل فيها ولا تحويل ثم نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراد .

ثم ذكر حلمه بعباده وإنه لو آخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ أى يخلف قوم آخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ أى فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ولن يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ (٢).

وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارؤه رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله أن يقول للمشركين : ﴿ أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ﴾ أى ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير كما قال تعالى : ﴿ قل أرايتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (٣). وكقوله تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ (٤). وكقوله تعالى فى أول هذه السورة التى بين أيدينا ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير * وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

(٣) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿٢﴾ أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه ﴿٣﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟

كما قال تعالى ﴿٤﴾ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴿٥﴾ . ﴿٦﴾ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴿٧﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانهم التى تمنوها لأنفسهم وهى غرور وباطل وزور .

قوله تعالى : ﴿٨﴾ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴿٩﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة والماسكة لهما فقال : ﴿١٠﴾ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴿١١﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عز وجل : ﴿١٢﴾ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴿١٣﴾ . وقال تعالى : ﴿١٤﴾ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴿١٥﴾ وقوله تعالى : ﴿١٦﴾ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴿١٧﴾ أى ما أمسكهما من أحد من بعده ، لا يقدر على دوامهما وابقائهما الا هو . وهو مع ذلك حلیم غفور أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ويستتر آخرين ويغفر ، ولهذا قال : ﴿١٨﴾ إنه كان حليما غفورا ﴿١٩﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿٢٠﴾ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴿٢١﴾ .

وقد جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » ﴿٢٢﴾ .

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة الصافات الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) سورة الحج الآية : ٦٥

(٤) سورة الروم الآية : ٢٥

(٥) سورة سبأ الآية : ٩

(٦) مسلم - كتاب الايمان - باب قوله عليه السلام :

« إن الله لا ينام .. ١٦/١ رقم ١٧٩ وقد أخرجه ابن ماجه فى المقدمة - باب انكرت الجهمية ٧١/١ رقم ١٩٦ والامام أحمد

فى مسنده ٤٠٠/٤ - ٤٠١

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون * هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها تحيرا أقل انتظروا إنا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ ^(١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ ^(٢) وفى الآية إخبار منه سبحانه وتعالى عن هؤلاء الجاحدين المعاندين الذين أقسموا بالله طاقة الأيمان وأغلظها إن جاءهم نذير وبعث فيهم نبي ليكونن أهدى من أى أمة بعث فيها نبي فلما جاءهم نذير وهو محمد ﷺ برسالة الخاتمة ما زادهم ذلك إلا نفورا وشرودا عن الحق ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوثهم سففا من فضة ومعارج عليها يظهرون وليوئهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنيهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن من لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولم نؤمن لريقك حتى تنزل علينا

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٥٦ - ١٥٩

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٦٧ - ١٧٠

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣١ - ٣٨

كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ^(١) تلك مواقفهم وهذا عنادهم كما قال تعالى : ﴿ استكباراً في الأرض ومكر السيء ﴾ استكباراً عن قبول الحق : إنهم يغمطون الناس وييطرون الحق ويمكرون بالمؤمنين مكر السيء ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرمهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ ^(٢) وقد مكروا مكرمهم وعند الله مكرمهم وإن كان مكرمهم لنزول منه الجبال ^(٣).

قوله تعالى : ﴿ وقد مكروا مكرمهم وعند الله مكرمهم وإن كان مكرمهم لنزول منه الجبال ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أى وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

قال محمد بن كعب القرطبي : ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به من مكر أو بغى . أو نكث وتصديقها في كتاب الله تعالى ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ﴿ إنما بغىكم على أنفسكم ﴾ ^(٤) ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ ^(٥).

وقوله عز وجل : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعنى عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسوله ومخالفتهم أمره كما قال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ^(٦).

قوله تعالى : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل بل هى جارية فى كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أى : تحولا ولا يكتشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد كما قال تعالى : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ ^(٧) . وكما قال تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٢) سورة النمل الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٦

(٤) يونس الآية : ٢٣

(٥) القمح الآية : ١٠ .

(٦) سورة الأنعام الآيتان : ١٠ - ١١ .

(٧) سورة الرعد الآية : ١١

عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا * ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف
نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴿١﴾.

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد
منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ
الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم
فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب
يعقلون بها أو آذان يسمعون بها * فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (٢)
وقوله تعالى في سورة الروم : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان
الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله
وكانوا بها يستهزئون ﴾ (٣).

وقوله تعالى في سورة غافر : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا
من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من
واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ (٤).

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر
منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات
فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا
بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر
هنالك الكافرون ﴾ (٥).

وقوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا
وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات
الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم

(١) سورة الأنعام الآيات : ٦٣ - ٦٥

(٢) سورة الحج الآية : ٤٦

(٣) سورة الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٤) سورة غافر الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٥) سورة غافر الآيات : ٨٢ - ٨٥

يرجعون * فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ^(١).

وقوله تعالى في سورة محمد : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ^(٢) ﴾ .

فقل لهؤلاء يا محمد أولاً تأخذون عبرة من الأمم السابقة وإنكم تملكون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون اقعدوا ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

﴿ أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر سيزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ^(٣) ﴾ .

لقد دمر الله عليهم وما كان الله ليعجزه من شيء أى شيء واللام هنا لام الجحود لأنها مسبقة بكون منفي وهذا يفيد أن الله تعالى صاحب السلطان الأعلى هو القاهر فوق عباده ﴿ إنه كان عليما قديرا ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إذ هو خالقهما لا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ، علم كل شيء وهو القادر على كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ على هذا منطق العدل ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ هذا منطق الفضل فإن يعاقب فبمحض العدل وإن يثب فبمحض الفضل إن الله لا يعجل كمجلة أحدكم . (إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ^(٤) .

ومثل الآية قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ ^(٥) .

فاللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك بإحسانك ولا تعاملنا بميزانك وعاملنا بما أنت أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ولا تعاملنا بما نحن أهله فكل ابن آدم خطاء .

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٦

(٢) سورة محمد الآيتان : ١٠ ، ١١

(٣) سورة القمر الآيات : ٤٣ - ٤٦

(٤) البخارى - كتاب التفسير - سورة هود - باب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ٩٤/٦ ومسلم - كتاب البر والصلة

- باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم ٢٥٨٣

(٥) سورة النحل الآية : ٦١

سورة يس

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاجماع عدد آياتها ثمانون وثلاث آيات عند الكوفيين

وكلماتها سبعمائة وتسع وعشرون ... وحروفها ثلاثة آلاف .

وللسورة اسمان : سورة يس لافتتاحها

وسورة حبيب النجار لاشتغالها على قصته .

مقصود السورة :

تأكيد أمر القرآن والرسالة وإلزام الحجة على أهل الضلالة وضرب المثل فى أهل أنطاكية وذكر حبيب النجار وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة وإبداء الليل والنهار وسير الكواكب ودور الأفلاك وجرى الجوارى المنشآت فى البحار وذلة الكفار عند الموت وحيرتهم ساعة البعث وسعد المؤمنين المطيعين وشغلهم فى الجنة وميز المؤمن من الكافر فى القيامة وشهادة الجوارح على أهل المعاصي بمعاصيهم والمنة على الرسول ﷺ بصيانيته من الشعر ونظمه وإقامة البرهان على البعث ونفاذ أمر الحق فى كن فيكون وكال ملك ذى الجلال على كل حال فى قوله : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى ﴾ سبق فى سورة القصص .

قوله ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ مرتين ليس بتكرار لأن الأولى هى النفخة التى يموت بها الخلق ، والثانية التى يحيى بها الخلق .

قوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ وكذلك فى مريم ولم يقل : ﴿ من دونه ﴾ كما فى الفرقان بل صرح كيلا يؤدى إلى مخالفة الضمير قبله فإنه فى السورتين بلفظ الجمع تعظيما وقد سبق فى الفرقان .

قوله : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون ﴾ وفى يونس : ﴿ ولا يحزنك قولهم إنا العزة لله جميعا ﴾ تشابها فى الوقف على (قولهم) فى السورتين لأن الوقوف عليه لازم (وإن) فيها مكسور الابتداء بالحكاية ومحكى القول محذوف ولا يجوز الوصل لأن النبى ﷺ منزّه من أن يخاطب بذلك .

قوله : ﴿ وصدق المرسلون ﴾ وفى الصافات . ﴿ وصدق المرسلين ﴾ ذكر فى المتشابه وما يتعلق بالإعراب لا يعد من المتشابه .

وجه اتصالها بما قبلها :

وذلك من وجوه .

١ - لما جاء في السورة السالفة قوله : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

٢ - أنه قال فيما قبلها : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ وقال في هذه : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ وقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ .

٣ - ورد في كلتا السورتين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار ففي سورة فاطر ﴿ ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها ﴾ وفي سورة يس : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ . وفي سورة فاطر يقول تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ . وفي سورة يس : ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ۚ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدُمُوا وَءَاثُرُهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

معاني المفردات :

﴿ يس ﴾ يرى كثير من المفسرين أنها من الحروف الهجائية التي افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم ، وروى عن أبي عباس - رضى الله عنهما - وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة ان

يس بمعنى يا إنسان . ﴿ والحكيم ﴾ أى : ذى الحكمة ، ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى : طريق قويم ، من عقائد صحيحه ، وشرائع حقه ، ﴿ حق ﴾ أى : ثبت ووجب ، ﴿ الأغلال ﴾ واحدها غل ، وهو ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ﴿ والمقمح ﴾ الذى يرفع رأسه ويغض بصره . قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . ﴿ من بين أيديهم ﴾ أى : من أمامهم ، ﴿ فاغشيناهم ﴾ أى : فغطينا أبصارهم ، ﴿ والذكر ﴾ القرآن ، ﴿ خشى الرحمن ﴾ أى : خشى عقابه ، ﴿ بالغيب ﴾ أى : قبل حلوله ومغاينة أهواله ، ما قدموا : أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ، وآثارهم : أى : ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علموه ، أو كتاب ألفوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات كفرس بذور الضلالات بين الناس ، ﴿ فى إمام مبين ﴾ أى : فى أصل يؤتم به .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ هذا قسم منه - سبحانه عز وجل - بالقرآن الحكيم والله تعالى أن يقسم بما شاء لكن لا يجوز للعبد أن يحلف إلا بالله ، وله إذا أقسم بالله - تعالى - أن يكون صادقا فى قسمه وألا يقسم إلا إذا دعت الضرورة لذلك ، والله تعالى يقسم بالقرآن الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وعلى أى شىء يقسم مولانا ؟ يأتى جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ هكذا مؤكدا بـ ﴿ إن ﴾ و ﴿ اللام ﴾ وفى القسم وجوابه رد على كل كفار أثيم ، ورد على المنكرين لنبوة خير الأنام ﷺ والذى قال له ربه فى التوراة كما قال له فى القرآن : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر)

ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

قوله تعالى : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وكما جاء فى قوله - عز وجل : ﴿ قل إني هدى ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل غير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر

وازره وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿١﴾.

قوله تعالى : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ حم - تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (٢). وكما قال سبحانه : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ لتذر قوما ما آندر آبائهم فهم غافلون ﴾ يعنى بهم العرب فإنه ما آتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفى من عدائهم لقوله سبحانه : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٤) ولقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٥).

قوله تعالى : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون (فهم لا يؤمنون) بالله ولا يصدقون رسله .

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يصرون * وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ قال العوفي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ قال هو كقوله عز وجل : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ (٦) يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ فهم مقمحون ﴾ قال رافعى رءوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ﴾ قال مجاهد عن الحق ﴿ ومن خلفهم سدا ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون وقال قتادة : فى الضلالات .

(١) الأنعام الآيات : ١٦٣ - ١٦٥

(٢) سورة فصلت الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

(٣) سورة الشورى الآيات : ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٦) سورة سراء الآية : ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فهُمْ لَا يَصْرُونَ ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ! جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾^(١) ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا - إِلَى قَوْلِهِ - فهُمْ لَا يَصْرُونَ ﴾ قال وكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو ؟ لا يبصره ، وروى أنه - ﷺ - خرج من داره مهاجرا وفي يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يدرها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم حتى انتهى إلى قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك من الدار فقال مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمدا قال : قد خرج عليكم فما بقى منكم من رجل الا وضع على رأسه ترابا ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفذ ما على رأسه من التراب .

قوله تعالى : ﴿ وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الانذار ولا يتأثرون به كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله - تبارك وتعالى - يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكِيَ فَاِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى لذنبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كثير واسع .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾^(٤) وكما في قوله سبحانه : ﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدَ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ

(١) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة الملك الآية : ١٢

بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴿١﴾.

ثم قال سبحانه : ﴿إنا نحن الموتي﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهدىهم بعد ذلك إلى الحق كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب في سورة الحديد : ﴿اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ونكتب ما قدموا﴾ أى : من الأعمال ، وفي قوله تعالى ﴿وآثارهم﴾ قولان (أحدهما) نكتب أعمالهم التى بأشروها بأنفسهم وآثارهم التى اثروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضا إن خيرا فخير وإن شرا فشر كقوله ﷺ (من سن فى الاسلام سنة حسنة كان له اجرها واجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أوزارهم شيئا . رواه مسلم (٣))

وروى مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده) (٤).

(والقول الثانى) ان المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية قال مجاهد : (ما قدموا) أعمالهم ﴿وآثارهم﴾ قال خطاهم بأرجلهم وكذلك قال الحسن وقتادة .

وقد وردت فى هذه المعنى أحاديث منها .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد) قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال - ﷺ - يا بنى سلمة (دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم) (٥) رواه مسلم أى : الزموا دياركم تكتب آثاركم .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله عمرو - رضى الله عنهما - قال : توفى رجل بالمدينة فصرى عليه النبى ﷺ وقال « ياليت مات فى غير مولده فقا ، رجل من الناس ، ولم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة » (٦).

(١) سورة ق الآيات : ٣١ - ٣٥

(٢) الحديد الآية : ١٧

(٣) مسلم - كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو بشق ثمرة أو كلمة طيبة وإنها حجاب من النار ٣ - ٧٠٥ رقم ١٠١٧

(٤) مسلم - كتاب الوصية - باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته ٣/١٢٥٥ رقم ١٦٣١

(٥) مسند الامام أحمد ٣ / ٣٣٢

(٦) مسند الامام أحمد ٧٧/٢ ورواه النسائى - كتاب الجنائز

وهذا القول لاتنافي بينه وبين الأول بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلان تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ (والأمام المبين) قال مجاهد وقتادة وغيرهما : هو أم الكتاب قال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر ﴾ ^(١) وقال سبحانه : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ^(٢) .

أصحاب القرية مع رسلهم

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ^(١٢) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ^(١٣) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ^(١٤) قَالُوا إِنَّا بِنَايَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ^(١٥) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ^(١٦) قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمِ تَنْتَهُوْا لَنَرَجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ^(١٧) قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَهِنْ ذِكْرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ^(١٨) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ^(١٩) اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ^(٢٠) وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ^(٢١) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ^(٢٢) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ^(٢٣) إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ^(٢٤) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ^(٢٥) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ *

(٣) سورة التحريم الآية : ١٠

(٤) سورة الجاثية الآيات : ٢٧ - ٢٩

(١) سورة القمر الآيتان : ٥٢ - ٥٣

(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩

معاني المفردات :

﴿ ضرب المثل ﴾ : يستعمل تارة تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما في قوله تعالى :
 ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح ﴾ الآية ويستعمل أخرى في ذكر حال غريبة وبيانها للناس
 من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : ﴿ وضررنا لكم الأمثال ﴾ أى وبيننا لكم أحوالا غاية
 في الغرابة كالأمثال والقرية : قيل أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة . ﴿ فعززنا ﴾ أى : فقوينا
 وشددنا ، ﴿ البلاغ المبين ﴾ أى : التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ، ﴿ تطيرنا ﴾ أى : تشاء منا ،
 ﴿ لنرجنكم ﴾ : أى : لنرميكم بالحجارة ، ﴿ طائركم ﴾ : أى : سبب شؤمكم ﴿ مسرفون ﴾ :
 أى يجاوزون الحد في العصيان ، ﴿ أقصى المدينة ﴾ أى : أبعد مواضعها ، ﴿ يسعى ﴾ : أى : يعدو
 ويسرع ، ﴿ لاتغن ﴾ : أى : لاتنفع ، ﴿ ولا ينقدون ﴾ : أى : لا يخلصوني . ﴿ من جند من
 السماء ﴾ جند السماء ملائكة الوحي أو ملائكة تنزل بالعذاب ﴿ خامدون ﴾ : ميتون وهامدون
 كالرئاد الخامد .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون - اردف ذلك ذكر مثل
 لقوم حالهم كحالهم في الغلو في الكفر والاصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن
 سماع الوعظ والارشاد ، وهو أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله
 كقصص قومك معك ، في العناد والاستكبار والعتو والطغيان .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ يقول تعالى :
 واضرب لهم يا محمد أى لقومك الذين كذبوك وجادلوك اضرب لهم مثلا وهو شأن أصحاب القرية
 وحالهم العجيبة مع رسلهم الذين أرسلوا إليهم والذين جاء تفصيلهم في قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم
 اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ أى : قويناهما بثالث فلما ذهب الثلاثة إليهم قالوا : إنا إليكم مرسلون
 والمقصود بالقصة مغزاها ومعناها ومرواها لذا فإن القرآن لا يعول على الأسماء ، حتى يكون هناك
 تركيز على المغزى والمعنى . فماذا قال له أصحاب القرية ؟ ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ وتلك
 كلمة جاءت على السنة المكذبين من قبلهم فقد قيل في شأن نوح : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه
 فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا
 بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين إن هو
 إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ^(١) وجاء في شأن هود وصالح مع عاد وثمود قوله تعالى :
 ﴿ فإن عرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن
 خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لآنزل ملائكة فإنا بما أرسلكم به كافرون ﴾ ^(٢) .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٢٣ - ٢٥

(٢) سورة فصلت الآيات : ١٣ ، ١٤

وجاء في شأن غيرهم من الأنبياء قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ .

﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلكم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى وقالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾^(١) .

وجاء في سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ أيعدكم أنكم إذا ممم وكنتم ثرابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾ هيات هيات لما توعدون ﴾ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾^(٢) .

وجاء في شأن خاتم الأنبياء ﷺ ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾^(٣) .

وقوله : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾^(٤) فانظر كيف اتحدت كلمة الباطل على ألسنتهم مع بعد الزمان أو المكان . ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ولذا قال تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾^(٥) وكان البشرية أصبحت تهمة توجه إلى الأنبياء ، ألم يعلم هؤلاء المكذبون أن الله تعالى جعل الأنبياء بشرا حتى يكونوا على دراية بأحوال البشر ، وحتى يقفوا من مشاكل البشرية موقف الإصلاح في نور الوحي يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعملون وينامون ويمرضون ولو كانوا ملائكة لكانوا بمعزل عن طباع البشر لذا قال تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خيرا بصيرا ﴾^(٦) .

(٥) سورة فصلت الآية : ٤٣

(٦) سورة الذريات : ٥٣ - ٥٥

(٧) سورة الاسراء الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٩ - ١١

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٣١ - ٣٧

(٣) سورة الاسراء الآية : ٩٤

(٤) سورة الفرقان الآيات : ٧ - ٩

وقال ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلنا رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(١)

وهؤلاء القوم الذين هم أصحاب القرية تمادوا في عنادهم حتى قالوا لرسول الله : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم ألا تكذبون ﴾ لقد انكروا الرسالة من أصلها ورموا صدق البشر بالكذب والكذب رذيلة من أخط الرذائل إذ هي أصل كل ذنب .

فماذا قال الرسل ، زادوا الأمر توكيدا : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ فأسندوا إرسالهم إلى علم الله ، وعلم الله لا يقبل الجدل ، فعلمه حقيقة وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية ، كذلك أكدوا الأسلوب بـ (إن) و (اللام) المؤكدة ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ ثم بينوا لهم مهمة الرسل فقالوا : ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾^(٢) وكما قال سبحانه ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ ﴾^(٣) فماذا قال القوم لرسولهم بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم لرحمتكم ولیمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائرکم معکم ائن ذکرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

قال قتادة المقصود بذلك : إنا أصابنا شر فإنما هو من أجلكم وقال مجاهد يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا غلب أهلها ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾^(٤) .

ثم أوعدوا الرسل وهددوهم قائلين : ﴿ لنن لهم لرحمتكم ولیمسنكم منا عذاب أليم ﴾ أي : تكفوا عن قولكم هذا ﴿ لرحمتكم ﴾ أي : بالحجارة ﴿ ولیمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وهذا شرح للرجم كما قال قوم شعيب له ﴿ يا شعيب مانفقة كثيرا فما تقول إنا لو آلهنا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير ﴾^(٥) وكما قال آزر لأبنة إبراهيم : ﴿ أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لنن لم تنته لأرجنك واهجرنى مليا ﴾^(٦) .

فماذا قال الرسل ؟ لقد قالوا لهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ طائرکم معکم ﴾ أي : مردود عليكم ولسنا سببا في هذا التشاؤم لأننا مؤمنون بأن كل شيء بقضاء الله وقدره .

(٤) سورة هود الآية : ٩١

(٥) سورة مريم الآية : ٤٦

(١) سورة الأنعام الآيات : ٨ - ١١

(٢) سورة النور الآية : ٥٤

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣١

وقوله تعالى : ﴿ أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أى : أئن ذكرتم بتوحيد الله والايان به وبرسله أعرضتم ورميتمونا بما ليس فينا بل أنتم قوم مسرفون على أنفسكم بالذنوب والخطايا .

قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، أأخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ .

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة قال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك جاءهم يسعى أى : لينصرهم من قومه .

﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون ﴾ أى : إبلاغ الرسالة ، وتلك رسالات الأنبياء جميعا لا يسألون الناس على تبليغها أجرا ، إقرأ معى ما جاء فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١) .

وهكذا جاء على لسان هود وصالح ولوط وشعيب وفى شأن المرسلين يقول تعالى فى سورة سبأ ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو كل شىء شهيد ﴾ (٢) وهذا دليل من أدلة صدق النبوة لا يسألون الناس على التبليغ أجرا إنما يسألون الأجر والمثوبة من العلى العظيم .

ثم يقول ذلك الرجل الصالح : ﴿ وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾ كما جاء على لسان الخليل إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إئننى برأء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (٣) .

ثم يقول ذلك العبد الصالح : ﴿ أأخذ من دونه آلهة ﴾ هذا سؤال تسيل له النفس مرارة والكبد لوعة أهنالك آلهة غير الله ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيوا لكم إن كنتم صادقين * أهنم أرجل يمشون بها أم هنم أيدي يطشون بها أم هنم أعين

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ - ١٠٩

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٧

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ - ٢٨

يصرّون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿١﴾ ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴿٢﴾﴾.

لذا أكد ذلك العبد الصالح هذا المعنى قائلا ﴿إن يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون﴾.

إذ هم لا يملكون الشفاعة قال تعالى : ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴿٣﴾﴾ وقال : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿٤﴾﴾.

أنهم كما لا يملكون الشفاعة ، لا يستطيعون أن ينقذوا أحدا من عذاب الله لأنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿٥﴾ وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿٦﴾ . ثم قال العبد الصالح : ﴿إني إذا لفى ضلال مبين﴾ أى إن اتخذت آلهة غير الله وعبدت غيره فإنى فى ضلال مبين واضح ، ثم بعد هذا التسلسل يصل إلى تقرير الحقيقة العليا التى لا يجادل فيها إلا كل ختار كفور فيقول :

﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ كما جاءت هذه الحقيقة على لسان خليل الرحمن إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقنى وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين *

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩٤ - ١٩٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٣٨

(٣) سورة سبأ الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٤) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦

(٥) سورة الأنعام الآيتان : ١٧ ، ١٨

والذى أطمع أن يغفر لى خطيئى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * وأغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿١﴾ .

قوله ﴿ فاسمعون ﴾ قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول لقومه : ﴿ إلى آمنت بربكم ﴾ الذى كفرتم به ﴿ فاسمعون ﴾ أى : فاسمعوا قولى ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسول بقوله : ﴿ إلى آمنت بربكم ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ فاسمعون ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده كما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

قوله تعالى : ﴿ قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين ﴾ .

قال محمد بن اسحاق بسند .. عن ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج مسعاؤه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ﴿ قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين ﴾ . قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿ ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين ﴾ وعن أبى مجلز ﴿ بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين ﴾ بإيمانى برى وتصديقى المرسلين والمقصود أنهم لو أطلعوا على ما حصل له من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضى عنه فقد كان حريصا على هداية قومه .

قال إن أبى حاتم بسنده عن عروة بن مسعود الثقفى - رضى الله عنه أنه قال : للنبي ﷺ ابعتنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ (إني أخاف أن يقتلوك) فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى فقال له رسول الله ﷺ : (انطلق) فانطلق فمر على اللات والعزى فقال لاصبحنك غدا بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : : يا معشر إن الات لالات وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : (هذا مثله كمثل صاحب يس) ﴿ قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربي وجعلنى من المكرمين ﴾ .